

● أكرم زعيتر يكتب ذكرياته عن الشاعر القروي



● علوم الفضاء تقدم علاجاً جذرياً لمرض السكر

بمناسبة انعقاد الدورة الخامسة للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في الكويت هذا الشهر، نتعرض لأحد الموضوعات الهامة التي تسهم في دعم التعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء..

مجلس التعاون والمشروعات الخليجية المشتركة

بقلم: الدكتور يحيى رجب

الواقع ان المشروعات الخليجية المشتركة تؤدي دوراً هاماً في تحقيق التكامل الاقتصادي بين دول الخليج العربية، وتعمل على تحقيق ذاتية اقتصادية للمنطقة، وتهدف الى توسيع نطاق السوق المحلية، والتمتع بمزايا الانتاج الكبير وتوزيع المخاطر الصناعية. وتقتضي زيادة الانتاج في المنطقة البحث عن اوجه استثمارات جديدة للفوائض البترولية واقامة مشروعات انتاجية تعود بالنفع المتبادل لكل الدول الاعضاء في مجلس التعاون بدلا من تسرب هذه الفوائض في شكل ارصدة نقدية الى الدول الصناعية الغربية.

وتنص المادة ٢١ من الاتفاقية الاقتصادية الموحدة لدول مجلس التعاون على ان تسعى الدول الاعضاء الى وضع سياسة استثمارية مشتركة تهدف الى توجيه استثماراتها الداخلية والخارجية بما يخدم مصالحها وتطلعات شعوبها في التنمية والتقدم.

وتتمثل السياسة المشتركة المتطلبة في دراسة كيفية الاستثمار الافضل للفوائض البترولية، مع الوضع في الاعتبار انه يجب ان تحقق هذه السياسة مصلحة دول منطقة الخليج العربية اولا، حيث انها صاحبة الحق في فوائضها البترولية، وان تبحث هذه السياسة عن ايجاد مصدر بديل للدخل يتصف بالدوام، فالبرغم من ان دول المنطقة تملك اكبر كميات من احتياطي النفط في العالم إلا ان هذه الكميات الهائلة سوف تنضب في المستقبل.

والاتجاه إلى تعاون دول الخليج العربية في شكل مشروعات مشتركة، يعتبر اتجاها يتمشى مع الادراك الواعي لظروف المنطقة الراغبة في تحقيق الوحدة الاقتصادية.

المشروعات الدولية المشتركة

تتميز المشروعات المتعددة الجنسية بقدرتها المالية ونفوذها وتحكمها من خلال شركات تابعة لها فى كل من الانتاج والتسويق وغيرها من المرافق المتصلة بمصالحها في عدد من الدول خارج الدولة التي يقع مقرها الرئيسي، ولهذه الشركات تاثيرها الكبير على الاقتصاد العالمي، وكان في وسعها ان تدعم تنمية دول العالم الثالث إلا انها خيبت الآمال في قدرتها على توفير التنمية الحقيقية وركزت نشاطها على الاهتمامات التجارية البحتة وعلى تحقيق الربح.

وبالرغم من ان دول منطقة الخليج العربية تقوم بفرض الرقابة على مواردها النفطية، عن طريق شركات النفط الوطنية الا انها مازالت تعتمد اعتماداً كبيراً على الشركات المتعددة الجنسيات فى ادارة قطاعاتها النفطية، وفي عمليات تسويق النفط وتكريره، وفي مجالات الاستثمارات والمقاولات والخدمات الفنية.

ولذلك فانه ينبغي ان تهدف السياسة الاستثمارية المشتركة لدول مجلس التعاون الى اقامة المشروعات التي تعمل على تحقيق التنمية الاقتصادية للدول الأعضاء وتدعم امكانات التكامل فيما بينها، وتركز على المزايا الحقيقية للانتاج الكبير.

أهم المشروعات الصناعية

تتميز المشروعات المشتركة في منطقة الخليج العربية بان المساهمات التمويلية للمشروعات المقامة فيها تبلغ حوالى ٦٦ فى

المائة من اجمالي الأموال المستثمرة في المشروعات الصناعية العربية المشتركة ، وتحظى منطقة الخليج العربية بزيادة عدد المشروعات المشتركة ذات رؤوس الاموال العالية ، فيتركز في البحرين ١١ مشروعا صناعيا مشتركا يزيد راسمالها عن ١٫٢ بليون دولار امريكي .

ونوضح فيما يلي اهم المشروعات الصناعية المشتركة في منطقة الخليج العربية :

تعتبر صناعة الاسمنت ومواد البناء من المشروعات الهامة في المنطقة ، فقامت الشركة السعودية الكويتية لصناعة الاسمنت بالمملكة العربية السعودية ، وشركة اسمنت الفجيرة ، وشركة الاسمنت السعودي البحريني ،وشركة اسمنت عجمان ، وشركة راس الخيمة لصناعة الاسمنت ، وشركة الشارقة للاسمنت والتنمية الصناعية .

وترجع كثرة انتشار مشروعات الاسمنت في منطقة الخليج العربية الى زيادة اهتمام المنطقة بتنفيذ العديد من المشروعات الهامة في مجال البناء والتشييد إلا ان بعض الدراسات المتخصصة ترى ان هناك مخاوف من وجود طاقة زائدة في الاسمنت في كثير من بلدان الخليج العربية نتيجة للتوسع الكبير غير المنسق في صناعة الاسمنت .

وفي مجال صناعة البتروكيماويات تم انشاء شركة قطر للبتروكيماويات المحدودة « قابكو » ، وتقدر استثمارات المملكة العربية السعودية في مجال البتروكيماويات بنحو ٣٨ بليون ريـال سعودي ، وسوف يجعلها ذلك من اكبر منتجي البتروكيماويـــات في الدول العربية ، وتم تاسيس اول مشروع خليجي مشترك في مجال البتروكيماويات في البحرين في مايو ١٩٨٠ باسم شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات وذلك بين المملكة العربيـــة السعودية والكـويت والبحرين .

وفي مجال صناعة الاسمدة تم انشاء اول مشروع عربي مشترك للاسمدة الازوتية بالكويت علم ١٩٦٦ بمشاركة اجنبية كويتية الى ان تم تكويت المشروع ، ثم توالت المشروعات المشتركة في المنطقة العربية وكان اولها مشروع قطر للاسمدة الكيماوية « قافكو » .

وبالنسبة لصناعة تكرير النفط نلحظ ان المشروعات الخليجية المشتركة لا تتناسب مع امكانات النفط في منطقة الخليج العربية ، الا انه في السنوات الاخيرة اظهرت كل من الكويت والمملكة العربية السعودية اهتماما كبيرا بمشروعات تكرير النفط المشتركة بالتعاون مع الشركـات العالمية .

ومن اهم المشروعات الصناعية في مجال التعدين شركة الومنيوم البحرين ، وشركة الخليج لدرفلة الالومنيوم ، والشركة العربية للحديد والصلب في البحرين ، وشركة قطر للحديد والصلب ، وشركة السعودية للحديد والصلب ..

هذه هي اهم المشروعات الصناعية المشتركة في منطقة الخليج العربية ، ونعتقد انه ينبغي إجراء التنسيق الصناعي بين دول مجلس التعاون ، والذي يحول دون قيام المشروعات المتضاربة ، وتحقيق المنافع المشتركة للأطراف المعنية .

وهنــاك بعض الانشــطة الصناعية لا يمكن اقامتها إلا على نطــاق واســع للاستفادة من مزايا الانتاج الكبير ، ولذلك فقــد نصت المادة ١٢ من الاتفاقيــة الاقتصادية الموحدة لدول مجلس التعاون على ضرورة تنسيق النشاط الصناعي بين الدول الاعضــاء وتوحيد التشريعـات والانظمة الصناعية ، وتوزيع الصناعات بين الدول الاعضاء حسب الميزات النسبية والجدوى الاقتصادية . وتشجيع اقامة الصناعات الاسـاسية والتكميلية فيما بينها .

مجلس التعــاون والمشروعات المشتركة

تنص الاتفاقية الاقتصادية الموحدة على تشجيع اقامة المشروعات المشتركة ، فاشارت المادة ١٣ من الاتفاقية الى ان : تولى الدول الاعضاء في اطار العمليات التنسيقية اهمية خاصة لانشاء ودعم المشروعات المشتركة فيما بينها في مجالات الصناعة والزراعة والخدمات برؤوس اموال عامة او خاصة او مختلطة لتحقيق التكامل الاقتصادي والتشابك الانتاجي والتنمية المشتركة على اسس اقتصادية سليمة » .

ونوضــح فيما يلي اسس اقامــة المشروعات المشتركة ، ودور القطاع الخاص بدول مجلس التعاون في اقامة المشروعات المشتركة ، ثم نعرض تصورا لتدعيم نشاطات المشروعات المشتركة في دول مجلس التعاون :

● **اولا : اسس اقامة المشروعات المشتركة :**

توجد عدة اساليب لاقامة المشروعات المشتركة ، منها اسلوب المشروعات المنفردة التي تقوم على اشتراك الاطراف المعنية في انشاء كل مشروع على حدة ، وتتحمل هذه الاطراف مجتمعة تكاليف اقامة المشروع وادارته .

ويوجد اسلوب اخر يقوم على « اختيار مجموعة من المشروعات » تمثل في الغالب منشات مترابطة لصناعة اساسية يتم الاتفاق المشترك على توزيعها فيما بين الاطراف المعنية ،ويتحمل كل طرف تكاليف اقامة المشروع المخصص له وادارته وتحمل مخاطره .

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى تجربة مجموعة دول امريكا الوسطى « الانديز » ، ففي عام ١٩٥٨ قامت خمس دول من امريكا الوسطى وهي نيكاراجوا والســلفادور وكوستاريكا وجواتيمــالا وهندوراس بالتوقيع على اتفاقية تنظيم صناعات التكامل في هذه المنطقة ، وتهدف الى اقامة مشروعات صناعية مشتركة تقوم على التخصص ، وتراعي مبدا تحقيق العدالة في توزيع المزايا وتحمل الاعباء وتعتبر قرارات انشــاء هذه المشروعات والملكية والادارة محلية ، وتمنح منتجات هذه المنشات مزايا منطقة التجارة الحرة ، والاتحاد الجمركي ، وشملت هذه التجربة الصناعات التعدينية والبتروكيماويات .

ويرى بعض خبراء الاقتصاد ان اسلوب التكامل القطاعي في اقامة المشروعات المشتركة هو الاسلوب الممكن تنفيذه عمليا ويرجع ذلك الى ان معظم الحكومـات سواء في الدول المتقدمة او الدول النامية ترفض اقامة التكامل الاقتصادي العام لأنها ترى ان التكامل يتطلب التنازل عن جزء كبير من سيادتها ولذلك فانها تفضل اقامة نوع من التكامل القطاعي المحدود لكي تحصل منه على اكبر ما يمكن الحصول عليه من مزايا التكامل دون المساس بسيادتها .

● **ثانيا : القطاع الخاص والمشروعات المشتركة :**

تنص المادة الثامنة من الاتفاقية الاقتصادية الموحدة على ان تتفق الدول الاعضاء على القواعد التنفيذية الكفيلة بمعاملة مواطني دول مجلس التعاون في اي دولة من هذه الدول نفس معاملة مواطنيها دون تفريق او تمييز في حرية الانتقال والعمل والاقامة ، وحق التملك

والارث والايصاء ، وحرية ممارسة النشاط الاقتصادي ، وحرية انتقال رؤوس الاموال كما تنص المادة التاسعة من الاتفاقية على قيام الدول الاعضاء بتشجيع القطاع الخـــاص فيها على اقامـة المشروعـات المشتركة بما يؤدي الى ربط المصالح الاقتصادية للمواطن في مختلف المجالات .

وقرر المجلس الاعلى لمجلس التعاون في دور انعقاده الرابع بدولة قطر في الفترة من ٧ ـ ٩ نوفمبر ١٩٨٣ توسيع دائرة النشاطات الاقتصادية التي تسمح لمواطني دولة عضو بممارستها فى الدول الاعضاء الاخرى وذلك اعتباراً من أول مارس ١٩٨٤ .

ويعتبر القطاع الصناعي من المجالات الهامة للاستثمارات الخليجية المشتركة بشرط ان تمهد له اجهزة مجلس التعاون افضل السبل المناسبة ، وينبغي ان تتوافر المراكز المتخصصة التي تقدم المعلومات والارشادات للقطاع الخاص عند دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروعات المختلفة .

وتوجد عدة صور لمشاركة القطاع الخـــاص مـــع القطاع الحكــــومي في المشروعات المشتركة منها : اسهام القطاع الخاص المباشر في رأس مال المشروع المشترك وذلك بتنازل الدول الشريكة عن جزء من حصتها لصالح مواطنيها او للاشخاص الاعتبارية التي تحمل جنسيتها مثلما فعلت دول مجلس التعاون في اتفاقية « مؤسسة الخليج للاستثمار » والتي وافق عليها المجلس الاعلى لمجلس التعاون فى دور انعقاده الثالث بالبحرين فى نوفمبر ١٩٨٢ ، حيث نصت المادة العاشرة من النظام الاساسي للاتفاقية على انه يجوز لأي من الحكومات المساهمة ان تنقل ملكية جزء لايزيد عن ٤٩ في المائة من مجموع اسهمها لمواطنيها من الافراد والاشخاص الاعتبارية التي تتمتع بجنسيتها .

● ثالثاً : تصورات لتدعيم النشـــاطات للمشروعات المشتركـــة فى دول مجلس التعاون :

١ ـ ينبغي الاهتمام بمرحلة اختيار المشروع ، والتركيز على المشروعات التي تحقق منفعة اقتصادية ملموسة للاطراف المعنية ، وتتميز بانتاجية مرتفعة واختيار الاساليب الاقتصادية التي تحقق افضل ظروف الاداء .

٢ ـ يلزم التفرقة بين ملكية المشروع وادارته حيث انه لا يشترط توافر القدرة المادية مع الخبرة الادارية ، ولذلك فانه يجب ان يتم اختيار مجلس ادارة المشروع وفقا لشروط الكفاءة والتخصص دون اعتبار لجنسية الدول المساهمة في المشروع

٣ ـ الالتزام باتباع الاساليب التجارية والمالية المستقرة في ادارة المشروعات وتنويع الاستثمارات بما يكفل تنمية المشروعات ، والتعامل مع المؤسسات المالية والمصارف التي تتمتع بالسمعة الطيبة والكفاءة في العمل ، والتركيز على الاسواق الاستثمارية الجيدة والجديدة والمجزية ، بالاضـــافة الى متابعة خطوات تنفيـذ المشروع ، واجراء التعديلات المتطلبة على دراسة الجدوى الاقتصادية الخاصة به لربطها باهداف الخطة المعتمدة .

٤ ـ قيام صناديق الانماء في دول مجلس التعاون ـ ومنها الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ، وصندوق ابو ظبى للانمـــاء الاقتصادى العربى ، والصندوق السعودى للتنمية ـ بدورها فى دعم المشروعات الخليجية المشتركة وذلك بالاسهام في رؤوس اموالها او في تقديم قروض لها .

٥ ـ الاهتمام بتوفير ضمانات تشغيل المشروع وحمايته ضـــد المخـــاطر غير التجارية ، وتوفير الحصانات والاعفاءات اللازمة لتيسير تشـــغيله . فـــاذا كانت الفوائض البترولية المستثمرة فى الدول الغربية تتعرض لكثير من المخاطر مما يتعذر معه القول بان هذا الشكل من الاستثمار يمثل مصدراً بديلا للنفط يتصف بالدوام او الاستقرار ، إلا انه مما لا شك فيه ان من حق دول مجلس التعاون ان تطمئن الى المناخ السياسي لاستثماراتها في الدول النامية والاحساس بالطمانينة في مواجهة المخاطر غير التجارية .

٦ ـ يشجع تنوع موارد الثروة الزراعية والحيوانية فى الوطن العربى على اقامـة مجموعة عديدة من المشروعات الصناعية والزراعية العربية المشتركة ، واللازمة للاسهام فى معالجة مشاكل الأمن الغذائي بدول الخليج العربية حيث يعانى القطاع الزراعى والغذائى والحيوانى عجزاً كبيراً في مواجهة مطالب الاستهلاك .

٧ ـ إمكانية التنسيق في الظروف المناسبة بين المجموعة الخليجية ومجموعة وادي النيل (مصر والسودان) في اقامة المشروعات المشتركة التي تحقق المصالح الاقتصادية المتبادلة .

ولا توجد اية عوائق او قيود تعرقل من تحقيق هـــذا التعـــاون حيث أن دول المجموعتين جزء من الأمة العربية ، وتسير جميعها فى اطار قومي واحـــد وكلها دول عربية يجمعها وحدة اللغة والاصل والتاريخ ، ويتوقف التعاون المنشود على الرغبة والاقتناع بالنتائج المرجوة التي يمكن تحقيقها .

ونعتقد أن التعاون المشترك بين المجموعتين سوف يحقق نتائج كثيرة في مجال الاستفادة من الثروة الاقتصادية الســـودانية والمصرية ورؤوس الأمـــوال الخليجية بجانب الخبرة المصرية في اقامة المشروعات المشتركة .

ولقد حرص ميثاق التكامل المصري السوداني على توفير الضمانات ضد المخاطر غير التجارية فتنص المادة ٢٤ من الميثاق على عدم جواز تاميم المشروعـات الأجنبية والحجز على اموالها او مصادرتها أو فرض الحراسة عليها ، كما ينص الميثاق على أن يتم تسوية المنازعات الاستثمارية عن طريق التحكيم الاتفاقي او الدولي مما يشجع ذلك على اسهام رؤوس الاموال الخليجية في استثمارات مشتركة يستفيد منها جميع الأطراف .

يحيى رجب

صحافة بلا أحزاب وأحزاب بلا صحافة

بقلم: فتحي رضوان

لم تجتمع فى مصر الجريدة الرائجة الذائعة ، والحزب القوى المؤيد بملايين الشعب .

فالحزب الناجح صاحب الأغلبية أو مايقرب منها إما أن يكون بلا جريدة تتحدث باسمه وتدافع عن سياسته ، وتروج لمبادئه ، وتهاجم أعداءه ، واما أن يكون صاحب جريدة خاملة لايشتريها الناس ، ولا يقبلون عليها .

فتاريخ مصر الحزبى ، الذى بدأ حوالى سنة ١٩١٧ ممثلا فى الحزب الوطنى ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ، الذى شكله على يوسف ، وحزب الأمة الذى ألفته جماعة من أعيان مصر ، يتقدمهم محمود سليمان باشا ، وحسن عبد الرازق باشا ، ومحمود بك عبد الغفار ، كان تاريخ صحف ، وليس تاريخ احزاب .

فحزب الأمة الذى أصدر صحيفة (الجريدة) لم يكن له من الحزب الا اسمه ، فلم يسمع له عن نشاط ، ولم يكن فى مدن مصر الكبرى — دع عنك الصغرى — لجان تستميل الناس اليه ، ولم ينشر عن اجتماع عقده ، ولا حملة حزبية نظمها ، ومع ذلك كانت له صحيفة تتحدث باسمه ، ويطالعها الناس معجبين بأقلام كتابها ، وبحوث محرريها ، وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد . فالشهرة وذيوع الاسم استأثرت بهما صحيفة الحزب ، فى حين جهل المصريون الحزب نفسه ، ولم يجد واحد من المصريين عنده النشاط ليعلن أنه منضم لحزب الأمة .

وكان حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية مجرد عنوان لاتحمله جماعة من البشر ، ولا تنتمى إليه طائفة من الناس ، ولم تنتشر له فكرة ، ولم يرج له مذهب ، ولم يساهم فى حملة ، ولم يرشح أحدا ليخوض معركة فى انتخاب . ولعل مؤسس هذا الحزب ، الشيخ على يوسف باشا ، أشهر كتاب مصر ، وأقدر صحفييها عند صدور جريدة «المؤيد» فى اليوم الأول من ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، لم يكن ينتوى ولو للحظة أن يكلف نفسه عناء الجهاد من أجل حزبه ، فالغاية من انشاء الحزب انتهت بهذا الانشاء والتأسيس . أما الجهد كله ، والعناية من أولها الى آخرها فمصروفة للجريدة ، للمؤيد ، التى كانت أكبر جرائد مصر ، تقف بين جريدة الأهرام التى صدرت فى الاسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وهى تتبنى سياسة فرنسا فى المشرق العربى ، وتروج لها ، وتحارب ما استطاعت سياسة الاحتلال البريطانى ، بلا حماسة مفرطة ، ولا عنف عند المجادلة ، وبين جريدة المقطم الاحتلالية اسما ورسما ، سرا وعلنا ، التى تدافع عن سياسة الانجليز بلا تحرج ولا احتشام ، وتجد فى ذلك سعادة أن تكون جريدة الاحتلال ، وان تهاجم اعداء هذا الاحتلال وفى مقدمتهم مصطفى كامل دائما ، والخديوى عباس أحيانا .

وكانت جريدة المؤيد ، وهواها مع الخديو عباس ، تميل اذا مال ، وتعتدل اذا اعتدل ، وتخاصم الاحتلال حينما تشتد الخصومة بين سلطان البلاد ، الخديوى صاحب السلطة ، وبين الغزاة الدخلاء اصحاب السلطة الشرعية . ومع رواج هذه الجريدة وتجاوز شهرتها لحدود مصر ووصولها الى الهند اقصى المشرق والى المغرب فى أقصى المغرب ، يبحث الناس عن حزب هذه الجريدة ، فلا يجدون له مقرا ، بل لعلهم لايفكرون فى هذا الحزب لأنهم لايسمعون به حتى من مؤسسه الكاتب البارع الذى كان فى وسعه أن يطلق اسم حزبه على جميع الألسنة ، وأن يطرق به كل الاسماع .

أما حزب اللواء الذى صدر فى الثانى من يناير ١٩٠٠ م فقد كان لسان حال الوطنيين المتطرفين ، الذين ضاقوا بالاحتلال البريطانى ، ورفضوا التسليم بوجوده ، بل




علي يوسف



مصطفى كامل




سعد زغلول



أحمد لطفى السيد

رفضوا معايشته أو تصور أى خير يمكن أن يصدر عن هذا الاحتلال الذى عدوه مصابا ، وبلاء ، وكارثة .

هذه الجريدة كانت بلا شك جريدة رائجة ، واستطاعت أن تنشئ جيلا من الشباب المصرى الذى تتأجج وطنيته وتشتعل حميته ، والذى آلى على نفسه ان يحارب الاحتلال فى كل مكان ، وبكل وسيلة ، وعد إجلاء الانجليز عن أرض وطنه الغاية والهدف . وقد استطاعوا بفضل حماسهم وتطرفهم أن يكونوا أكثر الاحزاب أنصارا ، وأوسعها نطاقا ، وأقواها أثرا . وكانوا يزيدون مع الأيام ، وتعلو كلمتهم بتوالى الأحداث . ومع ذلك فان هذا الحزب لم يتشكل وينشر برنامجه ، ويعد لائحته النظامية الا بعد أن ولدت جريدته اللواء فى سنة ١٩٠٠ . وقد بقيت جريدة (اللواء) لاتمثل حزبا ، بل فكرة ، ولا تتحدث باسم جماعة بل تعبر عن اتجاه ، فتحققت هذه الظاهرة التى ندير حولها الكلام .

فقد كانت هناك جريدة قوية كل القوة ، ولكن بلا حزب . وبهذا اصبح فى مصر ثلاث جرائد ، المفروض انها لسان حال ثلاثة احزاب ، فى حين ان الحزبين الأولين من هذه الأحزاب الثلاثة لا وجود لهما على الاطلاق .

فحزب الأمة كان له مجلس ادارة ، وكانت أسماء أعضاء هذا المجلس معروفة ، وكانت لهم الصدارة فى مناصب الدولة ، إلا أن الأثر الوحيد المحسوس به قد استأثرت به جريدة الحزب . وقد أشرنا الى أن حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية كان اخفى من حزب الأمة . وكان وجوده عدما أو شبيها بالعدم . على النقيض من جريدة الحزب ، ونجاحها الباهر وأثرها الظاهر ، وتمكن صاحبها ومعاونيه من الكتاب والمفكرين من لغة البلاد وتبحرهم فى شئون السياسة والادارة والتاريخ والاقتصاد .

فاذا جئنا الى الحزب الوطنى رأينا عجبا . فاسم هذا الحزب بدأت الألسن تتناقله منذ شرع مصطفى كامل فى الكتابة ومراسلة الصحف التى كانت قائمة سنة ١٨٨٥ . والحق أنه منذ فشلت ثورة عرابى التى نشبت سنة ١٨٨١ ونفى زعيمها وزملاؤه الى سيلان (سرى لانكا) ولد تيار رافض للاحتلال البريطانى الذى دخلت قواته الى القاهرة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م بعد معركة التل الكبير فى الشرق من مصر يوم ١٣ سبتمبر من نفس السنة .

وكان هذا التيار أول الامر وقفا على الذين اكتهلوا من صفوة مصر ، وكان أكثرهم من أصحاب الرتب العالية ولكن مالبث أن جد جيل من أصحاب المهن الحرة كالمحامين والأطباء ، ثم تلاميذ المدارس العليا ، الذين تعلموا فى بلادهم ، والذين أوفدتهم الحكومة ليطلبوا العلم فى انجلترا وفرنسا واحيانا قليلة المانيا . هؤلاء جميعا كانوا يرون ان السكوت على الاحتلال والرضاء بوجوده وقبول التعاون معه لايليق بهم ، وعيب لا يصح أن يلحق بذيلهم . وبدأ هؤلاء يعلنون عن مشاعرهم بوسائل شتى ، فأنشأوا الجامعة الأهلية ، ونادى المدارس العليا ، وجمعية الهلال الأحمر والجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة الوثقى وجمعية المساعى المشكورة ، وراحوا يكتبون فى المؤيد ، واحيانا فى الاهرام ، ونادرا فى الجريدة ، حتى بدأ مصطفى كامل يكتب بانتظام فى الاهرام والمؤيد معلنا فى غير مداراة خصومته الشديدة للاحتلال البريطانى مندداً بأخطاء سياسته ورغبته الواضحة الجلية فى منع مصر من التقدم ، ومنع اقتصادها من التطور ، ومنع أولاد الفلاحين والعمال من التعليم والتثقف ، وأهاب بالشعب كله بعامة ، والجيل الجديد بخاصة ، أن ينزع من قلبه الخوف من الاحتلال ، والأمل فيه ، ويؤمن بأنه قادر على أن يزحزحه من مكانه وانتقاص سلطانه بالنفور منه ، والتنديد به ، والدعوة الى الاصلاح

والاتحاد ، والانتشار فى الأرض بالدعوة ضد الاستعمار ، والاستعانة بكل منبر عالمى فى كل عواصم أوروبا . ولبى المصريون هذه الدعوة الحارة ، وأصبح للذين يؤمنون بها طابع خاص بين المواطنين ، ومنهج واضح فى الكفاح من أجل استقلال مصر ودستورها وأحس بهم اللورد كرومر ممثل الاحتلال ومعتمده الذى تركته حكومات لندن العام بعد العام حتى استقر على عرش مصر والسودان ملكا متوجا لايجد له نفوذ ولا يقاوم كلمته لا حاكم ولا محكوم ، وقد عاد أكثر الفضل فى التنويه بهذه الجماعة الجديدة المتحمسة والمتطرفة ضد الاستعمار والحاكم الدخيل الى هذا اللورد ، فقد كان لا يكف عن الشكوى من حملات هذا الجيل الجديد ، وعلى رأسه مصطفى كامل وأعوانه وفى مقدمتهم محمد فريد . وقد عرف هؤلاء بأنصار الحزب الوطنى ، وكان اسم هذا الحزب يذكر فى الصحف والدوريات ، وأنباء شركات الاخبار ، دون ان يكون لهذا الحزب مقر ، ودون أن تنشر له لائحة ، واخيراً دون ان تكون له صحيفة . فقد تأخر ميلاد الجريدة المتحدثة باسمه حتى اليوم الثانى من الشهر الأول من القرن العشرين — أى ٢ يناير ١٩٠٠ م ، ومعنى ذلك ان اكبر الأحزاب المصرية وأقدمها بعد الاحتلال البريطانى بقى بلا جريدة اكثر من خمسة عشر عاما .

ومع ذلك استطاع مصطفى كامل أن يخوض المعارك الكبرى ، كمعركة اتفاقية السودان ، وحادثه فاشودة وإقامة المحكمة المخصوصة ، وكلها وقائع خطيرة فى حياة مصر السياسية وكفاحها الوطنى ، وليس فى يده جريدة يشهرها سلاحاً فى وجه الاحتلال وباقى أعدائه .

ومع ذلك كان الحزب الوطنى موجوداً ، ومعتداً به ، ومخوفاً ، ومحلاً للهجمات ، فلما أنشئت الجريدة فى أول القرن العشرين ، لم يفكر مصطفى كامل فى إنشاء الحزب الوطنى رسميا إلا فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ قبل وفاته بأقل من شهرين ، فقد لحق بالرفيق الأعلى فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، وبذلك تحققت هذه الظاهرة ، فالحزب القوى فى مصر ليس له فى الأغلب الأعم ، جريدة تتحدث باسمه وتكافح من أجله ، والجريدة القوية ، وإن نسبت نفسها لحزب ، فهى فى واقع الأمر بلا حزب ، وبعبارة أخرى ، هى منسوبة لحزب ، يبحث عنه الباحثون فلا يجدونه .

ولما قامت ثورة سنة ١٩١٩ م ، وضعف وجود الحزب الذى أسسه مصطفى كامل المتطرف ، والمتشدد ، ومالت الجماهير إلى سياسة أكثر لينا ، وأعظم مرونة ، ولد حزب الوفد واستأثر بالأغلبية الكبرى ، وراجت دعوته رواجاً شديداً ، ولكن بقيت ظاهرة (الحزب والجريدة) فى مصر ، فقد بقى حزب الوفد بلا جريدة يملكها ويشرف عليها ويوجه سياستها .

فقد كثرت الجرائد التى تتحدث باسم الوفد ، ولكنها كانت جميعاً جرائد يملكها أفراد ، وينفقون عليها من مالهم ، وقد كانت أولى جرائد الوفد هى جريدة الأهالى التى كانت تصدر أول الأمر فى الاسكندرية ، ثم نقلها صاحبها عبد القادر حمزة إلى القاهرة ، وقد شاركتها فى الدعوة للوفد جرائد عديدة منها جريدة المحروسة وجريدة النظام .

ومات سعد زغلول فى سنه ١٩٢٧ وليس لحزبه جريدة رسمية يملكها ، حتى أنشأ عبد القادر حمزة أيضاً البلاغ ، لتكون لسان حال الوفد ، وان كانت مستقلة عنه ، ولا تخضع لتوجيهاته ، وحرصت على تأثر خطاه والقول بما يراه ، ثم انضمت إليها جريدة الجهاد التى أصدرها محمد توفيق دياب الذى عاش أكثر حياته خصماً للوفد ، وصديقاً للعدليين المنتسبين إلى عدلي يكن ، ثم خرجت البلاغ والجهاد ، على التعاقب ، من الانتساب للوفد ، وحلت محلهما جريدة يومية ، مستقلة فى الواقع ، وهى « المصرى » التى كان يملكها محمود أبو الفتح ويديرها مع أخويه : الشقيق حسين وغير الشقيق احمد .

فى نفس الوقت كان حزب الأحرار الدستوريين الذى تألف فى اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، قد أصدر جريدة السياسة التى كانت تبذ جرائد الوفد ، من حيث حسن التحرير ، وسلامة الادارة ، والتمرس بأساليب المعارضة ، ولكنها كانت جريدة حزب قليل الأنصار ، ضعيف الشأن عند الناس .

وما لبثت جريدة السياسة اليومية ، أن أسدت إلى الثقافة فى مصر ، يداً ، حينما أصدرت مجلة السياسة الاسبوعية كملحق أدبى لها ، فكانت عملاً ثقافياً ، تبارت على صفحاته أقلام كانت من قبل تكتب وهى بعد فى شبابها بجريدة الجريدة ، أمثال طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمود عزمى .

والحق أن تاريخ الثقافة المصرية فى هذه الحقبة من تاريخ مصر — أى من أخريات القرن التاسع عشر ، حتى نشوب الحرب العالمية الثانية – كان فى واقع الأمر تاريخ أربع صحف هى اللواء ، والمؤيد ، والجريدة ، والسياسة اليومية والأسبوعية . ففى اللواء عرفنا أقلام عبد العزيز جاويش ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وطه حسين ، وأحمد حلمى وأحمد وفيق ، وعبد الرحمن الرافعى ، وأمين الرافعى ومحمد فريد وجدى .

وفى الجريدة عرفنا أحمد لطفى السيد ، وأحمد زكى (شيخ العروبة) ومنصور فهمى ، وحسن صبرى ومحمد حسين هيكل ، وعبد الحميد حمدى والمترجمين يوسف البستانى ونيقولا رزق الله .

وفى المؤيد قرأنا لمصطفى كامل وأحمد حافظ عوض وللشاعرين شوقى وحافظ ، وبالجملة عرفنا أسماء الجيل الذى صاحب مصر نحو خمسين عاماً يؤلف ويترجم ويدعو ويلهم ويلهب .

فتحى رضوان

مأساة "أم الفحم".. قرية مظلومة.. وحاخام ظالم

كاهانا يقول: على العرب إذا أرادوا البقاء في إسرائيل أن يتحولوا إلى عبيد

بقلم: عصام شريح

الأحداث التي شهدتها أم الفحم في التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس) الماضي ، كانت مثيرة ، إلى درجة أن كل عربي من الخليج الى المحيط كان يترقب نتائجها ، وكأنه واحد من أبناء تلك البلدة العربية الصغيرة الواقعة بشمال فلسطين المحتلة ... أما تلك الأحداث فقد كانت بسيطة بقدر العفوية النضالية التي قابل بها أهالي أم الفحم وعرب الجليل هجمة الحاخام العنصري مئير كهانا وأتباعه من عصابة «كاخ» ، لكن المعاني التي أسفرت عنها تلك الأحداث المثيرة ، كانت عظيمة وذات دلالات بالغة الأهمية .

أما سيناريو تلك الأحداث فقد كان كالتالي : الحاخام مئير كهانا ــ النائب في الكنيست ــ دعا أتباعه من عصابة «كاخ» العنصرية ، الى التجمع وملاقاته عند مدخل بلدة أم الفحم العربية صباح التاسع والعشرين من آب (أغسطس) الماضي ، من اجل إقتحام «أم الفحم» بالقوة ، لإبلاغ أهاليها العرب بضرورة مغادرة «الأراضي الإسرائيلية» ، الى الدول العربية أو إلى أي مكان آخر ، وأعلن كهانا أنه سيفتتح مكتباً لتهجير العرب في بلدة أم الفحم ، وسيدفع تعويضاً مالياً للذين يقبلون بالهجرة في غضون سنتين !!

ما حدث بعد ذلك ، أن أهالي أم الفحم ، اقسموا أن يجعلوا من أرض بلدتهم قبراً لكهانا وعصابته ، ورفعوا لافتات عند مداخل البلدة تقول : «لن يمروا !» ، كما تنادى عشرات من شبان قرى منطقة الجليل ، للدفاع عن أم الفحم ، وانضموا الى أهاليها ، الذين طلبوا من المتطوعين «الجليليين» ، البقاء في قراهم ومدنهم ، لأنهم قادرون على التصدي والمجابهة دون حاجة لاخوانهم . وإزاء تصميم أهالى أم الفحم على التصدي لكهانا وعصابته ، حشدت سلطات العدو ألف شرطي وجندي حول البلدة لمواجهة الموقف في حال تنفيذ أم الفحم قرارها بالتصدي ... وبينما كان كهانا ومائة وخمسون من عصابة «كاخ» يقتربون من البلدة ، كان أهاليها يشكلون سلاسل بشرية عند مداخلها ، لمنع العصابة ورئيسها من دخول أم الفحم ، مهما كان الثمن ... وعندما لاحظت سلطات العدو أن مذبحة مروعة ستقع في البلدة ، وأن كهانا

قد يقتل في حال اقتحام البلدة مع اتباعه ، تجاهلت « الحصانة النيابية » التي كان وزير الداخلية يوسف بورغ يتذرع بها لعدم منع كهانا من تنفيذ خطته ، وقامت بابلاغ كهانا قبل وصوله الى مداخل أم الفحم ، بضرورة التراجع ، لأنها غير قادرة على ضمان حياته وحياة انصاره ، إذا أصر على عملية الاقتحام بالقوة ... وهكذا .. تبخرت تهديدات كهانا في دقائق ، وقفل عائداً من حيث أتى مع عصابته ... لكن القوات الصهيونية التي كانت تطوق المدينة العربية ، غاظها انتصار إرادة « أم الفحم » ، فاشتبكت مع أهاليها ، الذين رشقوها بالحجارة ، فيما كانوا يتلقون قنابل الغاز المسيل للدموع ، وانتهت « المعركة » باعتقال عشرين عربياً من أم الفحم ، بحجة الإخلال بالأمن والاعتداء على رجال الشرطة وجنود الجيش .

ذلك كان سيناريو الأحداث .. أما المعاني ، فلقد تمثلت في إرادة النضال والمقاومة التي تحلى بها أهالي أم الفحم ، وإصرارهم على التصدي للعصابة الصهيونية مهما كان الثمن ، ومهما غلت التضحيات ، ثم في ذلك التعاطف الذي أظهره عرب منطقة الجليل بأسرها مع أهالي أم الفحم ، باعتبار أن المعركة ضد العنصرية الصهيونية ، هي معركة كل عربي في الجليل ، بل وكل فلسطين المحتلة .

لقد سقط الإرهاب ، وسقط سلاح التخويف ، أمام إرادة الكفاح والمقاومة ، وذلك دليل على أن الأمة العربية قادرة على التصدي للصهيونية ، اذا امتلكت إرادة القتال وروح المقاومة .

الجليل « المزعج »

وفي الواقع فإن حكاية بلدة « أم الفحم » ، هي حكاية منطقة الجليل بأسرها مع الصهيونية ، وقبل أن ننتقل الى عرض ملامح من هذه الحكاية ، نشير الى أن « أم الفحم » ، هي أكبر القرى العربية بمنطقة



«كاهانا» لحظة ارتداده خائبا عن أم الفحم

الجليل والمثلث ، وهما المنطقتان اللتان يشكل العرب فيهما أكثرية واضحة بالنسبة للمستوطنين اليهود ، وبلدة أم الفحم ، تبعد عن البحر الأبيض المتوسط مسافة لا تزيد عن خمسة وعشرين كيلومتر باتجاه بلدة قيسارية الساحلية غرباً ، وعن ثمانية عشركيلومتراً عن مدينة الناصرة بالإتجاه الشمالي الشرقي ، وثلاثة عشر كيلومتراً عن بلدة العفولة ، اذا اتجهنا الى الجنوب الشرقي ، وعشرين كيلومتراً عن بلدة الخضيرة ، اذا اتجهنا الى الشرق الجنوبي ، وبلدة أم الفحم ، هي في الواقع عبارة عن مدينة صغيرة ، حيث يبلغ تعداد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة وكانت مساحة أراضيها قبل قيام الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨ ، مائة وخمسة وأربعين ألف دونم من الأرض ، لكن هذه المساحة الشاسعة تقلصت تدريجياً بسبب قيام سلطات الاحتلال الصهيوني بمصادرة أراضي أم الفحم ، حتى وصلت مؤخراً الى ٢٢ ألف دونم فقط ، ولا يصلح منها للزراعة سوى ستة آلاف دونم ! !

وعلى الرغم من سلب أراضيهم ، وحرمانهم من أية رعاية صحية أو اجتماعية فإن المرء لابد وأن يعجب بالروح الوطنية العالية التي يتمتع بها أهالي ام الفحم ، حيث تطالعك وأنت تدخل هذه البلدة ، لافتات التنديد بالسلطات الصهيونية ، وسياسة الاستيطان ، وحيث تطالعك أيضاً الأعلام الفلسطينية والشعارات الوطنية في كل شارع وعلى كل جدار من جدران بيوتها ، مثل : « كلنا فدائيون .. دم الثوار يطالبكم بالإضراب .. شعب واحد .. طريق واحد .. الخ » .

وليس من غريب الصدف في شيء ، أن تكون « حركة الأرض » — وهي أول تنظيم فلسطيني وطني في منطقة الجليل ، نشأ في اوائل الستينيات ، قد انطلقت من بلدة أم الفحم ، كما أنه ليس من الصدفة أبداً ، أن تكون « حركة أبناء البلد » ، قد تأسست أولاً في أم الفحم ، واتخذت من هذه البلدة الصامدة مقراً رئيسياً لها ... و « حركة أبناء البلد » ، كما يعرفها المحامي محمد كيوان ، — وهو من أبناء أم الفحم — « هي حركة أنشئت للرد على الظلم القومي ، وعلى تدمير الصهاينة لإنسانية الانسان الفلسطيني العربي في وطنه المغتصب » . ويضيف المحامي كيوان : « لقد قمنا لكي نعالج مشاكل محلية أولاً : نهب الأراضي وإهمال المدارس والخدمات الجماهيرية .. وفي هذا المجال لا يوجد أي فرق بين الليكود والمعراخ ، كما أنه لا يوجد فرق بالنسبة الينا ، بين ما يسمى « بتطوير الجليل » و « تهويد الجليل » .

قلنا أن حكاية أم الفحم هي صورة مصغرة لحكاية منطقتي الجليل والمثلث وحتى منطقة النقب ، مع الصهاينة ، فالحقد الصهيوني على العرب — وخاصة عرب ١٩٤٨ — أخذ في التنامي بشكل كبير مؤخراً ، حيث أصبحت الأصوات التي تنادي بطرد العرب من بلادهم ، وتهويد منطقة الجليل بصورة خاصة ، أصواتاً مألوفة . وفي الواقع ، فان الشعارات التي ترفعها حركتا « كاخ » و « غوش إيمونيم »

الصهيونيتان العنصريتان ، وتطالبان فيها بتصفية العنصر العربي في فلسطين المحتلة ، سواء بالطرد والتهجير أو التصفية الجسدية ، مثل هذه الشعارات لم تولد من فراغ ، وإنما هي نتيجة طبيعية للعقيدة الصهيونية ، وإفرازات من إفرازاتها ، لأن هذه العقيدة ، إنما قامت أصلاً على العنصرية والشوفينية . وقد عبر أحد أبناء بلدة أم الفحم عن هذا الواقع ، عندما قال : « إن القضية لا تتعلق بكاهانا لوحده ، فهناك ألوف من أمثاله ، وفي كل يوم يولد ألوف جدد على شاكلته » .

ومن المفيد هنا أن نستنطق الاسرائيليين أنفسهم ، عن ظاهرة العنصرية الصهيونية المتطرفة ، الآخذة في التعاظم والتصاعد يوماً بعد يوم ، فقد كتب الكاتب الاسرائيلي « أمنون روبنشتاين » مقالا في صحيفة « هآرتس » ، قال فيه : « .. أن ما تتميز به ظاهرة العنصرية في اسرائيل ، هو أنه صار من الصعب ، ملاحظة الفرق بين عنصرية الحاخام مئير كهانا والحاخام أريئيل ، وجماعات العصابات ، وبين التوجهات والمواقف التي غدت أمراً عادياً في اسرائيل . » ، وقد أورد روبنشتاين بعض الأمثلة على الروح العنصرية الفاشية التي تغمر الاسرائيليين ، ومنها أن مجموعة من المسؤولين في حركة « هتحيا » — « حزب النهضة » ، ردوا بغضب لدى علمهم بتأجير « شقة » لعربي في نفس المبنى الذي تقع فيه مكاتب هذه الحركة بالقدس المحتلة ، قالوا : اذا تسبب أفراد هذه العائلة العربية في أي مشكلة ، فسوف نحشرهم في إحدى الزوايا ، ونقضي عليهم بالعصي والهراوات ، وأشار روبنشتاين الى أن « حركة هتحيا » التي يمثلها خمسة نواب في الكنيست الحالي بينهم رئيس الحركة « يوفال نعمان » ، تحظى بتأييد ا سماء لامعة في العالم الأكاديمي الاسرائيلي ، ومع ذلك فان أحداً لم يندد على الأقل ، أو

من حوار كارليباخ

— « .. هذا البلد كان ملكاً للعرب في أيام لا تذكرينها .. كانت لهم القرى والحقول.. واليوم لا ترين الكثير منها .. فقد حلت مكانها مستوطنات يهودية مزدهرة فقط .. ولكنك ترين أحياناً .. هنا وهناك .. بعض القرى العربية .. انها لتلك الأقلية التي بقيت بيننا .. ولا نعرف لماذا لم تهرب .. وقد يتبادر الى ذهنك سؤال على الفور .. وأين حقولها ؟؟!

— لم تبق لهم حقول .. بنيتي .

« ماذا حدث للحقول ؟

— ببساطة .. استولينا عليها .

« ولكن .. كيف ؟ .. كيف يمكن الاستيلاء على أرض تخص شخصاً آخر موجودا بيننا .. ويعيش عليها ، ويفلحها ؟؟

— ليس في هذا صعوبة فنية ، تكفي القوة لذلك فقط ، وبامكانك إذا كانت السلطة في يدك ، أن تعلني مثلاً ، أن هذه الحقول منطقة مغلقة ، وتمنعي أي انسان من الوصول اليها دون تصريح .

« ولكن ألا يوجد قانون يمنع ذلك .. ويحمي الأرض لأصحابها .. ألا يوجد قضاة في اسرائيل ؟

— بلى .

« وكيف يجري ذلك التطاول على القانون ؟

— لا .. يا بنيتي .. إذا كان القانون ضد السارق ، والسارق قوي جداً ، فانه عندئذ يسن قانوناً يكون الى جانبه .

« كيف ؟

— يجتمع في الكنيست جميع الذين لهم حصة في السرقة .. ويقولون : استعدنا هذه الأراضي ، ولا نريد أن يزعجنا القضاة في استخدامها ، تعالوا نسن قانوناً يجعل إخراج تلك الأراضي من أيدينا أمراً مستحيلاً ... أما العرب فيقولون طبعاً ، إن هذه الأرض ليست لكم .. وهذه ليست نهاية المشكلة ، بل بدايتها ، والخلاف الكبير معهم لم ينته أبداً بل أنه ابتدأ .. وأنا أخاف عليك يا بنيتي كثيراً .. لأنني أخشى أن تدفعي أنت ثمن كل هذا عندما تكبرين .. لا أعرف كيف ؟ ولا متى ؟ ولا بماذا ؟ .. آمل أن يكون ذلك بالمال فقط .. ومن الممكن .. بالدماء .. إن عاجلاً أو آجلاً .. إذ يصعب التنبؤ بما سيحدث » .

من حوار الدكتور عزرائيل كارليباخ — مؤسس صحيفة معاريف وأول محرر فيها — مع ابنته .



معركة عند مدخل أم الفحم : سلاح العرب الحجارة .. وسلاح العدو القنابل المسيلة للدموع

يعبر عن تحفظه على هذه الروح الفاشية ، بل إن هؤلاء الأساتذة الجامعيين ، والذين يرأسون نقابة الطلاب العامة في الجامعة العبرية » بالقدس المحتلة ، يقومون منذ فترة ، بعملية تكسيح للطلاب العرب في أرجلهم ، ليس فقط بواسطة العصي والهراوات ،وإنما بواسطة السلاسل الحديدية والقضبان المعدنية أيضاً ، وعندما استدعي أحد هؤلاء الطلاب أمام المحكمة التأديبية التابعة للجامعة ، هدد باستخدام العنف ضد سلطات الجامعة ، إن هي اعترضت طريقه ، لمنعه من « القضاء » على الطلاب العرب .

وفي معظم المدارس الاسرائيلية ، يعلن الطلاب اليهود وبشكل واضح ، أنه يجب طرد العرب من كل فلسطين ، ويقصدون بذلك عرب الجليل والمثلث والنقب ، إضافة الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزة .

سياسة التهويد

لقد كان هدف تهويد منطقة الجليل ، التي تضم اثنين وخمسين قرية عربية ، أحد أبرز الإهتمامات التي واجهت الصهاينة ، منذ احتلال فلسطين في عام ١٩٤٨ ، وحتى اليوم ، ولذلك عمد الصهاينة منذ احتلالهم لمنطقة الجليل ، الى فرض سيطرتهم على اجزاء واسعة منها ، لاقامة المستوطنات عليها . أما الأغلبية السكانية العربية ، فقد فرض الصهاينة عليها الحكم العسكري ، وطبقوا بحقها قانون الطوارئ البريطاني الموضوع في عام ١٩٣٥ ، وهو من أكثر قوانين الطوارئ في العالم قمعاً وانكاراً لحقوق الانسان . كما ابتدعوا ما أسموه « بقانون أملاك الغائبين » ، للاستيلاء على أراضي الفلسطينيين الذين شردوهم عن وطنهم وأملاكهم بالقوة . كما ابتدعوا ما أسموه « بقانون تطوير الجليل » ، وهو في الواقع « قانون تهويد الجليل » ، حيث في ظل « التطوير » المزعوم ، بنيت المستوطنات ، وجيء بالمستوطنين من اليهود من أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية ، للإقامة في هذه المستوطنات .

ومن طرائف التفكير الصهيوني — المضحك المبكي في آن — أن أحد الفلاحين العرب قال لما يسمى « بمدير دائرة عقارات اسرائيل » : كيف تنكرون على ملكيتي لهذه الأرض ؟؟! .. فهي ملكي .. وقد ورثتها عن آبائي وأجدادي ... ولدي وثيقة « طابو » بذلك ! !

فأجابه المدير الصهيوني : « نحن لدينا وثيقة « طابو » أهم .. وهي تنص على أن الأرض الواقعة بين « دان » في الشمال و« إيلات » في الجنوب هي ملك لليهود .. » .

وأضاف : اننا نعرض عليك مائتي ليرة لكل دونم من الأرض التي بحوزتك ، ليس لأنها ملكك ، بل لانك قمت بحراستها مدة ألفي سنة ! !

وقصة ديفيد بن غوريون مع سائق سيارته وحرسه الخاص ، اثناء زيارته لمنطقة الجليل في أواسط الخمسينات ، مشهورة جداً ، حيث أمر بن غوريون سائقه بالتوقف عندما وصل الى مشارف احدى القرى العربية في هذه المنطقة ، وسأل ضابط الأمن في سيارة الحراسة المرافقة قائلا : هل تخطى الموكب حدود اسرائيل ، ودخل الأراضي السورية !فأجابه الضابط : لا ، إننا ما زلنا في « أرض اسرائيل » .. لكنه الجليل هكذا .. عربه يحبسون الهواء عن مواطنينا » .

وهذه الحادثة لم تكن مجرد قصة .. بل كانت بمثابة إعلان رسمي من حكومة بن غوريون آنذاك ، للمباشرة في عملية مصادرة الأراضي الزراعية وعلى هذا الأساس بلغ حجم الأراضي الزراعية المصادرة في هذه المنطقة حتى عام ١٩٦٠ ، أكثر من مليون دونم ، ولم يبق في حوزة عرب الجليل من أراضيهم سوى ٢٥٠ ألف دونم صالحة للزراعة ، وحوالي مائة الف دونم لمسطحات

مأساة "أم الفحم"..

قرية مظلومة.. وحاخام ظالم

المدن والقرى ، وذلك من ثلاثة ملايين ونصف المليون من الدونمات ، يضاف الى ذلك هدم عشرات القرى العربية في الجليل ، وتهجير أهالي عشرات أخرى من القرى .

أم الفحم .. والحاخام كهانا

لم تكن محاولة الحاخام مئير كهانا وعصابته « كاخ » لاقتحام بلدة أم الفحم في أواخر الشهر الماضي ، طفرة ، أو تعبيراً عن حالة مزاجية أو عصبية لهذا الحاخام ، بل انها كانت تعبيراً حقيقياً عن السياسة الصهيونية نحو منطقة الجليل المكتظة بالعرب ، خاصة وأن عدد عرب الجليل ارتفع من مائة وخمسين ألفاً في عام ١٩٤٨ ، الى نصف مليون عربي تقريباً .

وما يقوله قادة صهاينة في السر أو في المناسبات عن عرب الجليل وكل عرب ١٩٤٨ ، يقوله الحاخام كهانا في العلن ، ودون لف أو دوران . لذلك يبدو لنا أنه من الأهمية بمكان التعرف على أفكار هذا الحاخام الصهيوني المتعلقة بعرب ١٩٤٨ .

يقول كهانا ، أنه من المستحيل على اليهودي أن يشتري حب العربي له ، ويعلن تخوفه من العرب نظراً لتكاثرهم الطبيعي السريع ، وهو يقول بهذا الصدد : ها هم العرب يتكاثرون مثل الأرانب ، وبمعدل نموهم هذا ، سيسيطرون على الكنيست في غضون ربع قرن فقط .

ويضيف كهانا ، انه غير مستعد للتضحية بالصهيونية من أجل الديمقراطية .. ولذلك فان الحل الوحيد لديه « لمشكلة » عرب ١٩٤٨ ، هو رحيل العرب أو بالأحرى ترحيلهم وطردهم الى الدول العربية أو الى الغرب أو الى أي مكان آخر . ويقول : إنه اذا أصبح رئيساً للحكومة الاسرائيلية ، فلسوف يذهب الى العرب ، ويقول لهم إرحلوا ، في مقابل تعويضات مالية سخية ، فاذا رفضوا الرحيل ، فان اليهود سيجبرونهم على ذلك بالقوة . وذلك عن طريق وضعهم في سيارات الماشية !! بعد منتصف الليل !! والقذف بهم خارج « حدود اسرائيل » ..

وينفي كهانا تهمة العنصرية عن نفسه ، بسبب اصراره على طرد العرب من وطنهم ، مدعياً بأن العنصري ، هو اليهودي الذي ينادي بأن للعرب نفس الحقوق ، وعلى قدم المساواة مع اليهود في كيانهم الصهيوني .

وقد انتقل كهانا من هذه النظرية ، الى تطبيق مضمونها عن طريق الممارسة الفعلية ، فقام في نيسان (ابريل) من عام ثمانين مع انصاره بتظاهرة بمدينة رام الله ، حطموا خلالها نوافذ البيوت والحوانيت العربية ، وفي العام التالي قام انصاره اعضاء عصابة « كاخ » ، بالتوجه الى مدينة نابلس ، وعندما وصل الى قلب هذه المدينة العربية ، أخذ يصرخ عبر مكبر للصوت ، طالباً من العرب الرحيل ، وقد تصدى له يومذاك ، رئيس بلدية نابلس السيد بسام الشكعة ، الذي دخل معه في نقاش حاد ،وعرض السيد الشكعة على الحاخام كهانا ، أن يدفع له ثمن بطاقة سفر ، لكي يعود الى وطنه الأصلي في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو الى وطن والديه في بولندا .

وفي محاضرة ألقاها كهانا مؤخراً بتل أبيب ، قال إنه يجب طرد العرب من اسرائيل ، لأنهم يشكلون قنبلة موقوتة في جسم الكيان الصهيوني ، وأعرب كهانا عن سروره وسعادته ورضاه عن مذبحة صبرا وشاتيلا ، قائلاً : إن للفلسطينيين هدفاً واحداً ، هو ابادة « الشعب اليهودي » ، فاذا أتيحت للعرب الفرصة ، فعلوا بنا ما فعلناه في صبرا وشاتيلا » ، كما قال : « إن ارضنا تمتد من النيل الى الفرات .. وسنحررها بالتأكيد » !!

ويستشهد كهانا في « رفضه » للعرب ، بالحاخام موسى بن ميمون الذي قال : « عليهم أن يكونوا في الدرجة السفلى ، وأن لا يرفعوا رؤوسهم في وجه اسرائيل ، وإنما يجب أن يكونوا خاضعين لها » !! ، وانطلاقاً من هذا يقول الحاخام كهانا : « إنه يتوجب على كل عربي يريد البقاء في اسرائيل ان يقبل العبودية » !!

إزاء هذه الأفكار المغرقة في العنصرية والتطرف ، لم تكن محاولة كهانا اقتحام بلدة أم الفحم لابلاغ أهاليها العرب بضرورة مغادرة « أرض اسرائيل » المزعومة ، محاولة غيرمتوقعة ، بل إنه يتوجب على الأمة العربية أن تتوقع محاولات أخرى من هذا النوع وربما أكثر عنفاً وهمجية .

ويبقى أمامنا كعرب ، أن نعمل ونخطط ونتصرف ، على أساس أفكار كهانا العنصرية ، بمعنى أن المعركة بيننا وبين الصهيونية ، هي معركة حياة أو موت ، وكل الصهاينة كهانا في نهاية المطاف .. فاما أن نكون أو لا نكون .

عصام شريح

القروي

شاعر العروبة سيرتهُ في ذكريات


الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري)

بقلم : أكرم زعيتر

في رونق الصبا ، طلابا في مدرسة النجاح بنابلس ، وفي صدر اليفاعة تلاميذ في الجامعة الأمريكية ببيروت ، كنا نتتبع أنباء الثورة السورية وبطلها سلطان الأطرش .

وأقبل أحد الطلاب يحمل قصيدة جاءته من قريب له في البرازيل ، يقول إنها للشاعر القروي ، رشيد سليم الخوري ، يمجد فيها شجاعة سلطان ، ويصف هجمته على الدبابة الفرنسية ، ومصرع قائدها ، وقد رنحتنا وشدوناها مرات ، وتنافسنا في انتساخها واستظهارها ورددنا خطابه « الأطرش » :

وبالك أطرشاً لما دعينا
لثأر كان اسمعنا جميعا

ولعل حماستنا الملتهبة جعلتنا نصفق حين هتف الشاعر « الخوري » :

اذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبوا بعضكم بعضاً » وعظنا
بها ذئباً فما نجّت قطيعا
فيا حملا وديعاً لم يخلّف
سوانا في الورى حملاً وديعا
الا أنزلت انجيلا جديدا
يعلمنا إباء لا خنوعا ...

وصرت أتتبع ما ينظمه ، وعددته حقاً شاعر الوطنية ، وصناجة الحركة العربية ، وربابة الثورات القومية ، وما أكثر ما حملت طلابي على استظهارها وترتيلها .

وتوفي في سويسرا في أيلول سنة ١٩٣٣ الملك فيصل بن الحسين ، ملك العراق ، ويممت بغداد لأرثيه في أربعينه باسم استقلاليي فلسطين رصيفاً لبشارة الخوري والرصافي والزهاوي والريحاني والفاروقي والبارودي والدندشي والعسلي والأزري والشريقي والضاهر ورضا والزين .. ونقلت الأنباء أن الجالية العربية في الأرجنتين تقيم في الحين ذاته حفلاً تأبينياً دعت إليه شاعري العروبة في البرازيل : القروي ورصيفه الياس فرحات ، فكتبت إليه أرجو أن أظفر بقصيدته وزميله .. وما لبثت حتى تلقيت قصاصات فيها ما قيل في حفلتي بونس ايريس وصانبول ، وكان القروي يستبدل لفظاً وكتابة (صانبول) بسان باولو ...

وفي يومية ٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٤ في بغداد قلت : « زارني الاستاذ ساطع الحصري وإحسان بك الجابري والقائد فهمي السعيد(وقد استشهد فيما بعد) والدكتور أمين رويحة والنائبان ابراهيم عطار باشي وصادق حبه ، وقال

القروي

شاعر العروبة

الدكتور المجاهد أمين رويحة : « علمنا أن قصيدة الشاعر القروي جاءتك من البرازيل فجئنا نسمعها » فتلوناها عليهم ، وعلى طولها ، أصروا على اعادة تلاوتها ، وفي القصاصات : « ان حماسة الوف الحاضرين قدبلغت خلال انشادها أن عقد نائب رئيس الجمهورية الأرجنتينية يده في يد الأقرب اليه وهذا في يد الذي يليه حتى تألفت سلسلة من الأيدي بلغ آخرها يد الشاعر على المنبر فهزوها جميعاً هزة الاعجاب . ومطلعها :

لحي برغم القبر فليخسأ الردى
وقد سلم « الغازي » فلا يهنأ العدى

وقد صاغ الشاعر موقف الأمير غازي ، ولي العهد الشجاع من فتنة التياريين (الآثوريين) في ملحمة بالغة الروعة . وبعد أن وصف فيصلا وناجاه ناشده :

أرحْ كبدا حمّلتها كل فادح
من الهم يعْيي الشمّ لو كنّ أكبدا
طعام على مَضٍّ ، وشربٌ على قذى
ومَشْيٌ على جمر ونوم على مُدى
تصبرتَ حتى الصبر كاليأس قاتل
وحتى ذممنا في الخطوب التجلدا
صعدت جبال الألب تنشد راحةً
وعُدتَ كأن الألب في القلب صعّدا

وفيها :

خيانة أحلاف وإخلافُ ساسة
وغدر الذي أكرمته فتمردا

وفيها :

يمدون للتسليم في لندن يداً
ويُخفون للتسليح في نينوى (١) يدا
وقالوا : مليك العرب في الغرب مُكْرَمٌ
فقلت : إذن بات المليك مهددا
لأمر يلاقيك الفرنجيُّ باسماً
فزدْ حذرا ما زاد ذئبٌ تودداً
تراه صحيحَ الودِّ وهو سقيمه
كما تُكسبُ الحمى الخدود توردا

وبعد أبيات صاعقات تنديداً بالإنكليز قال :

من المسجد الأقصى الى وستمستر
يروعكم صوت الحسين (٢) مهدداً
بريطانيا ! بريطانيا أين فيصلٌ
وأين تركتم سيف عدنان مغمدا

ووصف مرض فيصل :

وراحت عيون النجم فوق سريره
مسهدةً ترعى العليل المسهّدا
يئن فما يلقى سوى اليأس حوله
طبيباً وأشباح المنية عُوَّدا
فان تبرأوا من سمه ما برئتمُ
من القتل ، إن الغمّ كالسُّم موردا

ثم ندد بالوضع في لبنان ، وبتخاذل اللبنانيين ، وخاطبهم بهذا البيت الرائع :

فموتوا . ألا موتوا فما الموت سُبّةٌ
وإنّ الردى في العار ، لا العار في الردى

وأنهى قصيدته ، ذات المئة بيت هاتفاً بفيصل :

حفيد رسول الله يا غوث أمة
اذا استنجدتْ لم تلقَ الاّك منجدا
بكل لسان رتّلتْ لك آية
وكل جنان شيّدتْ لك معبدا
أذبت عليها حبّة القلب ساهراً
فسافر بحبات القلوب مُزَوَّدا

واستمرت الصلة بيني وبين الشاعر على صورة رسائل وقصاصات حتى قدر لنا أن نجتمع طويلاً في لقاءات في (صنبول) كما يلفظها ، وفي ريودي جانيرو سنة ١٩٤٧ ثم بعد ذلك في بيروت وفي الجبل اللبناني ، حفلت بالذكريات والخاطرات وتخللتها مراسلات ، وذلك ماارجو أن اتحدث عنه بعد أن أمهد له بعرض موجز لسيرة الشاعر الكبير استقيته منه في لقاءات ورسائل ، ومن بعض ما كتبه تعريفاً بنفسه واستبانة لمعتقداته ودفاعاً عن آرائه .

ولد الشاعر سنة ١٨٨٧ في (البربارة) على البحر الأبيض المتوسط ، بين مدينتي جبيل والبترون في جبل لبنان ، وقد قال إنه ولد في ١٧ نيسان مع أن كثرة الذين كتبوا عنه قالوا : إنه ولد في ٥ نيسان ولما سألته عن سبب هذا التباين قال : انه ولد في ٥ نيسان في الحساب الشرقي المعتمد يومئذ ، وان الفرق بين الحساب الشرقي والغربي المعتمد اليوم هو اثنا عشر يوماً ، ومعنى هذا أنه ولد في ١٧ نيسان واعتبر هذا اتفاقا سعيداً بين مولده وعيد الجلاء عن سورية فارتجل :

إنْ فاخرَ الناسُ بأعيادهم
فعيد ميلاديَ عيدُ الجلاء

وأطلعته في لقاء أخير على قصاصة جريدة تقول : إن فلكياً حاسوباً قدر أن مولد النبي صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل صادف السابع عشر من نيسان ، فاستنار وجهه ، وتطلقت أساريره ثم بدا عليه ما يشبه ذهول الاستعجاب !

أبو الشاعر هو سليم بن طنوس الخوري ، وكان جده طنوس طبيبا يعني بنسخ كتب ابن سينا ودراستها ، وأما أبوه فقد كان يجيد النظم والنثر وكان له فضل تشجيع ولده وتنشيطه ، حتى ان الشاعر قدم ديوانه الأول (الرشيديات) المطبوع سنة ١٩١٦ في البرازيل الى روح أبيه اعترافاً بفضله .

ونشأ الفتى رخيم الصوت ، واذا سألته عن سر ذلك قال : « إن إخوتي وأخوالي ومعظم أهل البربارة عرفوا برخامة الصوت » .

تتلمذ في مطلع صباه للشاعر قيصر الغرزوزي والمعلم ايليا نصار في مدرسة القرية ثم التحق بمدرسة الفنون الأمريكية في صبرا فمدرسة سوق الغرب ، فالكلية السورية الانجيلية ببيروت التي اصبحت تدعى الجامعة الأمريكية حيث انهى الاستعدادية ثم اشتغل بالتعليم سبع سنوات في طرابلس وبشمزين وزحلة والشوير وسوق الغرب .

وصف نفسه بكونه حنطيَّ اللون ، عسليَّ العينين ، صغير حجم الرأس والفم والأذنين ، دقيق الأنف ، بيضوي شكل الوجه . لم يدخن قط ، يحب قهوة البن ولكن نادراً ما يشربها ، وأما الخمرة فلا يشربها ، وقد يحسو منها حسوة الطير ، لا أزيد ، في دعوة المتنادمين من إخوانه في أحايين قليلة جداً . وقد حرم على نفسه لحم الخنزير . وهو معتدل في ما يأكل ، مفرط في المضغ ، شره في الفاكهة ولا سيا البرتقال والعنب ، قاطع الجوخ الانكليزي منذ افتضح وعد بلفور .



صورة تجمع بشارة الخوري . اكرم زعيتر . معروف الرصافي . فخري البارودي . الشيخ عارف الزيني . عبد الرزاق الدندشي . صلاح اللبابيدي . الزهاوي

وكان القروي رياضياً يباري الفتيان عدواً وقفزاً. يتقن الضرب على العود وشدو الأغاني عازفاً. وتسليته القراءة والكتابة وبعد أن يقضي منهما نهمته ، يتسلى بلعب النرد ، ومما يرويه أن آنسة رغبت إليه في أن ينظم رباعية في النرد ففعل ، ثم فاجأته بعد اسبوعين بهدية زهر جميلة ، منقوشة ابياتها على زواياها الأربع وهي :

العب أخي ما نحن إلا لعبة بيد القدر
العب أخي ، العب ، فما رد المقادير الحذر
صنعت بنا الأيام ما «بالزهر» تصنع والحجر
لا يدفع اللهو الردى لكنه ينسي الخطر

على انه عزف عن لعبة النرد وزهد فيها في أواخر عمره .

* * *

ويعرف الشاعر القروي قليلا من الانكليزية ونزراً من البرتغالية وأما العربية فيجيدها أي إجادة ، ويعد من فطاحلها . وحسبي أن اردد ما قاله لي في زيارتي إياه قبل أربع سنين في بيت ابن خالته في الأشرفية ببيروت .. قال : أنا مدله ، أنا موله ، عاشق للغتي العربية اتمنى طول العمر ، لا استزادة في السنين ، ولكن استزادة من جمال اللغة .. وإمعانا في اغتراف كنوزها . نهمي في درسها لا يمكن أن يشبع حتى الموت ..

والقروي هو القائل في تمجيد العربية :

«هذه اللغة الخصبة الخلاقة المطواع ، لغة اهل الجنة . اللغة التي اتسعت لرسالة الرحمن ، اللغة التي ملكت فصحاها ألسنة افذاذ الأدب العربي ، وألفت بين قلوبهم في كل قطر سحيق ، والتي يتناشد ألحانها بلابل الشعر من الخليج العربي الى المغرب الأقصى ، الى كل مغترب قذيف . فتتجاوب قلوبهم بأصدائها وتعلو على كل صوت شعوبي نكير ، بها التفاهم ، وبها الألفة ، وبها الوحدة . فيها القوة فالهيبة فالسلم فالنعيم المقيم . كل عادل الى العامية عنها ، مبشر بها دونها إنما هو كافر بها ، وبكم أيها العرب ، دساس عليها وعليكم ، كائد لها ولكم ، عامل على قتلها وقتلكم ، تعلموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في كل مدارسكم وجامعاتكم لتقوم بالفصحى ألسنتكم ، وتتقوى ملكاتكم ويعلو نفسكم وتزخر صدوركم بالحكمة وتشرق طروسكم بساحر البيان » .

والشاعر القروي ، كما عرفته ، محدث ، طريف ، فكه ، رقيق العاطفة ، سريع الخاطر حاضر البديهة ، ولكنه اذا غضب لانتقاص حقه ،أو توهم خصومة ، أو ناقش مخالفاً له في عقيدته الوطنية وعروبته ، فان ذلك الحمل الوديع ينقلب الى شكس شريس .

وايمان القروي بالله قوي ، وثقته برحمته تعالى لا تتزلزل ، وهو في حديثه عن ايمانه وتعليله الإيجابي لما يصيبه متأثر بالقرآن الكريم ، ومما أذكره في نزهة لنا في ضاحية صنبول (سان باولو) انه تلا علي جملة من آيات القرآن الكريم حفظها غيباً وتأثر بها ، ولعلي أعرض في ذكرياتي نزعته الاسلامية في تدينه ، وحسبي أن أذكر هنا قوله : «قد أنسى الله حيناً في بأسائي ولكني لم أنسه قط في نعمائي ، فصلاتي مجرد تسبيح وشكر ، واعجاب بعظمة الخلق واستقواء بذكر الخالق على نزعات نفسي واطمئنان الى رضاه عني . وشعوري بهذا الرضى يمدني بشجاعة لا تحسب حساباً لخطر مهما عظم ، ويغمرني بسعادة لا تضاهيها سعادة . ولو أني ملكت كنوز الأرض لما صرفت عني المأ سببه لي لم من اثم حتى انيب الى ربي ، ولو أني فقدت آخر فلس وآخر صديق وآخر حبيب وبقي لي عفو الله لكفاني به أملا يروح عني ويحييني .

حسناتي من الله ومساوئي مني ، هكذا اعتقادي ، وما أصابتني مصيبة إلا أحسنت تأويلها ، ففقد مالي تدارك من لطف الله أن استعمله فيما يؤذيني . واعتلالي نوع من الاستجمام العقلي وتلاف لخطر أكبر اتعرض له في غدوي ورواحي ، وموتي قبض الى رحمته تعالى في الظرف الأنسب » .

القروي
شاعر العروبة

ولا أذكر في أحاديثنا المفاضة وفي مراسلتنا أنه أورد اسم سيدنا محمد من دون أن يشفعه بقوله : « صلى الله عليه وسلم » .

* * *

وعاش شاعرنا أعزب ، واذا سألته : لم لم يتزوج أجاب جواباً اشبه بما يكون شعراً : « كان شبابي وقفاً على اخوتي الأصاغر فلما كبرت بي السن كبر عقلي ولم يكبر جيبي .. ولو كبر جيبي لما نفعني كبر عقلي » .

وأنا ما رأيت من شغف بجمال الطبيعة شغفه ولا أبلغ في وصف افتتانه بروائعها من قوله : « وقد يتجسم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الأكوان فأتعطف على الشجرة اعانقها والصخرة اضمها والزهرة اناغيها ، والمرجة اتقلب عليها ، وامد ذراعي إلى السماء احييها ، وأبعث الى الشمس بقبلاتي على أطراف بناني . والشمس بين روائع الطبيعة حبيبتي الأولى وفتنتي الكبرى . ليس أبعث لنشاطي الجسدي والذهني من الاستحمام بنورها ، ولا ينافس اشراقتها في قلبي غير ابتسامة المرأة الحسناء . وأعتقد أن تشاؤم المعرى كان بقدر حرمانه من كلتيهما » .

واما شعوره الوطني – وسأتحدث عنه في ذكرياتي – فقد لخصه هو قائلا : « أمتي : انا مُكبّرًا .. ووطني : انا مُكبّرًا . اذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي ، واذا هدروا عربياً في لبنان أو تطوان فكأنما شربوا نغبة (٣) من دمي . وكأن كل بلد قوى من بلادي ساعدي مفتولا . وكل شعب خامل فيها زندي مشلولا . بل ما اعد ذاتي إلا خلية في جسد أمتي . أنا واحد من سبعين مليوناً من العرب ، كل واحد منهم أنا ، فينبغي أن ا حبهم قدر سبعين مليون نفس كنفسي . من افتداهم فكأنما احياني سبعين مليون مرة ، ومن خانهم فكأنما قتلني مثلها . ولذا تراني أصب جامات غضبي على الظالمين ، والصابرين على الظلم ، بعنف من يدرأ الموت لا عن نفسه فحسب بل عن سبعين مليون نفس » .

* * *

واذا سألت شاعرنا : « لماذا هاجرت الى البرازيل ؟ » أجابك : « إن جرائد بيروت نشرت لي في العهد العثماني بعض قصائد وطنية فقرأها عم ذواقة لي مهاجر في البرازيل ، فرغبني في السفر اليه وارسل الى نفقات السفر وقد أغراني بالسفر ان والدي توفي سنة ١٩١٠ وخلف عليه ديوناً لأنه لم يستوف فلساً من قروض وزعها . وما كان ممكناً ايفاؤها من معاشي الضئيل معلماً ، فقررت الاغتراب لابراء ذمة ابي فابحرت من بيروت سنة ١٩١٣ وصحبني شقيقي قيصر الى ولاية مريانا حيث يقيم عمي... » .

وبعد سنة من ضيافة عمه حمل الشاعر ما يطلق المهاجرون عليها اسم « الكشة » وهي صندوق من الزنك يملأونه بمختلف السلع والأقمشة ويجوبون لبيع ما فيها القرى والدساكر . وقد ضرب صاحبنا في مناكب الولاية ، وغاباتها متعرضاً لمشقات الحر والسيول حتى استطاع واخوه أن يوفيا بعض الدين .. ونشبت الحرب العالمية الأولى وانقطعت المراسلات بين البرازيل ولبنان .. « وسئمت العيش في مريانا التي اشتهرت بسوادها المثلث : رهبانها وغربانها وعبدانها ، ووقر اذني سماع لقب « توركو » يرشقنا به كحجارة المنجنيق صباح مساء زنوج ، اميون ، حفاة ، نصف عراة ، وكلانا شاعر متعلم نظيف الثوب فألقيت عزمي بين عيني ذات صباح ، ووضبت ثيابي واعتنقت عودي الذي كنت اممت الشام خصيصاً لاشتريه قبل سفري ، وودعت الأهل الى الريودي جنيرو ، عاصمة البلاد ، وفي جيبي عشرون ليرة لا غير . واشتدت أزمة الحرب ، وظللت اشهراً اسعى لا اجد مرتزقاً حتى قيض الله لي احد هواة العود فشرعت في تعليمه مستلفاً أجرتي وتكاثر زملاؤه فاطمأننت الى العيش ثم تعاقدت مع جمعية « زهرة الاحسان » فعلمت سنة في مدرستها » .

وانتقل الى صنبول سنة ١٩١٥ واشتغل بالتعليم في مدارس عربية وأجنبية وفي البيوت ، ثم تجول في الولايات البرازيلية معتمداً لبعض المحلات التجارية ثم فتح مصنعاً لربطات العنق ، وكان يطلق عليها : الأرب وتجمع على أربة وهي العقدة الوثيقة ، ثم اقفله بعد ثلاث سنوات لانشغاله بالمصلحة العامة عن مصلحته ، وراح ينشد ألحان الحرية ، ويذكي الحماسة الوطنية . يشيد بالثورات ويمجد البطولات ويتعرض لأقسى حملات الاحتلاليين والشعوبيين والاقليميين ، وقد ترأس العصبة الأندلسية وتحرير جريدة الرابطة ، وسطع صيته في المهاجر حتى عد شاعرها العربي الأول .

اما المصلحة القومية التي وقف نفسه عليها خطيباً شاعراً ، داعية ، كاتباً مقارعاً فيمكن أن تلخص بكلمة واحدة هي « العروبة » . والعروبة في ملته واجتهاده معان تعمر بها القلوب ومناقب حفلت بها سير الأبطال . ولا ارى بداً قبل الحديث عن الذكريات مع الشاعر الكبير والصديق الاثير من الاتيان على تعريفه العروبة التي آمن بها ودعا إليها وبالشرافة هذا التعريف وسراوته !! قال : « العروبة روح حاتم ومعن والسموأل في سلوك كل نبيل عربي ، وروح عنترة وطرفة وامرىء القيس والاخطل والمتنبي في خيال كل شاعر عربي ، وروح خالد وأسامة وطارق وصلاح الدين ويوسف العظمة على سيف كل جندي عربي ، وروح علي وأبي بكر وعمر على قلب كل متسلط عربي . العروبة ليست احواضاً للسباحة في ناد هنا ، وناد هناك وآخر هنالك ، بل هي بحر محيط يضم ارخبيل أقطارنا ، وتجرى فيه رياح تضامننا ، كما تشتهي سفن امانينا .. » وهل تجد عبارة تلخص اسمى معاني



سلطان الأطرش
والشاعر القروي

العروبة من قوله : « العروبة ان يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف ، والعراقى أن له فراتاً في النيل . العروبة دم زكى يجرى في عروق جسد واحد ، اعضاؤه الأقطار العربية . وكل ما يعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار » .

* * *

ويقضى الحديث عن الشاعر القروى بأن أجيب على من يتساءل : لماذا أطلق على رشيد الخورى لقب الشاعر القروى وغلب اللقب على الأسم ؟ حين أصدر الشاعر ديوانه الأول (الرشيديات) سنة ١٩١٦ في سان باولو راح الصحافى تجيب قسطنطين حداد ينقده في جريدة(المؤدب)كيفما اتفق وفى تجن ، وتساءل في مقاله النقدى متهكماً : « من هو هذا الشاعر آلـ ... شاعر جرن الكبة ؟ الشاعر القروى ؟ » قالها وفى ظنه انه يهين الشاعر ، ولكن صاحبنا استعذب هذا اللقب ، وعرته لرنته هزة ، وسارع إلى أقرب حديقة ونظم قصيدة يدعو فيها الشباب إلى التطوع معه في الانضمام إلى جيش فيصل ابن الحسين في الثورة العربية ونشرها بتوقيع « الشاعر القروى » ومنذئذ أطلق على نفسه هذا اللقب فعرف به وغلب على اسمه .

* * *

وظل الشاعر في مغتربه يتحرق شوقاً إلى وطنه ، وبعد خمس وأربعين سنة ، أى سنة ١٩٥٨ تلقى دعوة رسمية من سورية وكانت الإقليم الشمالى في الجمهورية العربية المتحدة ، فقرر تلبيتها ، وركب البحر في طريقه إليها ، ونظم والباخرة تمخر به عباب البحر :

بنت العروبة هيئى كفنى
أنا عائد لأموت في وطنى
أأجود من خلف البحار له
بالروح ثم أضن بالبـدن

وكانت في لبنان ثورة اهلية بين الرئيس كميل شمعون وأنصاره وبين معارضيه وكان الشاعر قد غمز الرئيس في قصيدة له في البرازيل . فلقى حين وصول الباخرة الى مياه بيروت من بعض رجال الأمن صعوبات ، فواصل رحلته بالباخرة إلى اللاذقية فاستقبل بحفاوة بالغة .. حتى اذا بلغ دمشق اطلق قصيدته الوحدوية في نحو مئة بيت . واى روعة ابلغ من مطلعها :

حتـام تحسبها أضغاث احلام
سبح لربك .وانحر أنت في الشام
لم يأذن الله يا بوق العروبة ان
تقضى الحياة غريباً بين أعجام
اضناك طول السرى والسير يا ولدى
فاطرح رداءك وأمسح جرحك الدامى
هذى عيونى وجناتى وفـاكهتى
فاملأ يديك وبرد قلبك الظامى
وارتع بقلبى واسبح كالشفاعة في
عينى ونم بين أهدابى واحلامى
ومجد شاعرنا الوحدة والرئيس عبد الناصر ، وختم القصيدة صادحاً :
سيان بعد التلاقى يا بلادى لو
خلدت أو حكم الطاغى باعدامى
اما رجعت ؟ الم انشق هواك ؟ الم
الثم ثراك ؟ الم أسمعك انغامى ؟
أحس بالراحة الكبرى كأنى قد
طرحت في البحر عنى كل آثامى

وكانت لنا بعد ذلك لقاءات سأتحدث عنها في مقال آت ان شاء الله .

اكرم زعيتر

هوامش :
١ ـ مركز فتنة التياريين من أعوان الانجليز .
٢ ـ الشريف حسين المدفون في الحرم القدسى .
٣ ـ النغبة : الجرعة .



كيف مات أنطون تشيخوف؟

بقلم: الدكتور علي الراعي

أنطون تشيخوف

كانما القدر كان يكتب قصة الأيام التي سبقت واعقبت وفاة انطون تشيخوف بطريقة تشيخوف نفسه : المفارقة التي تنبع فجاة من تضاد الاشياء ، وتحمل المرء على الضحك الممزوج بالأسى ، الاهتمام بادق التفاصيل بطريقة تبدو لا منطقية . تحدى الياس المحيط بالضحك المفطور القلب المتطلع الى المستقبل يلوح قادماً لا محالة ، وان كان مقدمه ما يزال بعيداً . الشعور الممض بان الواقع قائم وجاثم والاستسلام لحزن هادىء وعذب ، منق للقلب من الادران .

هذا المزاج الغريب من الضحك والبكاء والياس والأمل والاصرار على تخطي الواقع أو السمو عليه ساد الايام القليلة التي قضاها تشيخوف في المانيا قبل وفاته .

كان تشيخوف قد صحب زوجته الالمانية الأصل اولجا كنيبر ورحل الى بلدة صغيرة تدعى بادويللر ، طلبا للشفاء من مرض السل . رحل وهو ـ في اعماقه ـ واثق من انه لن يعود الى روسيا حياً !

وفي بادويللر اخذ تشيخوف يصارع المرض ويأبى ان يتخلى عن الامل .حسب انه سوف يستجمع قدراً من قوة البدن يمكنه من ترك البلدة بعد ثلاثة أسابيع والسفر الى ايطاليا ، التي كانت تشده اليها شداً .

غيرانه خلال اسبوعه الثاني اخذ يشعر بالقلق الشديد ، قال انه لا يحب حجرته ، ويود

ان يتركها الى مكان اخر . كانت هذه حجرة في فيللا ، وكان أصحابها ـ بدورهم ـ قلقين خشية ان يموت تشيخوف فيفزع لموته باقي النزلاء ويتركونها .

ووجدت اولجا غرفة في فندق اسمه سومر كانت جديدة الاثاث ، نظيفة تماما ، وتبعث على الانشراح . وهنا كان تشيخوف يجلس ساعات طوالا في الشرفة يرقب ما يجري بالشارع مفتونا بالحركة الدائبة للناس ، دخولا وخروجا الى ومن مكتب البريد الذي يواجه الفندق . قال لزوجته : هذا هو معنى الثقافة . كلهم يدخلون ويخرجون وكل منهم يكتب الخطابات وتاتيه الخطابات .

وكانت اولجا تاخذه كل يوم تقريبا للنزهة في الغابات . فحين كانا يقطعان الطريق ذات مرة مجتازين احدى القرى لفت تشيخوف نظر زوجته الى نظافة منازل اهل القرية وقال معلقا ومطلقا زفرة اسى : متى يصبح فلاحونا في نظافة هؤلاء ؟ غير ان غياب الجمال والاناقة في القرية الالمانية لم يفته فكتب لاخته يقول : ليس هنا ذرة من ذوق جميل وانما كثير من النظام والأمانة . ان الحياة في روسيا اكثر موهبة ـ دعي عنك فرنسا وايطاليا . وفي اخر خطاب لماري ، قبل ايام من وفاته كتب يقول : انه يفكر في ان يقضي بعض الوقت عند بحيرة كومو . ان البحيرات الايطالية مشهورة بجمالها اما نساء المانيا فلا ذوق في ملابسهن الى حد يبعثه على الاكتئاب .

امضى تشيخوف الساعات القليلة التي سبقت وفاته بطريقة تمثل روح الكاتب الكبير خير تمثيل . جعل يضاحك زوجته بان يخترع قصصا طريفة . كان قد مر على الزوجين ايام ثلاثة عصيبة ، بدات صحة تشيخوف بعدها تتحسن قرب المساء فاخذ يلح على زوجته ان تذهب لتتنزه في حديقة الفندق ، فانها لم تفارق الحجرة طيلة الايام الثلاثة . ولما عادت اولجا من نزهتها الح تشيخوف عليها في ان تنزل الى المطعم وتتناول العشاء ، فدفعت الزوجة بانها لم تسمع (الجونج) يدعو النزلاء الى الطعام . ثم تبين من بعد ان الجونج قد قرع . وان الزوجين لم يسمعا القرع . وهنا اخذ تشيخوف يقص على زوجته قصة مصيف فاخر من مصايف الاثرياء ازدحم على اخره بنزلاء اصحاب البنوك ، متخمين ، تفيض منهم السمنة ، وزوار من الانجليز والامريكان مفعمين بالصحة ، حمر الخدود . وفي احدى الامسيات عاد النزلاء جميعا الى الفندق فوجدوا ان الطاهي قد غادر المكان هاربا ، ولم يترك وراءه طعاما ياكله المدللون على سبيل العشاء . ثم جعل تشيخوف يصف لزوجته وقع هذه الضربة على كل واحد من المدللين . كانت أولجا تستمع اليه وتضحك في مرح . لا يخطر على بالها قط انها بعد ساعات قليلة ستقف امام جسد فارقته الحياة .

بعد منتصف الليل بنصف ساعة افاق تشيخوف من نومه وهو يلهث وطلب الى زوجته ـ لاول مرة ـ ان يعوده الطبيب . وأرسل الطبيب في طلب اوكسيجين . فقال تشيخوف : لا داعي ،ساموت قبل ان يصل . وارتمى على الوسائد واخذ يخطرف . سال : (هل ذهب البحار ؟) وسالوه : (اي بحار ؟) كان ذهنه قد ارتحل الى الحرب الروسية اليابانية التي كانت مستعرة انذاك . واستمر تشيخوف يهذي بعض الوقت ثم كانت كلماته الاخيرة : (اني اموت) .

كان اذذاك يجلس في فراشه مثنى الجذع ، معتمدا على وسائد ، وفجاة ، ودون ان ينبس بكلمة واحدة هوى جانبا . مات . كان وجهه يبدو شديد الشباب ، تعلوه سيماء الارتياح ، وما يقرب كثيرا من السعادة . وانصرف الطبيب . وهب على الغرفة نسيم عليل ، حاملا معه رائحة الحشيش المقطوع لتوه . وكانت الشمس تبزغ ببطء من خلف الغابات . والطيور تصحو وتزقزق ، وفي داخل الغرفة كان صوت فراشة سوداء ضخمة يقطع الصمت بطنين عال ، اذ تدور وتدور حول المصباح الكهربائي . وكان يشق الصمت ايضا نحيب اولجا إذ هي مستندة براسها الى جسد تشيخوف .

* *

مات تشيخوف يوم جمعة . وفي يوم ٥ يوليو ١٩٠٤ وضع جثمانه في تابوت من الزنك ، وبدأ رحلة العودة الى روسيا . وصلها يوم ٩ يوليو في عربة قطار بضاعة ، كتب على أبوابها باحرف كبيرة (محار طازج) ! وكانما لم تكن هذه المفارقة الباعثة على الابتسام والاسى كافية فسرعان ما عمق القدر الخط التشيخوفي بان جعل جثمان احد الجنرالات الروس ، الذين سقطوا في الحرب مع اليابان يصل الى المحطة في الوقت ذاته ، وان كان على رصيف اخر . وسرعان ما تداخلت الجنازتان تتقدمهما فرقة موسيقى عسكرية . وانضم فريق من القلة التي جاءت تشيع جثمان كاتب موسكو الحبيب انضموا الى مشيعي جنازة الجنرال وهم في دهشة لان كاتب روسيا العظيم يمضي الى مثواه الاخير على انغام فرقة موسيقية عسكرية . ولما كشف الامر من بعد اخذ المشيعون يبتسمون ويضحكون .. !

يقول مكسيم جوركي ، الذي شهد جنازة تشيخوف ، ان من ساروا وراء نعشه لم يتعدوا المائة . وانه يذكر من بينهم اثنين من المحامين جاءا وهما يلبسان احذية جديدة وربطتي عنق ملونتين كما لو كانا عريسين . وكان جوركي يسير وراءهما فسمع واحدا منهما يتحدث عن ذكاء الكلاب ، بينما جعل الاخر يصف وسائل الترف والراحة في بيته الريفي ، والمناظر الجميلة التي تحيط به . وكان بين المشيعين امراة في رداء بنفسجي ، تحتمي بمظلة من الدانتيل وتقول في حماس لرفيق لها عجوز : (اه ، لقد كان انسانا لطيفا ، شديد الذكاء) ولكن العجوز سعل مرارا مظهرا عدم اقتناعه !

وعاد جوركي يقول : (كان اليوم شديد الحرارة كثير الغبار . وعلى راس الموكب ضابط شرطة بدين يمتطي ـ في خيلاء ـ صهوة جواد أبيض سمين . وهذا كله ، وكثير غيره كان مؤلما في سوقيته ، وغير لائق بذكرى كاتب عظيم فائق الحس) .

غير ان ديفيد ماجرشاك ، مؤلف كتاب : (حياة تشيخوف) ، الذي انقل عنه هذه الحقائق ، يتفق معي في الراي الذي تخلص لي وانا اقرا وصفه للطريقة التي مات بها الكاتب العظيم والخطا المضحك الذي لابس تشييع الجنازة .

يقول ماجارشاك : ان المرارة التي شعر بها جوركي مفهومة ومقدرة . غير ان المسالة كلها ، ـ رغم غرابة هذا القول ـ هي واحدة من المفارقات الساخرة التي كان تشيخوف يهش لها في حياته والتي كانت جديرة بان تجعله يضحك ، لو ارتد حيا : الابهة والعظمة تحيطان بجنازة عسكري كبير ، تجاورها جنازة لا يكاد يلتفت اليها احد لكاتب عظيم .. !

.. وأيضاً قد يَخْدَعُ العلماءُ علماءً مثلهم

المخلوق الذي كان.. وإطلاقاً ما كان!

بقلم: الدكتور عبد المحسن صالح

«أنا البروفيسور جيمس دوجلاس... لا أستطيع أن أرى ، ولا أكتب ، ولا أقرأ ، الا أنني قد عزمت الأمر على أن أسجل شهادتي على هذا الشريط قبل أن يحين أجلي .. وتلك هي النقاط التى رأيت من واجبي أن أذكرها لأوضح بها مدى الحقد الذي يمكن أن يؤدي الى مثل تلك الفضيحة !.»

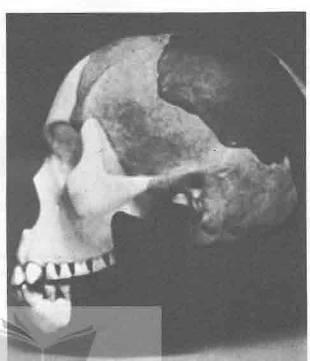
تلك كانت بداية شريط التسجيل الذي عرضه دكتور بيفرلي هولستيد في الندوة العلمية التي أقيمت في جامعة ريدنج وحضرها علماء التشريح المقارن وعلماء الجيولوجيا عامة ، والحفريات خاصة ، وفيها استمعوا الى شهادة زميل لهم أصبح في ذمة التاريخ ، كانت هذه الشهادة هي اخر حلقات فضيحة علمية مضى عليها حتى الآن ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، وظلت طوال هذه الفترة مثار جدل ونقاش واتهامات تركزت على اكتشاف مخلوق منقرض قيل أنه كان ، ثم ثبت أنه ما كان .

ونحن نسوق هذه القصة الواقعية المثيرة هنا ، ليتبين لنا كيف أن بعض العلماء يغررون بعلماء مثلهم ، ويقومون بتدبير حيل وخدع قد تجوز عليهم ، وتنال من مكانتهم ، لكن ذلك كله لابد أن ينكشف ، طال الزمان أو قصر ، وسر اكتشافه أنه ليس من العلم في شيء ، لأن العلم ذاته يستقي مادته من الشرائع الكونية ، والنواميس الطبيعية ، ومن تكوين المخلوقات السوية ، وهذه جميعها لا يمكن أن تقوم على تدليس ، ولا يخالطها فوضى ، انما تنبع الفوضى من بعض أنماط فكرية منحرفة ، ولابد — والحال كذلك — أن يلفظها العلم ، كما يلفظ الجسم الحي عضوا غريباً مزروعاً فيه دون كسر شوكة مناعته .

تنويه واجب

لكن قبل أن نبدأ سرد أحداث هذه القصة ، نود أن ننوه بفضل أحد قراء هذه المجلة الموجودين في انجلترا ، اذ أرسل الينا صوراً من بعض ما كتبته المجلات العلمية ، أو نشرته أجهزة الأعلام هناك عن هذا الموضوع ، وهو لم يذكر اسمه ، وإلا كنا قد ذكرناه .. لكن أهم ما بعث به إلينا هو نص تسجيل البروفيسور جيمس دوجلاس الذي قام بنشره والتعليق عليه دكتور هولستيد في مجلة «نيتشر» (الطبيعة) البريطانية ، ذات العراقة العلمية ، وذلك بعد حوالي تسعة شهور من موت البروفيسور دوجلاس ، إذ توفي في فبراير ١٩٧٨ ، وأذيعت محتويات الشريط في أكتوبر ، ثم تم النشر في «نيتشر» في نوفمبر من نفس ذلك العام .

لكن هذا الموضوع متداول من زمن طويل في بعض المجلات الدولية ، وفي معظم المراجع والكتب المهتمة بمواضيع الحفريات عامة ، والتنقيب عن أصل الإنسان خاصة ، ونحن نقدمه هنا ضمن سلسلة الدراسات التي تتناول الخدع أو التضليل الذي يجوز على رجال العلم من غير أهل العلم (كالحواة والذين يدعون امتلاك قوى



شكل (١) هكذا بدت جمجمة انسان بيلتداون بعد أن أعيد تركيب بعض عظامها المتناثرة (اللون البنى الغامق) مع اضافات وترميمات بنسب محسوبة لتبدو أقرب الى الواقع .. ان الظاهر فيها قد يبدو مقنعا ، لكن الباطن مخادع .



شكل (٢) انسان بيلتداون كما يتصوره بعض العلماء من شكل جمجمته ، وهو هنا بفكى قرد وجمجمة انسان كبيرة لتعطيه استدارة وجه واضحة ، وحتى عام ١٩٥١ ــ حيث عرضت هذه الصورة مجسدة وقتذاك فى مهرجان بريطانيا ــ ظل كثير من الناس يعتقدون فى أنه قد كان ثم انقرض ، ثم تبخر هذا الاعتقاد فى عام ١٩٥٢ على يدى جماعة من العلماء الانجليز .

خفية) ، أو من الغش في مسألة علمية (أنظر دراساتنا السابقة على صفحات هذه المجلة) ، أو عندما يخدع عالم عالماً مثله ، بغرض التشهير به ، وهذا ما سنتناوله في هذه القضية الغريبة ، وهي أخطرها على الإطلاق ، وكان آخر مسمار دق في نعشها ، هو هذا التسجيل الذي نحن بصدده ، والذي أذيع منذ ست سنوات ، رغم أن الحكاية قد بدأت منذ عام ١٩١٢ ، ورغم أن أحد المشتركين فيها ــ وهو محام بريطاني ــ قد توفى عام ١٩١٦ ، فمات معه جزء من السر ، ثم بعد عشرين عاماً ــ أي عام ١٩٣٦ ــ مات أيضاً المصمم الحقيقي لقضية المخلوق المنقرض شبيه الإنسان ، وهو الذي ورد اتهامه في الشريط بعد ٤٢ عاماً من موته ، ويدعي البروفيسور وليام جونسون سولاس الذي شغل منصب الأستاذية بقسم الجيولوجيا والحفريات ، بجامعة أكسفورد في الفترة ما بين ١٨٩٧ حتى وفاته عام ١٩٣٦ عن ٨٧ عاماً .

أما صاحب التسجيل فهو البروفيسور دوجلاس ــ الذي سبقت الاشارة اليه ، وقد خلف سولاس في القسم ذاته كأستاذ للجيولوجيا من عام ١٩٣٧ ــ حتى عام ١٩٥٠ ، وهو من تلاميذه أيضاً ، وبحكم زمالته له ، ووجوده معه ، فقد شهد بعض أدلة الإتهام ، لكنه آثر أن يكتمها ، إذ كانت تربطه بأستاذه صلات وثيقة ، ثم انه تعلم على يديه ، وهو لا يريد أن يثير فضيحة ضد رجل مات من زمن ، حفاظا على اسم عائلته .

وفي آخر أيامه ضعف بصره الى الدرجة التي أصبح فيها في حكم الأعمى ، واعتزل الناس ، وذهب إلى جزيرة صغيرة في جنوب انجلترا ، ليعيش فيها بقية أيامه ، وهناك توطدت الصداقة بينه وبين جاره ريتشارد فورد ، وهو من العلماء الهواة في الحفريات ، وله فيها اهتمامات خاصة ، ونشاط محمود ، وكان فورد يعرف أن دوجلاس يحتفظ بسر أستاذه سولاس ، وعز عليه أن يموت ويموت سره معه ، وظل فورد يطارده ويقنعه ويثير ضميره العلمي ضد تزوير خطير أرتكب في مسألة علمية شائكة ، ومن حق العلم على علمائه أن يصححوا المسار ، وأخيراً جداً إقتنع دوجلاس بوجهة نظر صاحبه ، خاصة عندما شعر أن أجله قد دنا ، وبالفعل سجل الشريط ، وسلمه لجاره ، ليسلمه بدوره إلى دكتور هولستيد ، وأوصى ألا يذاع السر في حياته ، وبالفعل لم تمض إلا عدة شهور قليلة ، حتى توفى دوجلاس عن ٩٣ عاماً ، وبعدها قام هولستيد بتوجيه الدعوة الى الندوة التي أشرنا إليها ، ليذيع السر لأول مرة ، فأحدث ذلك ضجة هائلة تناقلتها اجهزة الإعلام ، ونشرتها بين الناس .

أحداث الفضيحة

لكن قبل أن نتعرض لما جاء في التسجيل ، نرى من الأوفق أن نعرض قصة الكشف التي لعب التضليل فيها دوراً كبيراً ــ ففي عام ١٩١٢ أعلن المحامي تشارلز داوسون أنه توصل الى اكتشاف جزء من

المخلوق الذي كان.. وإطلاقاً ما كان!

جمجمة عثر عليها في مكان قريب من بيلتداون بمقاطعة ساسيكس ، ورغم أن داوسون كان محامياً ، إلا أن له اهتمامات في التنقيب عن الحفريات ، وقيل أن أحد العمال قد عثر عليها أثناء الحفر في بيلتداون عام ١٩٠٨، ثم حملها الى داوسون لعلمه أنه يهوى مثل هذه الأشياء ، وعندئذ صحبه داوسون الى المنطقة ، وظل ينقب فيها لمدة سنتين أو أكثر ، وجمع منها بعض عظام هشة قيل عنها أنها قديمة جداً وترجع الى أصول شبه آدمية ، وكانت أهم قطعة في هذه المجموعة وجود جزء من الفك الأسفل لكائن لا هو قرد ، ولا هو إنسان ، بل يبدو لمخلوق وسط شبيه بالإنسان ، ومن أجل هذا أطلقوا عليه إسم انسان بيلتداون الحفري .

وقال داوسون : أنه لم يجد أمامه من هو اعلم ولا أفضل من « سير » آرثر سميث وود ويرد ، في الكشف عن حقيقة هذه الحفريات ، وكان « سير » آرثر وقتها يشغل منصباً علمياً مرموقاً ، اذ كان أميناً عاماً للمتحف البريطاني ، وعالماً في الجيولوجيا والحفريات ، وهو المقصود بتلطيخ سمعته في هذه الفضيحة العلمية ، ولأن الموضوع برمته عفن وتحوم حوله الشبهات ، فقد تعددت فيه الروايات ، لكن أكثرها تقبلا أن بعض هذه العظام قد دفن في مكان بمنطقة بيلتداون ، لكن بعد أن أجري عليها بعض المعالجات الكيميائية لتبدو قديمة !

المهم أن المحامي استدرج سير آرثر الى الفخ ، وذهب به إلى بيلتداون ، وبدأت عمليات الحفر ، وظهرت بعض العظام ، وتحمس آرثر لذلك تحمساً شديداً ، وبدا كالطفل الذي وقعت بين يديه لعبة مثيرة ، ولقد ذهب به الحماس إلى درجة أنه أقام له بيتاً صغيراً بالقرب من موقع الاكتشاف ، حتى لا تغيب عنه شاردة ولا واردة مما قد يسفر عنه التنقيب ، ومن الطبيعي في مثل هذه الأحوال أن يجمع العلماء هذه الأجزاء المبعثرة ، ثم يحاولون التأليف بينها ، فلعل ذلك يؤدي الى إعادة تشييد عظام المخلوق بطريقة أو بأخرى ، فتنبئ عن حجمه وشكله وجنسه ونوعه ، ثم وضعه في عائلة ورتبة ــ كما هو متبع في علم تقسيم الكائنات الحية ! . ولا شك أن العلماء لديهم سجلات كاملة عن أشكال وأنواع الفكوك والأسنان والجماجم والفقرات والهياكل العظمية عموماً ، وهو ما يعرف باسم علم التشريح المقارن ، سواء لكائنات منقرضة أو اخرى حية ، وهم هنا كعلماء الجريمة ، فمن قطرة دم ، أو شعرة رأس ، أو بصمة اصبع .. الخ ، يستطيعون أن يرجعوا الأثر الى صاحبه ، وكذلك الحال مع علماء الحفريات ، إذ بمقدورهم أن يرجعوا هذا الضرس ، أو ذاك الناب ، أو تلك الفقرة ، أو الفك ، أو حتى جزء منه ، أو قطعة من جمجمة .. الخ .. ، يرجعوه الى حيوان بعينه ، فان كان له مثيل مما يعيش على الأرض ، أعادوه الى نوعه ، وإن كان غير ذلك ، فهو لم يأت من فراغ ، بل لابد أنه لحيوان منقرض .. وجزء من فك ، أو عظمة من وجنة ، أو قطعة من جمجمة ... الخ ، يمكن أن تؤدي الى تصور واضح لرأس المخلوق .. فنصف الفك الأيمن يعطيك تصوراً لنصفه الآخر ، ومن الممكن أن تعمل له قالباً ليكتمل هذا مع ذاك ، ثم ان غاب الفك السفلي من الحفرية مثلا ، لا يشكل مشكلة ، إذ من الممكن عمل « توليفة » أو طبعة من الفك العلوي ليكون ملائماً للسفلي ، وكل هذه النسب والزوايا والتكوين موجودة أساساً في جماجم الحيوانات جميعاً بما في ذلك الانسان ، ولكل منها معايير محددة ، وصفات معينه ، وأشكال مقدرة .. الى آخر هذه التفصيلات التي يعرفها العلماء حق المعرفة ، ولها علم قائم بذاته .

وقيل إن التحوير واللعب كان في هذه الأجزاء ، ولا يستطيع أن يقوم بها إلا علماء ، ولهذا فان المحامي برئ من هذه



شكل (٣) وتكريما لهذا الكشف السعيد ، ظهر كارت بوستال كتب على ظهره «البحث عن انسان بيلتداون» وفيه ترى كل من دكتور سميث وود ويرد (الى أعلى ولم يكن حاز لقب سير بعد) والمحامي داوسون الى أسفل ــ وفي وسط الصورة ظهرا سويا في الموقع ، وقد وقف داوسون في وضع استعراضي .

التهمة ، فمعلوماته وخبرته لا شك محدودة ، لكنه ــ على أية حال ــ كان على علم بما حدث ، ثم إن اللعبة قد اكتشفت بعد وفاته بسنوات طويلة ، ولهذا مات معه جزء من السر .

اعادة تشكيل الجمجمة

واختصاراً للموضوع ، فقد جمعت بقايا العظام التي أشرف عليها سير آرثر ، وعكف على دراستها مع جماعة من العلماء المتحمسين ، واستطاعوا أن يعيدوا للأجزاء المتناثرة تآلفها ، وتعويض المفقود منها بقوالب مناسبة تحتل مواقعها فيها . وفي النهاية ظهرت الجمجمة بشكلها الذي تراه هنا ضمن المقال (شكل ١) .

وطبيعي أنه من الميسور بعد ذلك أن يتصوروا شكل المخلوق الذي ترك هذه الجمجمة ــ أيضاً ــ باستخدام مبادئ التشريح المقارن ، لأن العظام ذاتها دعائم للعضلات ، وللعضلات مواقع تتصل بها على العظام ، ومنها يمكن استنباط حجم العضلة وامتداداتها ، ثم ما أيسر بعد ذلك أن يغطى كل هذا بما يشبه الجلد ، أو يؤتى بمثال ماهر ومتمرن على ذلك ، ليصنع تمثالا أو قالباً يوضح به تقاطيع المخلوق المنقرض قدر الامكان ، وهو ما نرى له مثيلا في الديناصورات المنقرضة ، اذ أمكن إعادة تشكيلها من هياكلها العظمية التي تركتها على هيئة حفريات ، وكل هذا قد تراه في الأفلام التي تعرض فصولا من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ، وتبرز فيه أنواعاً مختلفة من هذه الحيوانات الضخمة المنقرضة ، وهي بلا شك لم تنشأ من فراغ ، ولم تشكل من خيال ، بل هناك أساس يسير عليه المثال أو الفنان ، ومن وراء ذلك ــ بطبيعة الحال ــ علماء متخصصون في مثل ذاك المجال ، ولهذا فان إنسان بيلتداون يمكن أن يكون صورة قريبة لما تراه في الشكل المعروض هنا (شكل ٢) ، وكما يتخيله العلماء !

والحق أن كثيرين قد تحمسوا لهذا الكشف المثير ، وعلى رأسهم سير آرثر



شكل (٤) لوحة تذكارية كبيرة لجماعة من العلماء كانت تتصدر الجمعية الجيولوجية بلندن وقد انصب اهتمامهم على بعض العظام الحفرية التي اكتشفت في منطقة بيلتداون ، وترى منها من اليمين الى اليسار : «سير» راي لانكستر ، ودكتور سيمث وود ويرد (الواقف ذولحية) وبجواره المحامي تشارلز داوسون ، وعدد آخر من الأساتذة المرموقين .

وبعض العلماء ، كما تحمست له أجهزة الإعلام ، وانتشرت وقتها الصور المسجلة على كروت المعايدة ، ومنها مثلا إبراز الموقع وصورة المحامي وارثر وهما في وضع استعراضي ، وعلى جانبي الكارت صورة لكل منهما في برواز (شكل ٣) .ليس هذا فحسب ، بل هناك لوحة كبيرة ملونة كانت موضوعة في مدخل الجمعية الجيولوجية في لندن (شكل ٤) ، وفيها اجتمع نفر من العلماء البارزين الذين شاركوا في هذه الدراسة ، ولم ينس الفنان أن يحشر المحامي مع هذا الجمع قبل وفاته ، فاليه يرجع الفضل في هذا الكشف الخطير ، إذ اوضح أن الإنسان الأول الذي جاءت من صلبه البشرية هو في الأصل ذو جذور أو أصول إنجليزية ، ولقد كوفىء داوسون على ذلك أيضاً بأن اقترن اسم هذا المخلوق باسمه .. فاسم الجنس إيوانثروباس (وتعني إنسان فجر التاريخ) ، واسم النوع داوسوناي (مشتقة من اسم المحامي ــ أي داوسون .

لم يكن البروفيسور سولاس الذي قام بهذه الخدعة يدري أن خدعته سوف تقابل بكل هذا الحماس على جميع المستويات ، وهو لم يقصد طبعاً أن يثبت للعالم بفعلته تلك أن أبا البشرية تجري في عروقه دماء إنجليزية ، بل كان قصده الأساسي أن يسخر من سير آرثر ، وأن يلطخ سمعته العلمية بالوحل (كما سيوضح لنا التسجيل) ، لكن الأمور قد جرت على غير ما توقع ، فآثر الصمت بعد أن وصلت الموجة الى هذه الدرجة .

إكتشاف الخدعة

وفي وسط هذه الموجة من الحماس والفخار الذي حل على الإمبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس ، ظهر بعض العلماء المتشككين ، لكن آراءهم لم تجد لها صدى مسموعاً ، أو من الأفضل أن تصمت حتى لاتحجب هذا الشرف عن بني وطنهم ، ومع ذلك زاد الهمس ، وطغت الشكوك ، وبدأت الفضيحة تنتشر بين العلماء أولا ، ثم تسربت بعد ذلك الى رجل الشارع .

لقد قيل ان جمجمة هذا المخلوق لا هي لأحد القردة العليا ، ولا هي لانسان ، ولا

المخلوق الذي كان.. وإطلاقاً ما كان!

لأي نوع أو جنس من الكائنات المعروفة ، لكنها تجمع بين صفات القردة في اجزاء ، وبين صفات الانسان في أجزاء أخرى ، ومن هنا أطلقوا عليها اسم نوع جديد مسبوق باسم جنس جديد كذلك ــ كما سبق أن أشرنا ، واعتبروه الحلقة المفقودة .

لكن المتشككين لهم رأي آخر ، فعندما سمح لهم بفحص العظام الحفرية اتضح أن جزءاً من قمة الجمجمة ينتمي لانسان حديث أو « مودرن » ، أما الجزء من الفك الأسفل (أنظر شكل ١) فهو لأحد القردة العليا ، ولقد أبدى آرثر كايث (وهو غير سير آرثر سميث وود ويرد) تخوفه من أن تكون هذه الجمجمة قد حدثت فيها خدعة متقنة ، اذ لاحظ عدم توافق بين الجزأين اللذين قيل عنهما أنهما اكتشفا في بيلتداون !

وفي كتابه الممتع « من القردة العليا إلى الإنسان » يسوق دكتور وندت ما قاله العالم مور بعد أن فحص الجمجمة : إن أي عالم يعتبر إنسان بيلتداون مخلوقا أصيلا وحقيقيا ، لابد أن يعلق عليه بقوله : انها لمعجزة أن يموت إنسان في حفرة ما ، ثم يترك جزءاً من جمجمته ، ولا يترك فكيه ، وفي نفس الحفرة أيضاً يترك مخلوق اشبه بالقرد فكه ، وتغيب جمجمته ! .. والتهكم هنا واضح ، لأن ما اعتبره الذين أعادوا تشكيل الجمجمة هي أجزاء لنفس الكائن المنقرض ، يعتبرها المتشككون أنها اجزاء لكائنين مختلفين ، وأن التآلف بينها ينطوي على تلفيق واضح .. يضاف الى ذلك أن بعض الأسنان غير البشرية قد وجدت طريقها الى فك بشري ، وحشرت فيه حشراً .. كل هذا كان يحدث ، والملفق الأساسي الأستاذ سولاس يلزم الصمت الى أن توفى سنة ١٩٣٦ ، ودون أن ينبس ببنت شفة ، ومات معه سره الذي كشفه الأستاذ دوجلاس .

بداية النهاية

وفي عام ١٩٥١ وجهت مجموعة من العلماء لطمة قاضية إلى هذا المخلوق الذي كان ، وبعدها أصبح كأن لم يكن ، وضمت هذه المجموعة ثلاثة من العلماء الإنجليز هم : ك . أوكلاي ، ج . فينر ، وسير ويلفرد كلارك .. وفي هذه الفترة تقدمت وسائل البحث وتطورت ، وأصبح في الإمكان تقدير عمر الحفريات القديمة . ولقد صممت هذه المجموعة على معرفة عمر انسان بيلتداون بواسطة الذرات المشعة . وبعد مجهودات مضنية ظهرت النتيجة التي وصفها دكتور جيرهارد بقوله : « بالفحص الدقيق للفك الأسفل ، وباستخدام طريقة متقنة لمحتوى العظام من عنصر الفلور ، تبين أن هذا الفك من أصل حديث ، لكنه عومل بمواد كيميائية ليبدو عليه القدم ، وحتى الأسنان التي أمكن تثبيتها فيه عولجت بطريقة ذكية لتبدو ذات سمات حفرية » !

ويعلق أوكلي ــ الذي قام بتقدير عمر الفك ــ على هذه النتيجة المخيبة للآمال بقوله التهكمي « لقد اعتقدنا أن المخ الكبير قد ظهر أولاً ، وافترضنا أن الإنسان الأول كان إنجليزيا » ! .. ثم يكتب البروفيسور كونيجزوالد عن داوسون المحامي وعلاقته بهذا الموضوع ، فيذكر ضمن ما يذكر « ليس من اللياقة أن ندين إنساناً ميتاً لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، لكن كل شيء يشير بالتأكيد الى مسئوليته عن هذا التزوير ، فلقد ثبت الآن حقاً أن العظام الحفرية أو البقايا المتحجرة التي وجدت في الموقع لم تكن أصلاً فيه ، بل دفنت هناك بعناية بالغة » .. ومن هذا يتضح أن كونيجزوالد لم يكن يدري شيئاً عن الفاعل الحقيقي الذي قام بالدور الأساسي في هذه اللعبة ، نعني البروفيسور سولاس .

وأخيراً يجيء « سير » جافين دي بير ، مدير المتحف البريطاني وقتذاك ، ليكتب الكلمة الأخيرة في الموضوع (الواقع أنها لم تكن كذلك ، بل كان صاحبها دوجلاس) ، وينهي بها هذه القضية التي استمرت حوالي أربعين عاماً : « لقد وضعوا أساس شبح إنسان بيلتداون الذي ــ وأقولها بأمانة ــ لم يتناسب وجوده قط مع أي وضع في فكرة التطور ، لكنه أتاح لنا الفرصة لاستنباط وصقل الطرق العلمية التي تستخدم الآن في الكشف عن حقيقة الحفريات وأعمارها » .

لكن لم تكن هذه الكلمة هي الفاصلة في الموضوع ، بل انتقل بدوره إلى مجلس العموم البريطاني ، بعد أن ثبت بالدليل القاطع أن إنسان بيلتداون كان خدعة خسيسة ، ولهذا تقدم ستة من أعضائه في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٤ الى رئيس المجلس بمذكرة قالوا فيها : إن المجلس يبدي عدم ثقة في اعضاء المتحف البريطاني ، وذلك بسبب تباطئهم وتواطئهم في الإعلان بصراحة عن خدعة جمجمة إنسان بيلتداون » !

ويعلق وندت على ذلك في كتابه « إن السبب الذي جعل لهذه القضية إهتماماً واسعاً على الصعيد القومي أن من بين أعضاء مجلس المتحف البريطاني أسماء سياسية لامعة من بينها ونستون تشرشل رئيس مجلس الوزراء وقتذاك ، وانتوني ايدن وزير الخارجية ، ورئيس أساقفة كانتربري وممثل من العائلة المالكة .. إن هذا الطلب بطرح عدم الثقة كان بغرض إثارة الاهتمام القومي وعلى أوسع نطاق بمدى الغفلة التي اصيب بها العلم في بريطانيا ، وكيف غرر

به البعض في واحدة من أخبث الخدع التي ارتكبت في حق البحث العلمي » .. ولقد وجه المتحدث اللوم الى رئيس الوزراء ورئيس الأساقفة ووزير الخارجية وطلب منهم الاهتمام بأشياء أخرى أكثر أهمية من البحث في أصول كومة من العظام المضللة !

الرجل الذي خدع الجميع

والآن نعود إلى الاعتراف المسجل على الشريط ، فنرى البروفيسور دوجلاس يعرض بصوته وجهة نظره في هذا الموضوع فيذكر : لقد كان داوسون — بطبيعة الحال — رجلاً معروفاً بمغامراته وحيله في التلفيق ، فمجرد وجود بعض العظام قرب بابه الخلفي كفيل باثارة الشكوك حوله ، ولا شك أن كثيرين يعرفون أنه كان على علاقة بشخص ضالع في علوم التشريح المقارن والحفريات وأسلاف البشر ، وأن ذلك الشخص — بهذه المعرفة — قد ترك بصماته الخادعة على عظام الجمجمة .. ولا شك أن سميث وود ويرد (المقصود الأصلي بالفضيحة — كما أسلفنا) قد قاسى أشد ما قاسى من هذه المأساة .. لكن هل حاول أحد أن يتقصى إن كان لسميث وود ويرد أعداء قاموا بهذه الفعلة .. طبعاً لم يتقصوا ، ولو فعلوا — وأنا متأكد مما أقول — لوجدوا انفسهم وجهاً لوجه مع عالم محافظ في جامعة اكسفورد — أقصد بروفيسور سولاس ، وأنا أعرفه جيداً ، فلقد زاملته طوال ثلاثين عاماً ، وأعلم تماماً مقدار حقده وكراهيته لسميث وود ويرد ، وعندي على ذلك أدلة كثيرة ، لكن يكفي أن أسوق دليلاً واحداً ، ففيه الكفاية .. ثم راح دوجلاس يحكي كيف أن سميث طلب من سولاس أن يعينه بأحد الطلبة الكثيرين الذين يعملون معه لكي يساعده في دراسة بعض الحفريات ، ورفض سولاس ، وذهبت اليه ، لأكرر الرجاء ، لكنه أظهر عدم المبالاة والاستعلاء .

وينتقل دوجلاس الى نقطة أخرى على شريطه الذي استمر عشرين دقيقة ليذكر : وأنا أعرف أن سولاس يعرف داوسون ، ولقد زاره أكثر من مرة في هذه الفترة ، لكنني لا أعرف كم عددها ، لأنني كنت بالخارج .. ولقد ثبت بالتحليل أن بعض أجزاء الجمجمة قد عومل بمحلول من مادة كرومات البوتاسيوم (وهي مادة مؤكسدة تكسب العظام لوناً يوحي بأنها قديمة جداً) . وأنا أعتبر ذلك دليل اتهام قوي ، اذ أنني اتذكر تماماً — وكأنما هذا قد حدث بالأمس فقط — أن عبوة صغيرة قد وصلت الى متحف قسمنا ، وتسلمها بيزاند الذي كان يعمل مساعداً فنياً ، وجاء بها الى ، وعندما كشفنا عن محتوياتها وجدناها كرومات البوتاسيوم .. وهنا اندهشنا وقلنا : وماذا هناك ليطلب الأستاذ (يعني سولاس) هذه المادة ؟ !

وبعد أن يشرح أن كرومات البوتاسيوم ليست من المواد المستخدمة على الاطلاق في هذا المجال (وهو يقصد طبعاً وجود علاقة بينها وبين العظام التي عوملت بها) يواصل اعترافه بقوله « ولا زلت أتذكر سولاس وهو يستعير بعض أسنان أحد القردة العليا من قسم التشريح المقارن بالجامعة ، وهي الأسنان ذاتها التي ظهرت في الفك .. والغريب أن سولاس — رغم علمه ومكانته — لم يشترك مع العلماء الذين بحثوا جمجمة إنسان بيلتداون ، وظل دائماً في موقف سلبي .. والحق أن العظام لم تكن أبداً في منطقة بيلتداون ، بل أقحمت على المنطقة بعد أن أدخلت عليها عمليات التضليل لتبدو أنها لمخلوق قديم منقرض ، وأنا أعتقد أن المسألة ربما بدأت كمزاح ثقيل ، لكنها خرجت بعد ذلك من أيديهم » .. ثم يذكر دوجلاس أنه لا يعرف كيف تمت المؤامرة بين سولاس وداوسون ليجعلا من سير آرثر أضحوكة ! .

وفي موضع آخر يذكر « لكن يأتي بعد ذلك السؤال الحرج : من هو الرجل الذي يستطيع أن يقوم بهذه الخدعة الذكية التي أضل بها علماء لهم مكانتهم ؟ .. إن جوابي هو : سولاس .. فهو الذي دبر قبل ذلك خدعة جمجمة حصان شيريورن » .

وهنا ينتهي حديث دوجلاس بذكر قصة خدعة أخرى معروفة ، وملخصها أن تلميذين في مدرسة في شيريورن قد أجريا خدعة على قطعة عظام ملقاة في كومة مهملة بجوار المدرسة ، وعليها قاما بحفر شيء يشبه رأس حصان ، وكان التلميذان قد قرءا شيئاً عن الحفريات في كتاب مدرسي ، وأرادا أن يخدعا مدرس العلوم بهذه المزحة ، ولقد عرف سولاس هذه الحكاية من الفني بيزاند عندما كان الأخير في زيارة لهذه المدرسة ، ولقد أرسل مدرس العلوم هذه القطعة من العظام المحفورة الى وود ويرد الذي قام بعمل تقرير عنها للجمعية الجيولوجية في عام ١٩١٤ ، ورغم أن سولاس كان يعلم أن وود ويرد قد شرب هذا المقلب ، وأن في الأمر خدعة — رغم ذلك لم يحاول أن ينبه وود ويرد لذلك ، وتركه يتمرغ في الفضيحة التي لا شك أسعدت سولاس .. ويعني هذا أنه كان يريد أن يحط من شأنه ، وأن يسفه علمه ، وكأنما لسان حاله يقول : ليس في انجلترا إلا أنا .. وهو ضعف في النفوس على أية حال .

«والعاقبة للمتقين » — وهكذا نختم هذه الدراسة بهاتين الكلمتين اللتين وردتا ضمن إحدى المقالات التي أرسلها لنا قارئنا العزيز من إنجلترا ، ولم يكن في رسالته غير ذلك ، وحسناً كان ذلك !

عبدالمحسن صالح

مسافر على الرصيف



بقلم: محمود السعدني

زواج الدكتور!

كان اسمه الشيخ ، لم يكن هذا اسمه بالضبط ، ولكن كان اسم عائلته ، أما اسمه الأول فقد نسيته ، وكان لقبه الدكتور فقد كان طبيباً بيطرياً ، وكان عمله في معالجة الحيوانات يستغرقه طول العام ، ولكنه كان حريصاً على التواجد في قهوة محمد عبدالله كل مساء . فقد كان على صلة وثيقة بزكريا الحجاوي ، وكان زكريا حريصاً على التردد على عيادة الدكتور الشيخ للكشف والعلاج ، وكان يفضله على غيره من الأطباء . وكانت فلسفة زكريا الحجاوي تتلخص في أن الدكتور الشيخ الذي تفوق في معالجة الحيوانات التي لا تنطق ولا تشكو ، قادر ا يضاً على علاج الإنسان الذي ينطق ويشكو ويعرف موطن الداء .

وكان الشيخ من أسرة كبيرة اشتهرت بإنجاب عدد من مشاهير الفنانين . وكان الدكتور الشيخ شديد الحرص على اقتناء عدد من أعمال هؤلاء الفنانين في منزله ، وكان حرصه أشد على الطواف بأصدقائه الذين يترددون على منزله لمشاهدة هذه الأعمال ، وكان يسهب في شرح تفاصيل هذه الأعمال والمعنى الذي تحمله والهدف الذي يرمي إليه الفنان . وفي هذه الساعات التي كان يطوف فيها بأصدقائه للفرجة على هذه الأعمال الفنية ، كان يثرثر كثيراً ، ويخوض في موضوعات تتعلق بهذه الأعمال ، وتتعلق بغيرها أيضاً ، وكان يبدو سعيداً ومرحاً ومنطلقاً على سجيته تماماً في تلك اللحظات . ولكنه إذا جاء إلى قهوة عبدالله واحتل مكانه المختار ، لم يكن يفتح فمه إلا نادراً ، وأحياناً يقضي السهرة دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، وأحياناً كان زكريا الحجاوي يستفزه ليجبره على الكلام ، ولكنه كان يكتفي بابتسامة ويهز رأسه ثم يرفع أصبعه السبابة ويقربه من شفتيه علامة أنه صائم عن الكلام ! ولكنه في بعض الليالي إذا احتدم النقاش وثار الجدل حول الإنسانية وبدايتها وتطورها ، كان ينبري للكلام ، ولكنه كان لا ينطق أكثر من عبارة واحدة (هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة طويلة ، وأنا مستعد لحضور هذه الجلسة والاشتراك في النقاش) ولكن هذه الجلسة لم تعقد أبداً ، ولم يتح لأحد أن يشترك في نقاش من أي نوع مع الدكتور الشيخ .

ولكن هذا الصامت الزاهد في الكلام ، كان قارئاً ممتازاً ، قرأ الأدب اليوناني باللغة اللاتينية التي كان يجيدها ، واطلع على حضارة الهند وفارس ، وكان واسع الإلمام بتاريخ العرب في الجاهلية وبعد الإسلام .. وكان يتردد أحياناً على المسرح . وكان لا يفتح الراديو إلا للاستماع إلى نشرة الأخبار ، ولكنه كان حريصاً على الاستماع إلى حفلة أم كلثوم أول كل شهر . وكان يقرأ ا نتاج أدباء قهوة محمد عبدالله . فإذا أعجبه شيء منه ، اكتفى بإبداء رأيه بكلمة واحدة هي (برافو) وإذا لم يعجبه إنتاج أديب من الأدباء ادعى أنه لم يقرأه لانشغاله في عمله .

كان الدكتور الشيخ أعزباً يملك وقته كله ، ولم يتردد حوله أي كلام يشير من قريب أو بعيد أنه على علاقة بأحد من الجنس الآخر ، بل كانت حياته تمضي على وتيرة واحدة . يعود إلى منزله في منتصف الليل ، ويستيقظ مبكراً ، ويخرج ا لى عمله في وزارة الزراعة ، ثم يعود إلى منزله لينام بعض الوقت ، ثم يذهب إلى عيادته ويقضي فيها عدة ساعات ، ثم يأتي إلى قهوة محمد عبدالله ليسهر فيها حتى منتصف الليل . ولم يشاهد الدكتور الشيخ خارج هذه الدائرة أبداً ، ولم يترك القاهرة إلى غيرها من البلاد ، بالرغم من حبه للريف ، وشغفه بالبحر ، وكان يعشق نهر النيل ويعتبره مصدر الحياة في مصر . وكان حريصاً على أن يشرب من مياه النهر مباشرة طوال شهر طوبة . وكان يدعو كل من حوله إلى الشرب من النهر مباشرة خلال هذا الشهر ، فقد كانت هذه هي عادة المصريين القدامى في فجر التاريخ .



ولكن الدكتور الشيخ الذي كان أشبه بقطار سكة حديد يسلك طرقاً معروفة وخطوطاً مرسومة ، انقلبت حياته رأساً على عقب . فقد مات أحد أقربائه ، وآلت إليه ثروة طائلة . واختفى الدكتور الشيخ من قهوة عبدالله ، وبرر البعض سر اختفائه بأنه حزين ، وزعم البعض أنه مشغول بإحياء ما آل إليه من أموال طائلة وعقارات كثيرة وأراضي شاسعة . ولكن الدكتور الشيخ ظهر بعد عام وقد تغيرت أحواله .

فقد اقتنى سيارة وهجر البيت الذي كان يسكنه على أطراف الصحراء بالقرب من الهرم ، واستأجر شقة فاخرة على النيل الذي يعشقه ، وفتح أبواب بيته للأصدقاء .

وكانت دائرة أصدقائه قد إتسعت ولم تعد قاصرة على شلة قهوة عبدالله ، ودخلت في دائرة أصدقائه طوائف جديدة . ضباط شرطة كبار ، وأطباء مشهورون ، وفنانون ورجال أعمال . وذات مساء دعا ادباء قهوة عبدالله إلى وليمة في شقته ، ولم يكف عن الكلام طوال السهرة ، ولم يسمح لأحد حتى ولا لزكريا الحجاوي بأن ينطق حرفاً واحداً خلال السهرة ، ولكنه إضطر إلى ذلك حين أعلن للجميع عن رغبته في هجر العيادة والإستقالة من الوظيفة والتفرغ لمباشرة أعماله التي آلت إليه بالميراث .

ولكن زكريا الحجاوي الذي استحسن الفكرة ، إقترح عليه أن يؤسس داراً للنشر ، وراح زكريا يشرح ميزة دار النشر ، خصوصاً إذا كان صاحبها مثقفاً من طراز الدكتور الشيخ . وأضاف زكريا أن لديه كتاباً جديداً بعنوان بجماليون ، ووصف الكتاب بأنه إضافة جديدة إلى الأسطورة التي تناولها عدد من مشاهير الأدباء عبرالتاريخ . واقترح زكريا عدة كتب لأنور المعداوي ، وديوان شعر لمحمود حسن اسماعيل . واقترح أيضاً نشر قصة ألف ليلة وليلة الجديدة لعبدالرحمن الخميسي ، وأكد أن بداية من هذا النوع كفيلة بتدعيم دار النشر الجديدة ، وإفساح الطريق أمامها للنمو لتصبح دار نشر من نوع جديد ، وتكون في خدمة القراء والأدباء ، وخصوصاً وأن صاحب الدار غني بفضل الله ، ولا يحتاج الى مزيد . وسكت الدكتور الشيخ ولم يعلق على اقتراح زكريا الحجاوي . وانتهت السهرة بدون الوصول إلى حل أو تحديد الطريق الذي سيسلكه الدكتور الشيخ .

ولكن الذي حدث بعد ذلك أن صلة الدكتور انقطعت بشلة قهوة محمد عبدالله ، وصرنا نراه أحياناً عندما يمر ليلا على بقالة مخالي لشراء ما يلزمه للسهرات في منزله . وفي البداية كان يعرج على القهوة ويصافح أفراد الشلة ثم يعتذر لارتباطه بموعد ، ولكنه بعد ذلك كان يكتفي برفع يديه لتحيتنا من بعيد لبعيد .

وانقطعت صلتنا بالدكتور الشيخ بعد ذلك ، ولم نعد نسمع عنه إلا قصصاً حول سهراته التي يقيمها في منزله ، وعن اصدقائه الذين ازداد عددهم وارتفع قدرهم ، فشملت بعض أصحاب النفوذ ، وبعض المشاهير من الفنانين . ولكن أغلبها كان من باب الإشاعات ، وبعضها كان يتضمن مبالغات شديدة . ولكنا كنا نستمع اليها ونعلق عليها ، ثم ننساها بعد ذلك .

وذات مساء إنتحى بي زكريا الحجاوي ركناً وأسر إلي بأن الدكتور الشيخ يريدنا معاً لنسهر في منزله هذه الليلة . ثم إنصرف على ان ألقاه عند كوبري عباس في الحادية عشر مساء . واستقبلنا الدكتور الشيخ بترحاب شديد ، وفوجئت بأن منزله كان خالياً تماماً إلا منه . وظننت أن السهرة المعتادة لم تبدأ بعد . ولكنه حين جلس أبلغنا أنه قرر الإقلاع نهائياً عن السهر ، وهجرة شلة الأصدقاء الذين تعرف عليهم بعد الثراء المفاجئ الذي هبط عليه . وقال وفي صوته رنة اسى (لقد جربت الحياة وحيداً وفقيراً حتى بلغت الخمسين ، ثم جربت الغنى

زواج الدكتور ..!

والحياة تحت الأضواء وفي الضجيج وبين الأصدقاء عشر سنوات كاملة ، ولكني سئمت كل شيء الآن ، وأريد أن أعيش حياة مختلفة كبقية عباد الله ، فأتزوج وأقضي بقية عمري في جو عائلي حرمتني منه ظروف كانت أقوى مني ومن الجميع) .
وسأله زكريا الحجاوي عن سعيدة الحظ ، وهل وفق في العثور عليها ، أم أنه سيبدأ رحلة البحث عنها في المستقبل القريب .
واسترخى الدكتور في مقعده ، وراح يحكي عن السيدة التي تعلق بها قلبه . وهي سيدة في الثامنة والأربعين من عمرها ، ولكنها جميلة بالرغم من أن ابنتها الوحيدة تبلغ التاسعة والعشرين من العمر ، وأنه اتفق معها على الزواج والعيش معه في شقته هي وابنتها . وسألنا رأينا فيما هو مقدم عليه . ولما طال الصمت بيننا ، نظر الى زكريا الحجاوي وقال متوسلاً : (ما رأيك أنت يا أبو الزيك ؟ هل أتزوجها ؟ أم أتوقف عند هذا الحد ، خصوصاً وأن محسوبكم سيدخل غداً عامه الستين) . وقال زكريا الحجاوي في جد شديد ، سأسألك عشرة اسئلة ، وسيتوقف جوابي على أجوبتك لها . وأنصت الدكتور الشيخ الى أسئلة زكريا الحجاوي ، وراح زكريا الحجاوي يمطره بالأسئلة : —

— هل تشك في إخلاصها لك ؟
وكان الجواب . نعم ، انني الآن في الستين ، وهي كما قلت لك في الثامنة والأربعين ، وهي تبدو شابة وجميلة ، بينما أبدو أنا عكس ذلك ، شيخاً ومحطماً وعلى باب القبر . وقال زكريا :
— هل هناك إحتمال أن تدس لك السم في الطعام ؟
وكان الجواب : بالطبع ، إذا سنحت فرصة فستفعل ذلك بكل تأكيد .
— إذن هي تطمع في أموالك ؟
— بدون شك
— هل تتصور أنها قد تلجأ إلى محاولة الحصول على توقيعك على بعض الأوراق لكي تنفرد بالميراث كله بعد وفاتك ؟
— بالطبع ستحاول ذلك بلا جدال
— هل تشعر نحوها بحب ؟
— طبعاً
— وهل تشعر هي نحوك بحب ؟
— لا .. بكل تأكيد
وانقطع النقاش بين زكريا الحجاوي والدكتور الشيخ وساد الصمت طويلا .
وفجأة قطع زكريا الحجاوي الصمت وقال للدكتور الشيخ في كلمات قاطعة : إذن تزوجها على بركة الله وانقضت السهرة بعد ذلك في حوار متقطع حول بعض الأمور التافهة الشأن ، ثم حان الوقت للاستئذان بالانصراف ، فودعنا حتى الشارع وعندما مد يده ليصافح زكريا مودعاً ، قال له :
— يعني دا رأيك الأخير ؟
وقال زكريا :
— توكل على الله ومبروك مقدماً .

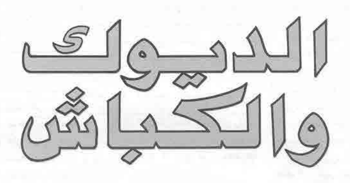
وعندما رحنا نقطع شارع النيل الهادئ الصامت المظلم أنا وزكريا الحجاوي سيراً على الأقدام صرخت في زكريا الحجاوي .
— ما هذا الذي فعلت ؟ تنصحه بالزواج من إمرأة يشك في إخلاصها ، ويعتقد أنها ستدس له السم في الطعام ، وأنها ستدبر له مكيدة للإستيلاء على ثروته ؟
وهز زكريا الحجاوي رأسه وقال في صوت خفيض :
— إنت أصلك غبي ..! إنه يريد رأينا في الزواج من إمرأة يؤمن أنها لا تحبه ويعتقد أنها ستقتله ، ومع ذلك يسألنا الرأي ، لقد قرر الدكتور الشيخ يا محمود أن يتزوج هذه السيدة منذ فترة طويلة ، ولم يكن سؤالنا إلا تحصيل حاصل ، ولم يكن حواره معنا إلا حواراً مع نفسه ، وسيتزوجها الدكتور الشيخ سواء رضينا أو رفضنا ، وهو على أية حال سيتزوجها بعد أيام .

وظننت أن زكريا الحجاوي يخرف ، وأسفت للدكتور الشيخ الذي تصور أنه سوف ينجو عندما تعلق بزكريا الحجاوي فاذا به يكتشف أنه تعلق بقشة . ولكن وهنا العجب .. تزوج الدكتور الشيخ تلك السيدة بعد أسبوعين من هذا اللقاء وسرعان ما ظهر في المقهى من جديد بعد شهر واحد من هذا الزواج ، ولكنه ظهر متكلماً على غير عادته الأولى . وكان يستخدم يديه أحيانا في النقاش وبدا أنه غير سعيد بالمرة في هذا الزواج !

وذات مساء ظهر في المقهى واصطحب زكريا الحجاوي معه ، وعلمنا بعد ذلك انهما ذهبا إلى المأذون وأنه طلق زوجته ، وعاد في المساء التالي ليخبرنا أنه إتفق معها على عدم مقاضاته نظير خمسين ألفاً من الجنيهات ، ثم أعلن للجميع أنه قرر التفرغ للحياة ، وأنه سيقوم بسياحة حول الأرض وسيزور بلاداً كثيرة ومدناً كان يسمع بها ، وأنه سيعيش للعيش فقط وليس لأي شيء سواه !

ولكن الدكتور الشيخ لم يبرح مكانه في شقته بالجيزة . فقد مات ذات مساء ، ولم يكتشف أحد موته إلا بعد ذلك بثلاثة أيام . وذهبنا خلفه نشيعه .. البائس الذي سلك كل الطرق ، ولعب على كل الإحتمالات ، ولم يحقق في النهاية إلا الخسارة ، وخرج من الحياة وحيداً وكما بدأ ، عاد ..!

محمود السعدني



قصة من عصر المماليك

بقلم : سعد مكاوي

زائر غير مقبول ولا محتفى به ، هذا الذى يسمونه الحب ، فى زمن لا تصفو فيه لحظة حتى تتسرب إليها الكآبة ويعكرها الأسى وتفقد كل بكارتها .

فى ساعة العصر الرائقة يسمح سطح بيت المقريزى لرغدة وخطيبها بمتابعة عمليات تطيير الحمام ، إذ يكشف إشراف عدد من الشبان الهواة على مناورات أسراب الحمام اللطيفة ، فوق بعض أسطح المنازل المجاورة فى حارة برجوان .

قالت رغدة وهى تتابع بنظرها سرباً منسقاً من الحمام يعود إلى عشته فى نظام :

ـ هواية لطيفة ، ألم تجربها يوماً ياهاشم ؟

قال حبيبها وهو يركز نظرته على وجهها الحسن :

ـ لم تكن لى أبداً هواية . أبى منذ الصبا الباكر شدنى معه إلى الحياة العملية . لكنى أفهم هؤلاء الشبان وأشعر أنهم يجدون فى تطيير الحمام متنفساً عن شعورهم بالقهر والضياع ورغبتهم فى الحرية .

بعد سكتة قصيرة قالت رغدة وهى تتصفح ذلك الوجه الرجولى الحبيب :

ـ هاشم ، هل تشعر مثلهم بالظلم فى هذا الزمن الذى نعيش فيه ؟

لمس أطراف شعرها الجميل بأطراف أصابعه :

ـ كيف أتفادى هذا الشعور يارغده ؟ .. ألم تسمعى أبوينا وهما يتكلمان عن فساد الزمن ؟ .. أحياناً أتساءل كيف يمكن أن يعيش الحب أو يزدهر أى أمل فى مثل هذا الزمن .. لا راحة ولا أمان ولا رجاء .. تفسخت الحياة وتهرأت ودب فى أرجائها العفن .. حتى المناصب العامة كالوزارة والقضاء وولاية الحسبة ونيابة الأقاليم تشترى بالرشوة .. وخيرات الأرض شحيحة منذ كثرت المغارم وتنوعت المظالم وهجر الفلاحون البؤساء الأرض وتحولوا فى المدن إلى متشردين ومتسولين وقطاع طرق .. وبعد المجد والانتعاش شاخ البلد ودمره الخلل فى شئون الادارة وفى تدبير المال وفى تفكك المجتمع .. ألسنا فى الحقيقة نعيش فى مأساة؟

قالت رغدة وكأن قلبها طائر يخفق بين جنبيها خوفاً على الحب :

ـ مأساة تقتل كل ما هو جميل فى هذه الحياة حتى الحب ؟

وقال هاشم :

ـ على الحب كمعقل من آخر معاقل الخير والجمال فى زماننا هذا أن تخوض بلا هوادة معركته الشرسة .

تأملت رغدة حمامة بيضاء ضلت عن سربها وحطت على سور السطح تلتقط انفاسها وتدرس موقفها :

ـ شاخ البلد ؟ .. ما هذه بأول مرة أسمع فيها هذه الكلمة التى توجع القلب .. سمعتها من أبيك الشيخ جابر وسمعتها من أبى يقولها وصوته يقطر ألماً كما لو كان يلقى مرثية .. إن الكلمة تلقى بظلها غير المريح على لحظات السعادة المختلسة كساعتنا هذه .. هيا بنا ننزل فننفض عنا عند نافورة الفسقية هذا الظل الكئيب .

قال حبيبها وصوته نضاح بالأسف :

سامحيني يارغدة ، فلقد أفسدت عليك بحديثى هذا لحظة طيبة .

قالت وهى تسبقه إلى الدرج الهابط :

ـ إن ما يؤلمنى من حالنا الذى تصوره كلماتك وكلمات جيل آبائنا هو علمى بأن كل كائن بعد أن يشيخ يموت .

* *

عام الحزن والأزمة . الطاعون رفع راياته فوق البلد وضرب الأحباب بالفراق وملأ البيوت بالمواجع والسواد . لم تكن تمر

الديوك والكباش

على ارتفاع العويل من أحد البيوت ساعات حتى تنتقل الفجيعة إلى بيت أخر . وعندما ظهر جابر الإسنوى فى مدخل بيت أحمد بن على المقريزى فى عمق حارة برجوان عصر الألم قلبه عندما رأى صديقه الباكى عند جثة ابنته رغدة التى لم تمهلها ضربة الوباء اكثر من ليلتين .

كانت جميلة الشباب فياضة المرح ، رغدة حبيبة أبيها ووحيدته ، وها هى فى ذلك الغروب الحزين تلحق بموكب الأموات الزاحف من أركان القاهرة إلى الجبانات تحت راية الطاعون .

انداحت دموع صديق العمر فى غور نفسه الصافى . صديقان جمعهما شرف النفس فى زمن فاسد . أحمد فى الأربعين وجابر يكبره بسنوات قليلة ، صعيدى من إسنا التى يولع أهلها بالعلم ويشتهرون بالفضل ، أما أحمد فقد أنجبه فى القاهرة والد بعلبكى الأصل ونشأ فى حارة برجوان نشأة قريبة من نشأة صاحبه ، على مناهل العلم ومناهج الدين ، ومارس نشاطه كاتباً بديوان الانشاء بالقلعة ، ثم قاضياً ، ثم خطيباً وإماماً بمساجد القاهرة الكبرى . ها هو الحزن الواحد الكبير يحتويهما فى لحظة صمت ، ها هو الشباب الجميل مسجى أمامهما ينتظره القبر .

عام استحكام الأزمة واستشراء الفساد . فى عودتهما من الجبانة شاهدا حوانيت منهوبة ، ونساء مخطوفات من الحمامات ،وقال أحمد لصاحبه :

ــ هؤلاء المماليك الذين يحكمون البلد ! .. لم يتركوا فيه نضرة ولا قيمة ولا طهارة ولا بكارة .. وليس فيهم إلا من هو أسوأ من قرد ، وألص من فأر ، وأفسد من ذئب !

وعاد الشيخان الصديقان إلى ليل كئيب فى عمق حارة برجوان ، وحديث يغص به القلب وتنكأ الجروح ويطول الأرق .. البلد ليست فى قبضة الطاعون وحده ، فان مع الطاعون الجهلاء واللصوص والمفسدين .. كان لابد أن يأتى الطاعون .. أن تموت رغدة .. أن يذوى كل شىء ويهون .

° °

يعرف الشيخان أحمد وجابر أن رئيس الدرك الذى قصداه فى عرينه اشترى منصبه بالرشوة ، وأنه لا أمان له ، وعجرفته لا تطاق :

ــ وماذا تريدان منى ان افعل لكما ؟

قال له الشيخ أحمد وهو يشير إلى صديقه :

ــ هذا الشيخ جابر الاسنوى من العلماء ، وابنه هاشم مدرس التاريخ الاسلامى اختفى منذ ليلة الأمس كما قال لك ، ونحن نعرف أن وراء اختفائه عصبة من الأشرار لا تجد من يردعها أو يقضى عليها ، تتزعمها بنت من بنات الهوى .

قال لهما فى غطرسة كانا يتوقعانها :

ــ لا تجد من يردعها ؟! .. وماذا أفعل أنا إذن فى هذا البلد؟ .. أصلى التراويح وأنام ملء جفونى ؟!

قال له الشيخ أحمد :

ــ إن بنات الهوى يملأن شوارع المدينة فى الليل ، وأعوانهن من اللصوص والقتلة ينتظرون الفرائس .

حدجه رئيس الدرك بنظرة شرسة :

ــ ومن تكون أنت حتى تعلمنى واجباتى ؟

ــ أنا لا أعلمك ولا أتدخل فى شغلك .. انا أبلغك باختفاء ولدنا هاشم وأطلب إليك ان تهتم بأمره قبل أن يقتل بأيدى الأشرار السفلة .

من تكون ؟

ــأنا الشيخ أحمد بن على المقريزى ، مدرس علم الحديث بالمدرسة المؤيدية .

ــ سنبحث عن الولد الفاسق ونخطركما بالنتيجة .

ــ بنت الهوى التى صادته تتخذ فرائسها على ناصية شارع النقشبندى الكبير .. تقف كل ليلة فى زينة مفضوحة ولا يتعرض لها رجالك لعلة لا تدريها .

ــ حذار ياشيخ أحمد ! .. هل تتهم رجالى الأمناء بالحصول على رشوة من العصابات المنحرفة ؟!

ــ إنى أصف لك المرأة التى سيقودنا عثورك عليها إن شاء الله إلى مصير ولدنا .. لقد رآها بعض أهل حارتنا وهى تسحبه إلى حيث يسلب ماله أو ينتهى أجله ..

ــ ومن زين له أن يتبعها غير فساد خلقه ؟ .. أليس عجيباً أن يكون هذا حال اولاد الكبار ؟!

ــ الفتى حزين على فقد خطيبته الغالية .. صادته بنت الهوى فى لحظة ضعف .. وتستطيع أن تسأل عنه لتعرف بنفسك أنه مثال العفة والطهارة ..

ــ صفها لى .

ــ يقولون إنها بيضاء طويلة القامة لا تلبس العصبة النسائية بل تتعمم فوق شعرها الأسود الغزير بعمامة مقلدة الرجال ، وأنت بحكم منصبك خير من يعرف استشراء الانحراف فى هذا الزمن ، وكأن الخمور والمخدرات لا تكفى لتدمير المساكين أهل البلد المسكين .

ــ أتعرفان اسمها ؟

تبادل الشيخان نظرة قبل أن يقول الشيخ جابر :

ــ سمعنا أنها تدعى صديقة الدرك !

عادت الشراسة تلمع فى عينى المملوك الرذل :

ــ ها أنتما تعودان إلى إهانة رجالى من كل شريف وعفيف وطاهر اليد !

زفر الشيخ جابر من الضيق :

ــ ياكبير الدرك !.. ابنى الوحيد فى خطر الموت ، ونحن ندعوك قبل أن يقتل فى قبو من أقبية الشر إلى أن تتحرك أنت ورجالك الطاهرون المنزهون عن الهوى ، وهذا حقنا عليك .

وقف كبير الدرك وهو يقول لهما فى برود :

ــ سنبحث عن الفاسق ابنكما ونخطركما بالنتيجة .

قال واحد من الأهالى الذين تجمعوا حول مناطحة بالكباش فى شارع النقشبندى :

ــ تأملوا سحنة الكبش الأحمر ، ألا تشبه وجه كبير الدرك ؟!

وعن بعد توقف الشيخان ليتأملا المشهد لحظة . صاحب الكبش الأحمر غليظ العنق مفتول الشارب ، يحرض حيوانه بصيحات وحشية ، بينما يناطحه الكبش الأبيض بضراوة تسيل دمه وتملأ وجه صاحبه النحيل الطويل الرابط الجأش بالرضى .

يقتتل الكبشان قتال الموت ، وفى كل لحظة يتأرجح الرهان عليهما بين المتفرجين الذين يشيع فى وجوههم ارتياح عجيب وتنطق فى عيونهم نشوة غامضة .

قال أحد الشيخين لصاحبه :

ــ كل ما هو مكبوت فى هذه الأنفس يجد متنفساً فى هذا الصراع الدموى ، ألا تشعر بهذا أنت أيضاً ؟

ورد الشيخ الآخر وقد غثيت نفسه من رؤية الدم :

ــ وهو عين ما يحدث فى المناقرة بالديوك ، تهدأ الأعصاب ويشعر كل واحد انه الديك الغالب .

ــ أو الكبش المنتصر .

تابع الشيخان سيرهما فى اتجاه المسجد ، دارا حول بركة السماح الزائطة ، حتى قبل أن يدخل الليل ، بالقوارب المزينة بسعف النخل والورود ومن تحمل من عشاق التسلية وجوقات العوالم والمغانى .

تتراشق القوارب بالنكت اللاذعة والقفشات الطائرة وسط طوفان من المرح العصبى تغلفه روح الفكاهة .

وقال الشيخ أحمد بن على المقريزى لصاحبه :

ــ إننى أنوى أن أنفق ما بقى لى من العمر فى كتابة تاريخ هذا الدهر الهازل

وهؤلاء الذين ترتبط روح الفكاهة عندهم بشعور اللامبالاة الغالب عليهم ، ولن تفوتنى وأنا أسجل تاريخهم فى كتابى هذه النقطة الدقيقة ..

قال الشيخ جابر وهما يقتربان من المسجد :

ــ هل اخترت لكتابك عنواناً ؟

ــ نعم .

ــ كنت أنوى أن أقترح عليك هذا العنوان : « الديوك والكباش ووهم الانتعاش » .

ــ قد أسميته : « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » .

ــ كعادتك ملت إلى الجد ، معك حق يا مقريزى .

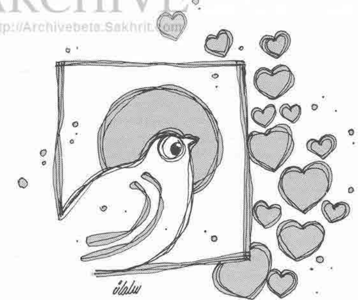
ــ علينا أن نركب الجد عندما يكون دهرنا هازلاً .. ولن أرحم فى كتابى من لا يستحق الرحمة ، أو أتملق حاكماً أو محكوماً .. لكن هدفى الأول هو تسجيل كل ما يتعلق بتاريخ هذه الأمة وجغرافيتها وعمرانها وأحوالها المالية والأدبية والفنية والاجتماعية ، كما علمنى أستاذى ابن خلدون .

على عتبات المسجد ظهر أمامهما فجأة غلام يلهث من عدو طويل :

ــ ياعمى الشيخ أحمد ! .. أنا منصور ابن أم منصور من حارة برجوان ! .. ارسلتنى أمى للبحث عنكما ، فقد ظهر هاشم فى الحارة ، ثم أغلق عليه باب حجرته خجلاً من أن يراه أحد بعد أن ذاعت حكايته .

فى تلك الليلة دخل الشيخان أحمد بن على المقريزى وجابر الإسنوى حارة برجوان ليجدا أهلها الطيبين الرحماء فى عيد سعيد بعودة هاشم من عالم الجريمة سالماً لم يفقد غير كيس نقوده ، لكن الشيخ أحمد همس فى أذن صاحبه الشيخ جابر بصوت اسيف :

ــ بل فقد ما هو أغلى وأصبح هو الآخر ابن زمانه تماماً ، فقد بكارته النفسية !



سعد مكاوى

بقلم: الدكتور علي الدين هلال

.. وسافر خير الدين من تونس مطروداً وكان سفره حزيناً تعطف عليه قلوب الناس ولايتيسر لهم وداعه ، لأن الباي أمر أن لا وداع ..



خيرالدين التونسي رجل الفكر والعمل

تسعون عاما تفصل بين تاريخين لكل منهما دلالته ومعناه . ففي شهر اغسطس من عام ١٨٧٨ رحل خيرالدين التونسي عن بلاده كسيف البال مكسور الفؤاد بعد أن طرده الباي محمد الصادق (الباي هو لقب حاكم تونس وقتذاك) من رئاسة الوزراء وفرض عليه العزلة والابتعاد عن الناس ، وكان بكلمات الاستاذ أحمد أمين في كتابه « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » : « سفراً حزيناً تعطف عليه قلوب الناس ولا يتيسر لهم وداعه لأن الباي أمر أن لا وداع » . وفي شهر مارس من عام ١٩٦٨ استقبلت تونس رفات رجلها آتياً من تركيا حيث كان قد توفى ودفن في مسجد ايوب .

وما بين التاريخين ظل اسم خيرالدين التونسي علماً من اعلام الفكر العربي يتردد في كل مجال يردد فيه معنى الاصلاح والتغيير في القرن التاسع عشر فقد كان في عهده « رائد الشبيبة التونسية وزعيمها » .

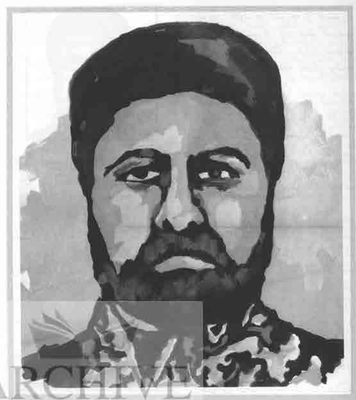
خيرالدين والطهطاوي

لم يكن خيرالدين تونسياً بالمولد ، فقد ولد في عام ١٨١٠ من اسرة شركسية في قرية بجبال القوقاز ومن هناك ارسل الى اسطنبول كأحد المماليك . ومنها انخرط في خدمة الباي أحمد باشا ، واتخذ من تونس مقراً وموطناً وقضى حياته في خدمتها في مجالات الفكر والعمل ، السياسة والدبلوماسية ، الاصلاح والتغيير . واذا كان رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) هو أبو الفكر الاجتماعي الحديث في مصر والمشرق العربي في القرن الماضي ، فإن خير الدين (١٨١٠ ــ ١٨٨٩) يحتل مكانة مماثلة بالنسبة للمغرب العربي . وكان خيرالدين على معرفة بآراء الطهطاوي وقرأ له كتاب « المرشد الأمين » وهناك بين الرجلين الكثير من جوانب التشابه .

فكلاهما جمع بين الفكر والممارسة فلم يكتف بدور المفكر أو الكاتب الذي يدعو الى الاصلاح بل تولى المناصب العلمية والتنفيذية ووضع افكاره موضع التنفيذ . وفي هذا المقام يتميز خيرالدين على الطهطاوي فقد تولى أعلى المناصب بما في ذلك رئاسة الوزارة . كان أول ما تولاه خيرالدين هو الاشراف على مكتب العلوم الحربية (وهو مكتب انشئ لترجمة الكتب الحديثة في الموضوعات الحربية) ، ثم اصبح أميرا للواء الخيالة في عام ١٨٤٩ ، ثم وزيراً للبحر في عام ١٨٥٧ « فأنشأ القوانين لحفظ التربة التونسية من التلاشي من أيدي المغتصبين والخروج من أيدي التونسيين بغير حق أو شرع » وأصلح ميناء حلق الوادي وأقام ترسانة لبناء السفن واصلاحها . وبعد فترة عزلة سياسية تولى ما يماثل في أيامنا منصب نائب رئيس الوزراء في عام ١٨٦٩ وكان لقبه الوزير المباشر ، ثم أصبح الوزير الأكبر (رئيس الوزراء) في عام ١٨٧٣ لمدة اربعة أعوام . كما قام خيرالدين بعدد من المهام الدبلوماسية في أوربا وبالمفاوضة باسم بلاده .

وكلاهما تعرف على أوربا والنهضة الأوربية بشكل مباشر من خلال معايشة المجتمعات الأوربية لفترة ممتدة من الزمان . فالطهطاوي قضى عدة أعوام في باريس ، وكذلك خيرالدين الذي قضى فيها اربعة اعوام (١٨٥٢ ــ ١٨٥٦) ممثلا لتونس في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية ، كما سافر الى المانيا وايطاليا والسويد وبروسيا وبلجيكا والدنمارك وهولندا .

وقد مكنته هذه الزيارات من الاقتراب من المجتمع الأوربي ومراقبته عن كثب ، ومتابعة حياته اليومية والتعرف على اسباب قوته وبواعث نهضته ، والمقارنة بين أوربا والبلاد الاسلامية ، والتأمل في كيف يمكن انتشال العالم الاسلامي من وهدة التخلف



خير الدين التونسي .. أحد أعلام الفكر العربي في القرن التاسع عشر.. بريشة سلمان المالكي

التي كان قد ركن اليها . وكما فعل الطهطاوي نجد خيرالدين يصف لأهله اوربا ومؤسساتها ونظمها شارحاً لهم ما انتهى إليه حالها من تقدم وازدهار .

وكلاهما جمع في تفكيره بين ثقافة الاسلام وفقهه وشريعته ، وبين الفكر السياسي والاجتماعي الحديث . لذلك نجد في كتابات خيرالدين اقتباسات واشارات من ابن خلدون وابن العربي والماوردي كما نجد من تيير ومونتسكيو وبليبيوس .

وكما تأثر الطهطاوي باستاذه الشيخ حسن العطار احد رواد الاصلاح الفكري في الأزهر الشريف ، تأثر خيرالدين بالعلامة التونسي الشيخ محمود قبادو الذي عمل معه في مقتبل حياته في مكتب العلوم الحربية . وعرف منه أهمية العلم والعلوم ، وأنه لا سبيل لنهضة البلاد الاسلامية إلا بتبني العلوم الحديثة والتعرف على تقدمها واقتباسها من الأوربيين . وضمن قبادو هذه الأفكار في مقدمة كتبها لترجمة كتاب فرنسي عن التعبئة العسكرية .

وواجه كلاهما نفس السؤال ونفس التحدي . السؤال هو لماذا تأخر الشرق وتقدم الغرب ؟ والتحدي هو كيف يدخل العالم الاسلامي العصر الحديث ، ويتسلح بعلمه ، ويشارك في نهضته دون أن يتنازل عن تعاليم الدين وقواعده ؟

وكلاهما اختلف مع الحكام لفترة وانعزل عن العمل العام . فالطهطاوي لم يجد لنفسه مكاناً في عهد عباس الأول ورحل الى السودان ناظراً لإحدى مدارسه . وفي حالة خيرالدين تكالب عليه اصحاب المصالح والغايات فعزل من منصبه الوزاري لأول مرة لمدة سبع سنوات (١٨٦٢ـ ١٨٦٩) وعلق على ذلك خيرالدين بقوله : « لقد حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والاخلاص فذهب كل مسعاي سدى ، ولم أشأ أن أخدع وطني الذي تبناني بتمسكي بالمناصب » .

وعندما تدهورت الأوضاع في تونس استدعاه الباي مرة أخرى للمشاركة في الحكم في عام ١٨٦٩ ثم عزله مرة أخرى في عام ١٨٧٧ ، وفرض عليه العزلة وعدم مخالطة الناس ، فسافر خيرالدين الى القسطنطينية في نفس العام وهناك عينه السلطان عبدالحميد في عام ١٨٧٨ وزيراً للدولة ثم اصبح « الصدر الأعظم » (رئيس الوزراء) في الدولة العثمانية ، وكما حدث في تونس سرعان ما انقلب عليه السلطان ولم يساير برامجه الاصلاحية فعزله بعد ثمانية شهور . وعاش خيرالدين في تركيا حتى مات في عام ١٨٨٩ .

اقوم المسالك

عاش خيرالدين في فترة شهد المجتمع التونسي فيها تغيرات هامة وحاسمة ، فقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية والسياسية ، وغرقت تونس بسبب اسراف حكامها في ديونها ، وكما حدث خلال عهد الخديوي اسماعيل في مصر ، فقد عجزت تونس عن تسديد قروضها ، وأعلن افلاسها ، ثم اقترحت الدول الأوربية انشاء لجنة دولية للاشراف على مالية تونس تقوم بتوحيد الدين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التي خصصت لتسديد الدين .

شهد خيرالدين هذه التطورات عن قرب كمسئول ، وسعى للاصلاح بقدر الامكان ، وحاول أن يحافظ على استقلال بلاده في مواجهة اطماع الدول الأوربية ، وكان يقارن بين ذلك وبين ما شاهده في اوربا . لذلك عندما عزل من منصب الوزارة في المرة الأولى عكف على الكتابة واخرج لنا كتاباً بعنوان « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي يعد أحد مفاخر الفكر العربي في القرن التاسع عشر . صدر الكتاب في عام ١٨٦٧ وفي العام التالي صدرت ترجمة

فرنسية بعنوان الاصلاحات الضرورية للدولة الاسلامية . واعيد طبع مقدمة الكتاب باللغة العربية في القسطنطينية في عام ١٨٧٦ ، ثم بالتركية في عام ١٨٧٨ ، اما الترجمة الانجليزية فقد صدرت في عام ١٩٦٧ .

وعلى نهج ابن خلدون الذي لخص افكاره الرئيسية في « المقدمة » فان أقوم المسالك يتكون من مقدمة يشرح فيها خيرالدين آراءه في أسباب تأخر الدول الاسلامية ووسائل تحقيق نهضتها ثم يعرض نظمها السياسية والاجتماعية وقوتها العسكرية وطرق تنظيم ماليتها ، فيعرض لاوضاع الدولة العثمانية وفرنسا وانجلترا وروسيا والمانيا وايطاليا واسبانيا والبرتغال وهولندا والدانمارك وبلجيكا وسويسرا واليونان فكان كتابه أقرب ما يكون الى عرض مقارن لاوضاع البلاد الأوربية حتى يتسنى للقارئ العربي أن يقارن بين هذه البلاد بعضها وبعض ويفاضل بين النظم والمؤسسات الموجودة في هذه البلاد . والأهم من ذلك كان يهدف الى أن يجعل قارئه يقارن بين هذه الأوضاع والنظم وما هو قائم في البلاد الاسلامية .

العدالة والحرية والعلم

يحدد خيرالدين سببين لتأليف كتابه : احدهما اغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الأمة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها « وثانيها » تحذير ذوي الغفلة من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحميهم من سيرة الغير الموافقة لشرعنا « بعبارة أخرى فقد كان له هدف مزدوج : أن يدعو رجال السياسة والعلم في البلاد الاسلامية الى تبني اسباب النهضة والتقدم على غرار ما فعلت أوربا ، وأن يحذر عوام المسلمين من الاستمرار في رفض أسباب التقدم التي تتفق مع الدين بدعوى أنها صادرة عن ابناء الديانات الأخرى .

طرح خيرالدين سؤالاً جوهرياً : ما هو



خيرالدين التونسي

مصدر القوة العسكرية والاقتصادية ؟

وأجاب بأن القوة المادية ــ العسكرية والاقتصادية ــ تقوم على التعليم ، وهو بدوره يستند الى المؤسسات التربوية والتعليمية ، وهذه لا تزدهر بدون المؤسسات السياسية التي تقوم على العدالة والحرية . فالحرية تطلق امكانات الأفراد وتدفعهم الى العمل لأنهم يضمنون أن عائد عملهم سوف يعود لهم . والحرية هي التي توجد الجو الملائم لانتعاش الفكر وتجديد العقل وانتشار المعرفة والجامعات والمكتبات .

وحدد خيرالدين مفهومه للحرية في أنها الحرية الشخصية والحرية السياسية . اما الحرية الشخصية فتعني « اطلاق التصرف للانسان في نفسه وكسبه ، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ، ومساواته لأبناء جنسه في الحقوق والواجبات » ، وأما الحرية السياسية فتعني « مشاركة المواطنين في أمور الحكم وصنع القوانين » .

ويعود خيرالدين الى التاريخ لايضاح أن العدل والحرية كانا أساس الدولة الاسلامية ، وبهما انصلحت أحوال أوربا في العصر الحديث ويقول : « عدل وحرية يتبعهما عمران .. وظلم واستبداد يتبعهما خراب » ، ولكي يضمن المجتمع استمرار العدل والحرية يجب أن ينشئ المؤسسات والنظم ويصدر القوانين التي تضمن ذلك ، وطريق ذلك هو الشورى والمجالس النيابية . وأن سلطة الحاكم لابد أن تكون مقيدة بأمرين : الأول هو الشريعة أو الدستور ، والثاني هو المشورة . وأن النظم السياسية الأوربية تقوم على ثلاثة : مبادئ المسئولية الوزارية والحد من سلطة الحاكم بواسطة البرلمان وحرية الصحافة .

والعدالة والحرية لا يمكن استمرارها بدون العلم . فالعلم لا يتعارض مع الشريعة بل أنه يتسق مع روحها وجوهرها . ويناقش خيرالدين الرأي الذي ساد بين المسلمين بأن كل ما هو صادر عن أوربا حرام لا يجوز اقتباسه أو تبنيه لأنه مخالف للشريعة .

ويقول خيرالدين إن الاسلام لا يمانع من النظر لما عند الأمم الأخرى ، وأن الحق لا يعرف بالناس ولكن بالحق يعرف الناس . وأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيثما وجدها ، وأن المسلمين الأوائل اخذوا من الأقوام المجاورة ما يدعم الدولة الاسلامية ويقوي شوكتها ولم يترددوا في اقتباس ما يفيدهم من مؤسسات أو نظم ، حيثما كان وممن كان .

وينتقد اولئك الذين لا يريدون أن يأخذوا من المدنية الغربية جانبها المفيد وهو تنظيماتها ومؤسساتها العلمية والتعليمية والسياسية ، بينما اخذوا منها الملابس والأثاث والمخترعات وأسباب الترف . اي أنهم بعبارة أخرى يريدون أن ينتفعوا ويستهلكوا نتاج هذه المدنية دون أن يشاركوا في العملية العقلية والعلمية التي أدت اليها .

شروط الاصلاح

علمت الخبرة والممارسة الواقعية خيرالدين أن الاصلاح ليس بالأمر اليسير ، وأن هناك قوى عاتية تعارضه وتضع العراقيل أمامه ، وأن للاصلاح شروطاً ومقومات .

أول هذه المعوقات : هو النفوذ الأجنبي وتدخل الدول الأوربية في شئون البلاد الاسلامية للحيلولة دون نهضتها وادخال وسائل الاصلاح فيها ، وللسيطرة عليها واستغلالها . فانتقد الامتيازات الأجنبية التي يتمتع بها رعايا الدول الأجنبية وأنه

تم التوسع في هذه الامتيازات دون مبرر .

وثانيها : اتفاق العلماء مع رجال السياسة ، فيقول خيرالدين إن أحد عوائق تقدم العالم الاسلامي أن هناك « رجال دين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ، ورجال سياسة يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ويريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع الى الدين » . فهناك اصول للدين يجب أن تراعى ، وهناك أمور جديدة لم ينص عليها تقتضيها مصالح الأمة ينبغي أن تقاس بمعيار المصلحة والمنفعة العامة ويعمل فيها العقل .

وثالثها : صلاح الحاكم والتزامه بالشورى ، فالمجتمع المسلم لا ينصلح الا بالنظام الشورى الذي يجعل الحاكم مسئولاً . ويربط خيرالدين بين ذلك وضرورة أن يكون الاصلاح ملائماً لأحوال المجتمع ومسايراً لظروفه فيقول : « فالوطن في حاجة الى أبسط قواعد الادارة . وانه لمن خطل الرأي أن تقام له مؤسسات وهو على تلك الحال . فيها تفخيم وفيها أبهة وليس لها جدوى . فما هي جدوى المجلس الأكبر . وما هي جدوى المحاكم العليا . وملك البلاد غير صالح لانه غير عادل » .

اصلاحات خيرالدين

عندما تولى خيرالدين منصب الوزير الأول في تونس حاول تطبيق افكاره الاصلاحية ، فنظم عملية جمع الضرائب ، وألغى الضرائب الجائرة وأوقف الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة ، ونظم الجمارك ، ووضع ميزانية الدولة بشكل دقيق وأنشأ السجلات للصادر والوارد لضبط مراسلات الدولة ، وحدد مخصصات ثابتة للقصر وللحاكم ، ونظم الأوقاف ، ودقق في اختيار موظفي الحكومة ومراعاة الأمانة فيهم ، وبدأ في اعادة تنظيم القضاء .

خارجياً ــ سعى خيرالدين الى توثيق العلاقة مع الدولة العثمانية وتأكيد صلة تونس بها كإيالة عثمانية وذلك لوقف اطماع ايطاليا وفرنسا في تونس .

ولكن جهاد خيرالدين الأكبر كان في مجال نشر العلم والعلوم وتمثل ذلك في أربعة مجالات رئيسية :

أولها : انشاء المدرسة الصادقية في عام ١٨٧٤ بواسطة لجنة رأسها خيرالدين وكان الهدف هو اقامة مدرسة حديثة تهتم بتدريس العلوم الطبيعية والرياضيات والاجتماعيات وكذلك بتدريس اللغات التركية والايطالية والفرنسية الى جانب اللغة العربية بالطبع .

وثانيها : تنظيم واحياء جامع الزيتونة الذي كان المعهد العلمي الرئيسي في تونس وقتذاك ، فقام بتحسين مرتبات موظفيه والعاملين فيه ، وتنظيم الدرجات والشهادات العلمية ، وادخال المواد الحديثة كالرياضيات والطبيعة في مقرراته .

وثالثها : تنظيم المكتبة العامة في تونس بعد طول اهمال ، فتم تجديدها وتنظيم فهارسها ، وتزويدها بالكتب الحديثة في المجالات العلمية المختلفة والمجالات المتعددة .

ورابعها : تشجيع الصحافة والطباعة والنشر ، فتم دعم المطبعة بنشر عدد من الكتب الأدبية والتاريخية وكلف الشيخ المصري حمزة فتح الله الاسكندراني بعملية تصحيح الكتب ، وتم اصدار جريدة الرائد بشكل منتظم اسبوعياً ، وابتداء من عام ١٨٧٤ اصدرت المطبعة تقويماً سنوياً . وكما فعل الطهطاوي في الوقائع الرسمية قام خيرالدين بتطوير جريدة الرائد فأصبحت تضم قسماً غير رسمي يتضمن الأخبار والتعليقات وأخبار الأقطار الاسلامية الأخرى ، ومقالات مترجمة في موضوعات التاريخ والعلوم والجغرافيا والاجتماع كما نشرت بعض المقالات عن الأوضاع في تونس . وكانت هذه المقالات تعد بايحاء من خيرالدين وأحياناً بتحريره .

نهاية حقبة

وتكالب على خيرالدين كل أعداء الاصلاح ، الباي لم يعجبه حزم خيرالدين وعدالته وتحديده لمخصصات الدولة والوزراء السابقون وأعوانهم كرهوا محاربته للفساد في الجهاز الحكومي ، والدول الأجنبية الطامعة في تونس رأت في مشاريعه واصلاحاته معوقاً لمخططاتهم .

وكأي رجل سياسة ، كانت لخير الدين اخطاء ومثالب استثمرها اعداؤه ، أبرزها انه أعطى امتيازاً لشركة فرنسية لمد خط سكة حديد بين تونس والجزائر في الوقت الذي كان يعرف فيه اطماع فرنسا في تونس بعد احتلالها للجزائر ، وأنه عندما جاء للوزارة في المرة الثانية وجد الدستور (عهد الأمان) وقوانين الشورى معطلة ولم يعمل على اعادتها .

ويقول خيرالدين : « آل أمري إلى الاضطرار من الخروج (من الوزارة) وأن ترتب عليه ما حصل لنا من الصعوبات بمنع الناس من مخالطتنا ، ولم اتحصل على الحقوق البشرية الواجبة شرعاً وطبعاً ، مع أن ذلك وقع في حق رجل تقلب في سائر رياسات الحكومة وحصل على يده مصالح حسب الوسع ويسوغ له أن يقول حكاية للواقع أنه باعانة الله وحمايته حمى وحده مدة وزارته جميع السكان من الظلم والتعدي عليهم » .

وبعد سفره تفرقت مجموعة الرجال الذين شكلوا قوة الدفع لحركة الاصلاح والذين التفوا حوله . فالشيخ محمد بيرم مؤلف « صفوة الاعتبار » (٥ أجزاء في تاريخ تونس وعلاقتها بفرنسا وبالدولة العثمانية) فارق البلاد ونقل أهله الى مصر ، والوزير حسين سافر الى ايطاليا ، والوزير رستم سافر الى مصر وتركيا ثم مات في الاسكندرية ، ومدير المدرسة الصادقية محمد العربي زروق رحل الى تركيا ومات بالمدينة المنورة . أما محمد السنوسي مؤلف مسامرات الظريف بحسن التعريف (تراجم لمشاهير التونسيين) والرحلة الحجازية(٣ اجزاء في وصف ايطاليا وتركيا والحجاز وسوريا ومالطة وكذا مجموعة تراجم) فقد انقطع عن العمل العام واحتجب .

وهكذا طويت صفحة أحد رجال الاصلاح في القرن التاسع عشر .

علي الدين هلال

أصيلة

عرس الألوان.. في مهرجان

تجربة فنية عالمية في مدينة مغربية

ينعقد كل عام مهرجان فني كبير في مدينة « أصيلة » المغربية ، وهذه رسالة خاصة بالدوحة عن هذا المهرجان العربي العالمي الكبير :

بقلم : شربل داغر



هكذا بدأ الفنانون في مدينة أصيلة في انجاز جدارياتهم التي تزهو بعرس الألوان

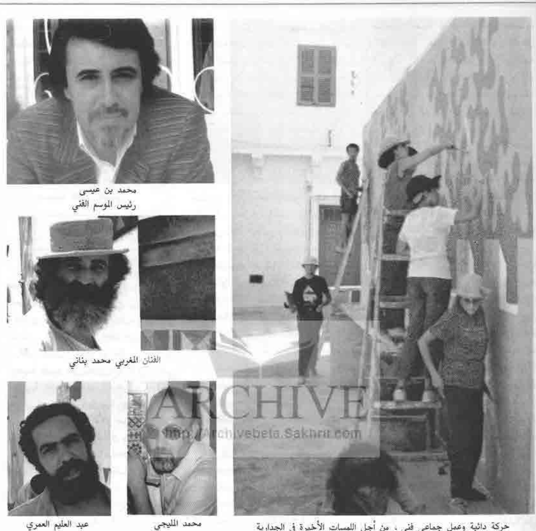
الفنانة مليكة أكرناي وبداية (جدارية) جديدة

أصيلة تكشط جلد جدرانها من جديد . تتغادى المدينة المغربية الصغيرة (٤٠ كم عن طنجة) أمام زرقة المحيط الأطلسي . تتغادى بجدرانيات ، تتجاوب ألوانها بين زرقة السماء وبياض البيوت الواطئة . من جديد تدفع أصيلة أشكالها الملونة كعلامة ، كبيرة تلوح بها في سماء العالم الثالث الكالحة والمعتمة . من جديد تزهو بعرس الألوان ، وتوقع نشيدها اللوني أمام جوقة البحر .

أصيلة باتت معروفة بألوان جدرانها واشاراتها التشكيلية . جدرانياتها هي بطاقة دخولها الى العالم ، الى ضميره ، الى المشهد البصري . أصيلة تخرج من العتمة ، من عتمة الجهل والبؤس ، الى وضوح النهار ، الى رواق الفن . أصيلة تقتحم مشهدنا الثقافي كتجربة نادرة في العالم الثالث ، هذا العالم الذي تشرب بالأمية والجهل الفني والفقر الثقافي . أصيلة تقتحم عيوننا وشوارعها رواق مفتوح ، تبادر الجدارية الفنية فيه مرمى العين يومياً .

* * *

لم يعد المشهد غريباً . لم يعد يستوقف السابحين والسابحات المتجهين والمتجهات صوب البحر ، أثناء مرورهم بالمدينة القديمة ، بالورشة الفنية . كان الفنانون يصيغون الجدران وسط لا مبالاة الجمهور . ا بناء أصيلة عرفوا مثل هذا المشهد قبل سبع سنوات ، ما عادوا يدهشون لهذا الحضور الفني غير الاعتيادي في حياتهم اليومية . الفنانون لا يضطرون هذه المرة ، قبل مباشرة الجدارية أو أثناء العمل فيها ، أن يستوقفوا المارة ويستدعوهم الى حوارات مباشرة حول « اقحام » العمل الفني في البيئة . بات المشهد عادياً ، لا يستنفر وسائل الاعلام ، ولا فضولية المارة . أصيلة



محمد بن عيسى
رئيس الموسم الفني

الفنان المغربي محمد بناني

عبد العليم العمري

محمد المليجي

حركة دائبة وعمل جماعي فني ، من أجل اللمسات الأخيرة في الجدارية

اعتادت على جدران ملونة ومصبوغة ، وفارقت جدران البؤس والاهمال .

هل كانت فعلا جدران البؤس والاهمال ؟ في الأمر مبالغة أكيدة ، فجدران المغرب قبل هذه التجربة كانت أشبه بقماشة بيضاء مشدودة ومرفوعة فوق حمالة البيوت ، تنتظر الأشكال والألوان . ذلك أن جدران أصيلة ، مثل جدران العديد من مدن المغرب وقراه ، لا تعرف غير اللون الأبيض لجدرانها ، والأزرق (أو الأخضر الفاتح) لنوافذها وبوابات بيوتها ، وتتناغم في ذلك مع زرقة المحيط وبياضه ، مع زرقة السماء وبياضها ، مثل العديد من المدن المتوسطية . إن تجربة أصيلة ، رغم أنها لم تتكرر في أية مدينة مغربية أخرى ، ليست غريبة أبداً عن المشهد اللوني في البيئة المغربية ، ولا عن محاولات الفنانين المغاربة ، منذ منتصف الستينات ، لإحداث الوعي الجمالي والتشكيلي في الأوساط المدينية بأعمال فنية ذات طابع علني ، ومحمل بآلات الرمزية والاجتماعية .

أصيلة تجربة فنية ، وثمرة أخرى في مسيرة فنية تحاول الكسر من تقاليد الفن الغربي المستجلبة ، وتحاول ، أيضاً تعميم الثقافة الفنية أو تعويد الناس عليها باستحداث وانتحال ... الصدمة الجمالية .

أصيلة في تجربتها الجدارية الثانية لم تحدث صدمة ، ذلك أن سكان المدينة باتوا يتذوقون آثار هذا الحضور الفني اللطيف المجاور لسكناهم بدل أن ينبهروا به بين الخوف (أي الارتياب) والاعجاب (أي الدهشة اللاواعية) . كان على الفنانين المغاربة المشاركين في التجربة الثانية أن يتعرفوا على التجربة الأولى لصباغة جدران المدينة كمن يتعرف على تجربة بعيدة

عنه ، ذلك أنهم لم يعرفوا الحيوية وحرارة المناقشات بين الفنانين أنفسهم ومع سكان المدينة كما عرفوها فنانو التجربة الأولى . وقد تمكن الفنانون من اجراء هذه المقارنة حين تفرجوا على الفيلم الوثائقي الذي أعده الفنان محمد بن عيسى ، رئيس الهيئة المنظمة لموسم أصيلة ، عن التجربة الجدارية الأولى ، فقد أتى الفيلم وثائقياً جداً ، يؤرخ عن فترة مضت ...

أصيلة اعتادت على اللون ، والجدارية باتت مشهدها اللوني اليومي .

أبطال التجربة الجديدة

عشرة فنانين مغاربة في التجربة الجديدة : محمد بناني ، عبدالعليم العمري ،عبدالقادر العرج ، مليكة اكزناي ، عبدالكريم الغطاس ، الشعيبية طلال ، عزيز سيد ، عبدالحي الملاخ ، ابراهيم حنين ، كمال بو طالب . جدارية وحيدة بقيت من الجداريات الأولى ، هي جدارية الفنان محمد المليحي ، بعد أن جرى تجديد صبغها مرة أخرى . وبقي ايضاً من الجداريات الأولى جزء من جدارية بلكاهية ، وهو جزء قائم فوق سطح البيت ، و « مندمج » جداً في المساحة التي يشغرها ، بحيث ما جرت ازالته ، مثلما أزيلت سائر الجداريات القديمة .

ولكن لماذا أزيلت الجداريات السابقة ؟ أما كان من الممكن الابقاء عليها (بعد تجديد صبغها) ، واضافة جداريات جديدة اليها ؟

كان يمكننا طبعاً الابقاء على عدد معين من الجداريات السابقة ، لكننا أردنا اشراك عدد واسع من الفنانين المغاربة في هذه التجربة . الفنانون المغاربة الذين شاركوا في التجربة الثانية هم غير فناني التجربة الأولى . من جهة ثانية ، طرحنا على أنفسنا التساؤل التالي : لماذا لا نتعامل مع جدار أزقة المدينة مثلما نتعامل مع جدار صالة العرض التي تستبدل لوحاتها معرضاً بعد معرض ؟ السؤال مشروع ، خاصة اذا لاحظنا الأمر التالي ، وهو أن الجداريات السابقة ، مثل الجداريات الحالية ، لاترتبط عضوياً بالجدار الذي يحملها الا من ناحية تشكيلية وتصميمية ، أي أنه لاتوجد علاقات من المعاني تربط بين معنى الجدارية والجدار الذي تنهض عليه ، بحيث يصعب علينا إزالة الجدارية .

هذا ما شرحه الفنان محمد المليحي ، المشرف على هذه التجربة .

وإشارة المليحي الأخيرة تفيد في شرح القصد : الجدارية ، هنا ، لا تخلد ذكرى عسكرية ، أو بطلا شعبياً ، أو تقليداً طقوسياً ، بحيث يصعب ازالتها ، حتى لايختل نظام المعاني والقيم عند الجماعة الساكنة قرب هذه الجدارية ، أو التي تقصدها لهذا الغرض ، سكان أصيلة قد « ضجروا » دون شك من الجداريات السابقة ، لفرط ما شاهدوها ، دون أن يستطيعوا تبديلاً لها . في البيت نستطيع تبديل مكان اللوحة ، فنضعها في الصالون بدل غرفة النوم ، أو نستريح من الحاحها علينا بحيث نودعها في مكان أمين . لكننا لا نستطيع تبديل الجدارية أبداً ...

نستطيع ازالتها فقط ، نستطيع رسم غيرها فقط ، وهذا ما فعله الفنانون المغاربة العشرة أثناء انعقاد موسم أصيلة الثقافي السابع بين ١٥ تموز (يوليو) و ١٥ آب (أغسطس) ١٩٨٤ .

أزيلت الجداريات القديمة وجرى غالباً رسم الجداريات الجديدة فوقها ، ذلك أن هذه الجدران « استراتيجية » في توزع المدينة الداخلي ، إذ تمثل مواقع حساسة للنظر . هذا يصح في جداريات بناني والعمري والشعيبية والملاخ وحنين ، لانها تقع في نهاية شارع بحيث تثبت أمام عيون المارة أكثر مما لوكانت في أزقة المدينة الملتوية (وما أكثر التواء الأزقة الجميل في أصيلة !) حيث لا نستطيع أن نحاذيها أو أن نواجهها إلا لثوان معدودة جداً ، وفي وضعيات غير طبيعية جداً للناظر ، حيث يقصد الناظر الرؤية تقصداً .

من جديد بدأ بياض جدران أصيلة مثل بياض القماشة المشدودة للمصور الزيتي ، أو مثل بياض الورقة للرسام . من جديد استعدت أصيلة لمغامرة فنية .. مضمونة النتائج سلفاً . فما واجهه الفنانون الأوائل (الرواد إذا جاز التعبير) لم يواجهه الفنانون اللاحقون . في التجربة الأولى شارك الصف الأول من الفنانين المغاربة (محمد المليحي ، فريد بلكاهية ، الابيض ميلود ، عبدالله الحريري ، محمد الحميدي ، محمد شبعة ، موسى الزكاني ، الحسين ميلودي ، سعيد الحسائي ، محمد القاسمي وعبدالرحمن رحول ... وهم أعضاء « الجمعية المغربية للفنون التشكيلية » ، وبمبادرة من رئيسها (محمد المليحي) . في التجربة الثانية فتح الموسم المجال للتجارب المغربية الشابة (العمري ، العرج ، اكزناي ، عزيز ، حنين ...) . ثلاثة فنانين معروفين في التجربة الثانية : الشعيبية طلال ، محمد بناني وعبدالحي الملاخ .

فماذا أنتج الفنانون الشباب أو الجدد بعد جيل « الرواد » ؟

القيمة الفنية للجدارية

ولكن كيف نحاكم الجداريات ؟ بأية مقاييس فنية ؟ أتلك التي تصلح للوحة أو للمحفورة أو للتصميم الفني ؟ من يحدد القيمة الفنية للجدارية طالما أنها لا تخضع ابداً للقيمة المالية — التجارية ؟ الفنان المكسيكي العالمي سيكيروس يعطينا بجملة بسيطة ، مشحونة بالمعاني ، الاجابة على أسئلتنا هذه ، وهو المعروف بطول باعه في فن الجداريات : « يصور فنان الحمالة المسندية (Chevalet) مثل المتحدث ، أما الفنان الجداري فعليه أن يخلف رموزاً مقروءة ، عن بعد ، ومن الجميع » . هذا القول لا يجيب بشكل حاسم على سائر أسئلتنا ، لكننا انطلاقاً منه وباعتماد الطريقة الاستنتاجية ، نستطيع أن نتوصل الى تبيان الأجوبة المختلفة ، التي يحملها هذا القول الفني في مضمونه .

ماذا يفيد هذا القول الفني ؟

يؤكد ، أولا ، على « ابتكار الرموز » . ولكن كيف يمكن اشتراط « الابتكار » اذا



جدارية كمال بو طالب

كانت الرموز لا تصير رموزاً إلا بعد أن يكون قد انقضى عليها ردح من الزمن ، وبعد أن يكون قد أقر الناس بها كرموز ؟ الفنان القدير والمبدع يستطيع إزالة مثل هذا الالتباس .فالفنان « مبتكر أشكال » ، أي ما يمكن أن يصير رموزاً ، في حال توفقه في فرضه أشكاله الفنية المبتكرة وتعميمها على الجماعة . ولكن كيف يتوصل الفنان الى ذلك ؟ ماذا عليه أن يفعل لكي ينتج مثل هذه الرموز ؟ ما هي العوامل التي يجب أن توجهه في انتاج الجدارية ، وهل هي مخالفة للعوامل والاشتراطات التي توجهه في انتاج اللوحة الزيتية أو المحفورة أو الرسم ؟

في الجدارية ، بعكس اللوحة أو المحفورة أو الرسم ، يتوجه الفنان مباشرة الى الجماعة ، أي أن عليه ، بالتالي ، أن ينتج أشكالاً فنية تمتاز بصفتين متلازمتين : أن تكون « مقروءة » من الجميع (أي أن تمتاز بمعنى قوي ، مركز وبسيط بحيث يسهل للجميع التعاطي والتواصل معه ، أي « قراءته ») ، وأن تكون هذه الأشكال الفنية مقروءة « عن بعد » (أي أن تكون ذات شكل فني بسيط بحيث تسهل رؤيته من مسافة بعيدة) . الفنان سيكيروس يركز إذن على عنصرين في الجدارية : الإيحاء المركز (أي قابلية المعنى في أن يصير رمزاً شائعاً) وبساطة التركيب كشكل . بهاتين الصفتين تبتعد الجدارية تماماً عن الاشتراطات التي تناسب اللوحة أو المحفورة أو الرسم ، وبهاتين الصفتين تقترب الجدارية من الملصق الفني (بساطة التركيب وقوة التعبير المركزة) .

لكن هذا القول الفني لا يجيبنا ، بل يغيب عنا أسئلة أخرى ملازمة لفن الجدارية : كيف تندرج الجدارية في البيئة . لجهة العلاقة بين أشكال وألوان وأحجام الجدارية وأشكال وألوان وأحجام المحيط البيئوي ؟ هل يجب أن تقوم هذه العلاقة على التماثل والتناغم ، أم على التعاكس والتنافر ؟ كيف يراعي الفنان الجداري المسألة التالية : الحاح الجدارية الثابت واليومي على عين المتفرج ــ العابر ؟ والى أي نوع من التواصل يعمل الفنان ؟

إن هذه الأسئلة الجديدة تبقى دون اجابات حاسمة ، ذلك أننا نعتقد بأنها من نصيب الفنان ، ومن حقه في الاختيار والتوجهات الفنية .

طبعاً نحن نستسيغ أكثر الفنان الذي يتجه نحو اقامة تناغم وتكامل بين الجدارية والبيئة المحيطة بها ، لكننا لا نستطيع بالمقابل أن نمنع الفنان من أن يحدث كسراً وفارقاً بين ما اعتادت عليه عيوننا في بيئة ما وبين ما يقترحه علينا في جداريته من أشكال وألوان وأحجام . طبعاً نحن نستسيغ أكثر الفنان الذي يثير فينا عبر جداريته مشاعر العبث والمرح والفرح ، خاصة وأننا سنحاذي ونواجه هذه الجدارية يومياً ، لكننا لا نستطيع بالمقابل (أو بالأحرى يجب أن نمتنع عن ذلك) أن نمنع الفنان من التعبير عن رؤيته التشاؤمية أو الحزينة .

هؤلاء الفنانون وأعمالهم

نتوصل إذن ، الى تعيين أربعة مقاييس فنية ، سنتناول على أساسها الجداريات واحدة واحدة ، وهي المقاييس التالية : بساطة التركيب ، قوة الإيحاء المركزة ، اندراج الجدارية في البيئة ، الهزة الجمالية المنشودة . سنتناول الجداريات تبعاً لنمط توزعها في المدينةبدءاً من مدخلها البحري :

• جدارية محمد بناني : تمتاز الجدارية ببساطة في التركيب ، ذلك أن شكلها الفني لا يقوم على رسم ذي تكوين معقد ، وهو شكل فني تجريدي (دون أية علامات تشخيصية) مستقى من هندسية الزخرفة العربية الإسلامية . يقوم الشكل الفني على حركتين خطيتين تتوزع انطلاقاً منهما المساحات المشغولة بوحدات زخرفية هندسية عديدة . هذا التركيب نجده أساساً في زيتيات بناني منذ عدة سنوات ، وهو « ينقله » هنا الى الجدار . التركيب محكم البناء تتوزع فيه المساحات بشكل جميل ، لكنه لا يتركز حول علاقة شكلية مركزية تستطيع أن تصير رمزاً ما في أحد الأيام . أما قوة الإيحاء في هذه الجدارية فهي لا تقوم على شكل ــ رمز ، يتركز فيه المعنى ، بل على « المناخ » الدافئ والحنون الذي تشيعه الألوان ، فهي ألوان لا حارة ولا باردة ، لا ساطعة ولا قاتمة . إلا أن ما تتميز به هذه الجدارية عن غيرها ، هو أنها تعمد الى اندماج « عضوي » في البيئة المحيطة بها . فالشكل الفني يمتد لكي يشتبك مع باب أحد البيوت ، فيلتف من جدار الى آخر . إلى هذا فان الفنان بناني يعمد الى اقتباس بعض الوحدات الزخرفية الماثلة في الجدران والأبنية المحيطة بجداريته ويوظفها فنياً . جداريته تستدرجنا بنعومة الى تأملها ، إلى الإبحار في تدرجات البني أو الأزرق المعتم . حضورها لطيف ، مندمج ، غير نافر ، لا يرعبنا ولا يبهرنا ، بل يقودنا بطراوة الى عالمها الجميل والقديم .



عندما تتألف الحروف العربية في تشكيل فني رفيع المستوى في جدارية ابراهيم حنين

• جدارية عبد العليم العمري : تكاد هذه الجدارية ألا تمت بأية صلة بنوع الجداريات ، بل بأسلوب اللوحات الزيتية . فتركيبها البنائي معقد جداً يقوم على تقاطع عدة مساحات ، وكل مساحة مليئة بعدد وافر من العلامات التشخيصية (أجساد ، أياد ، شرائط ملونة ، امواج ...) . الجدارية مثقلة بالأشكال والعلامات والمساحات ، الأمر الذي يعقد عملية التواصل معها . الى هذا فان الجدارية تنضح ب « درامية » عنيفة يستسيغها العابر – الناظر اذا أراد من الجدارية « أن تحرضه ، أن تحضه على رفض الظلم » ، كما توخى الفنان العمري من عمله ، وحسبما شرحه لنا .

• جدارية عبد القادر العرج : هذه الجدارية تتجه بعكس السابقة صوب الحلم ، صوب العالم المتخيل ، حيث تسبح الشخوص في مناخ سحري جميل وأخاذ . شخوص طائرة أو متخاصرة ، تعبد قصوراً بديعة ، وسط تشكيلات حروفية وزخرفية . إنه عالم حلمي وطفولي يبعث فينا مشاعر العبث الطفولي والسفر الهادئ . هذه الجدارية تنقل الناظر اليها الى عالم آخر . غير العالم الذي يحيط بك ، غير عالم الوقائع والصعوبات ... بدوره العرج « ينقل » الى الجدارية عالمه الخاص الذي كنا نعرفه في اللوحات ... دون أي تعديل . في الجدارية نعثر على تفاصيل فنية دقيقة جداً لا يتعدى حجمها بضعة ميليمترات ، الأمر الذي لا يتناسب مع جدارية يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار ... إنها التفاصيل الفنية الصغيرة كما نجدها في لوحاته ، وبالأحجام نفسها .

• جدارية مليكة اكزناي : نكاد نجد في هذه الجدارية سائر الاشتراطات الفنية التي تفترضها الجدارية . فهي تتألف من شكل فني بسيط : سور بحري تصعد من خلفه تموجات لا تلبث أن تتشكل في مخلوقات آدمية ، في وضعيات انسانية طريفة ومرحة . تحتفظ العين بهذه الأشكال ، وتعتاد عليها ، بالإضافة إلى أنها تثير فينا المرح : فتلك تموجات بحرية جاءت في وضعية آدمية تمشي ... متهالكة كالعجوز ، أو تلك الأخرى المستريحة في فتحات السور . مليكة إكزناي أنتجت جدارية « أصيلية » (نسبة لمدينة اصيلة) ، تقوم على التناغم والتكامل مع البيئة المحيطة بها : فالسور الذي نلقاه في الجدارية هو التتمة لسور المدينة البحري (والسوران ، الفني والطبيعي ، لا يبعدان عن بعضهما البعض سوى عدة امتار) ، والتدرجات اللونية للأزرق تتناغم بدورها مع التدرجات اللونية الزرقاء التي نلقاها في البحر والسماء والبيوت المجاورة . إلا أن الفنانة ذهبت بعيداً في الإيهام ، فعمدت الى التصريح المباشر بدل الايحاء الملطف . فجداريتها لا تذكرنا بالبيئة المحيطة بها (شكلاً ولوناً) بل تحاول أن تكون استمراراً لهذه البيئة بدرجة عالية من الإيهام .

• جدارية عبد الكريم الغطاس : هذا الفنان الشاب لم يحاول حلماً أو تكاملاً أو استمراراً أو تناغماً مع البيئة المحيطة بجداريته : فاشكاله تشب الى النسق الصناعي ، إذ انها تنقل الينا وحدات وعلامات ، تتوزع بين الأنابيب والأشكال الأسطوانية وغيرها ، الأمر الذي يتعاكس تماماً مع هذه المدينة الصغيرة ، التي تعتمد أساساً على ثروتها السمكية وحرفها المتوارثة . كذلك فانه يستعمل تدرجات لونية من البنفسجي ، الأمر الذي يتعاكس بدوره مع الوان البيئة المحيطة . اذا كان الفنان الغطاس يبحث عن « الصدمة » في الشكل واللون ، فانه قد توصل الى ذلك . فجداريته غريبة ، مخالفة ، لا تذكر ولا تميل أبداً الى البيئة التي تندرج فيها .

• جدارية الشعيبية طلال : الفنانة الشعيبية ما كانت تحتاج لكتابة عبارة « فرحة الموسم » فوق جداريتها لنشعر بهذه الفرحة حقاً ، فجداريتها تشع بهذا الحضور الفرح ، حيث نتبين وجوهاً ضاحكة ، مرحة ، عابثة ، وضعيات مريحة . ولا كانت تحتاج الى توقيع جداريتها لكي نتعرف بسهولة على الأسلوب الفطري الساذج ، الذي اشتهرت به هذه الفنانة في المغرب وخارجه . هي بدورها تبادر الجدارية مثلما تبادر اللوحة ، أساساً . لهذا لا يفيد أن نخضع هذه الجدارية للأقيسة الفنية التي ذكرناها .



من وحي الحياة والتقاليد الشعبية .. كانت هذه الجدارية

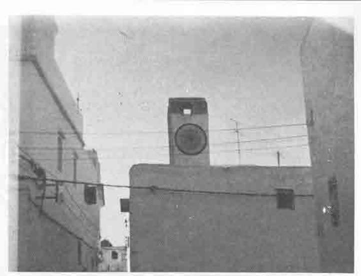
الجدار لم يكن للفنانة الشعيبية غير قماشة بيضاء ، غير قماشة أخرى ، مثل القماشة المشدودة على الاطار ، صاغت فوقها بعفوية وحرية عالمها الساذج والبريء .

• جدارية عزيز سيد : هذه الجدارية تمتاز عن غيرها في أنها تقوم على شكل بنائي بسيط ، يقوم على علامة شكلية مركزية تضبطها وتحدها مساحتان خلفيتان ، بثلاثة ألوان مختلفة . إلا أن هذه العلامات المركزية ليست قابلة للحفظ السريع ، إذ أنها لا تذكر بشكل معروف ، تنطلق منه لتطوره أو لتبدله وتصيغه من جديد . إلا أنها تجيء وفق تركيبة لونية هادئة ومتناغمة ، بحيث يستسيغ العابر رؤيتها . إلا أن هذه الجدارية لا تقع في مكان مناسب لكي يتمتع برؤيتها ، ولمدة طويلة ، عدد كبير من الناس .

• جدارية عبد الحي الملاخ : يتوفق الملاخ بموقع جيد لاقامة جداريته . فالجدار الذي يرسم فوقه هو جدار « أبيض » (أي أنه محدد مثل القماشة) وتقع في وسطه نافذة . أي أن الفنان يستطيع ، مبدئياً ، أن يحقق هدفين : تأليف حر ، وتوظيف هذا التأليف في البيئة ، وهما أمران ما توفرا في آن معاً لسائر الفنانين . الملاخ لم يتأخر عن استغلال وتوظيف هذين الأمرين . فالنافذة كانت نقطة الوسط الطبيعية لشكل الجدارية ، وكانت بالتالي حجر الزاوية . فالجدارية تألفت من ثلاثة مستويات ، تمثل النافذة فيها المستوى المتوسط . تقوم الجدارية على نظام من التقابل : فالمستوى العلوي منها عبارة عن حروف تتعانق بطريقة زخرفية في خلفية لونية واحدة ، والمستوى السفلي تكرار للمستوى العلوي ، وفق تشكيلات حروفية أخرى على خلفية لونية واحدة ومغايرة . التقابل يتحقق ايضاً من على جانبي النافذة بشكل تناظري . الى هذا فان الفنان « أدخل » النافذة (الطبيعية) في عمله ، إذ لونها باللونين ، الوردي والبني ، اللذين نجدهما في خلفيتي المستوى العلوي والمستوى السفلي .

• جدارية ابراهيم حنين : هذا الفنان يتوقف بدوره عند الحرف . جداريته تكوينات وتشكيلات من الأقواس والقباب والحروف . في جهة تنتظم القباب والأقواس التي تذكر ببوابات القصور ومداخلها الجميلة ، وفي الجهة المقابلة الحروف في تراكيب زخرفية جميلة . الجدارية زينة جميلة وتؤدي دوراً تربويا ، اذ أن الفنان « يشرح » في زاوية معينة من الجدارية قواعد كتابة حرف الألف بواسطة النقطة . الجدارية متعة للعين و « وسيلة ايضاح » للعابر ــ المتفرج .

• جدارية كمال بوطالب : هذه الجدارية تستدرجنا اليها فنياً بطريقتين متعاكستين : من جهة ترسم حائطاً وسلماً وسطلاً بكيفية واقعية جداً (هذه العدة ، هل هي عدة الفنان الجداري نفسه حين يرسم جداريته ، أم هي عدة المرأة المغربية نفسها في عملها البيتي ؟) ، ومن جهة ثانية ، وفي الجهة الموازية من الجدارية ، نشاهد امرأة (هي المرأة المغربية التي تحدثنا عنها اعلاه ؟) في مشهد غرائبي ، غير واقعي أبداً ، على أية حال . إن ما تنجح هذه الجدارية فيه هو الايهام المكاني الذي تولده ، لاستعمالها ، بعكس الجداريات السابقة ، للبعد المنظوري (أو المنظور الجوي) : للمرأة ظلها ، والسطل « يستقر » فوق « حافة » (مرسومة) في الجدارية ...



من جداريات (بلكاهية) القديمة

التجربة في الميزان

بعد هذا الاستعراض يمكننا أن نتوصل الى الاستنتاجات التالية : الفنانون المشاركون في هذه التجربة ليسوا فنانين جداريين ، إنها تجربتهم الأولى أصلاً ، فلم يعرف عن أي واحد منهم مشاركته في تجربة مماثلة .

موسم أصيلة يتيح لهم بهذا المعنى مواجهة تجربة فنية جديدة عليهم كلياً ، بما تشترطه وتفترضه من خصوصيات ومميزات . هكذا يمكننا تفسير عملية « النقل » التي أقدم عليها سائر الفنانين المشاركين بكيفيات متفاوتة . فكل فنان منهم « نقل » خبرته الفنية وطريقته الأسلوبية وأبجديته الخاصة في التشكيل (العلامات والألوان) الى الجدارية : فنجح بعضهم في « تطويع » تجربتهم الخاصة وتوظيفها في الجدارية (أو أنهم عملوا وفق هذا الاتجاه على الأقل ، دون أن ينجحوا بالضرورة) ، أما البعض الآخر فهو لم يقم بأي تحديد ولم يطرح أي تساؤل حول شرعية ومدى موافقة عدته السابقة لهذه التجربة الجديدة ، بهذا المعنى . وضمن هذا السياق ، نستطيع أن نؤكد بأن الفنانين « الرواد » ، اجتهدوا ، أكثر من الفنانين اللاحقين في انتاج جدارية منضوية في البيئة المحيطة بها .

إن الأقيسة الفنية التي حاكمنا على اساسها هذه الجداريات تبدو قاسية قليلاً ، اذ أنها لا تتماشى مطلقاً مع جدة هذه التجربة في المغرب والعالم العربي . ففنانون آخرون ، مغاربة عرب ، ما كانوا ليتوصلوا الى ايجاد حلول تشكيلية مناسبة لتجربتهم الجديدة . إن الأقيسة الفنية التي اعتمدناها تناسب وتجيب على تطور فني حققته التجارب الجدارية عند سيكيروس وغيره من الفنانين المكسيكيين ، وعند فنانين معروفين في بولونيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا .

إن ما حققه فنانو أصيلة أساساً هو « اقحام » العمل الفني في البيئة ، أي تعويد الناس على رؤية الأعمال التشكيلية في رواحهم ومجيئهم ، أثناء الذهاب الى العمل او عند العودة من السباحة . وهو هدف تربوي وجمالي فائق القيمة في بلاد ، مثل البلدان العربية أو بلدان العالم الثالث ، هي بأمس الحاجة الى مثل هذه الثقافة الفنية ... المجانية والبشرية . فمهما فعلت الحكومة أو الوزارة لتشجيع مجيء الناس الى صالات العرض ، فان الناس قد لا يأتون في غالب الأحيان ، لأنهم ما اعتادوا على مثل هذا المكان الفني ، ولا خبروه في طقوسهم الفنية العريقة . ولكن ، مع هذه التجربةالرائدة ، الجدارية تغزو مرمى العين ، تنتصب أمامه وتحاوره ، رغماً عنه في حال تمنعه .

جداريات أصيلة : إنها التعليم الفني الالزامي والمجاني . « إذا كان الناس لا يأتون الى المعارض ، لماذا لا نذهب نحن اليهم ، الى بيوتهم ، الى مراكز تجمعاتهم التقليدية حيث اعتادوا أن يكونوا أو أن يلتقوا » ، كان قد أكد الفنان المليحي ، حين دعا عدداً من الفنانين المغاربة في صيف ١٩٧٨ للبدء بتجربة أصيلة .

تجربة أخرى في قطر

في ربيع ١٩٧٨ ، قبل شهور قليلة على تجربة أصيلة الأولى ، توجه الفنانون القطريون الثلاثة : يوسف أحمد ، محمد علي وحسن الملا (المعروفون في حينها باسم « جماعة الأصدقاء الثلاثة ») لتعميم التذوق الفني في مواقع مختلفة من قطر . كانوا يتوقفون في القرى ، يستلهمونها ويرسمونها ثم لا يلبثون أن يعرضوا أعمالهم الفنية هذه على الجمهور في الهواء الطلق ؛ في أماكن تجمعاتهم التقليدية . بعد نجاح التجربة هذه أعاد الفنانون الثلاثة التجربة ، أثناء شهر رمضان الكريم ، في النوادي ، حيث كانوا يعرضون لوحاتهم المستوحاة بدورها من المناسبة الدينية ومعانيها السامية .

تكاد تكون هذه التجربة القطرية هي المثل الوحيد ، مع أصيلة طبعاً ، لمحاولة عربية في هذا المجال . فنحن نلقى في هذه المدينة العربية أو تلك جداريات فنية ، لكنها لا تتناسب مطلقاً مع الدوافع الفنية التي حركت تجربتا قطر وأصيلة .

إن تجربة أصيلة أتت كثمرة لمسار فني مغربي ، كان قد بدأ منذ ١٩٦٤ باعادة نظر جذرية للمسألة الفنية في المغرب : في هذه السنة ، وبمبادرة من الفنانين فريد بلكاهية ومحمد المليحي ومحمد شبعة ، وحميدي وعطا الله ، جرى تعديل نظام المناهج والبرامج في « مدرسة الفنون الجميلة » بالدار البيضاء . في هذه السنة قلب الفنانون الاساتذة النظام في المدرسة رأساً على عقب ، بحيث اطاحوا بأسسه المستمدة من النظام التعليمي الاستعماري . فادخلوا ، مثلا ، مواد جديدة للدراسة ، ولأول مرة ، وهي : الغرافيكية والخط والتصوير الفوتوغرافي ، وأعادوا النظر في علاقتهم بالفنون الشعبيةالمحلية وتدارسوا في كيفية دمج الفن بالبيئة والناس . الفنانون المغاربة أجابوا من خلال « عودة الوعي » (الوطني والقومي) هذه على معضلتين : معضلة مع الذات ، ومعضلة مع الآخر . فهم تحرروا من سيطرة الجمالية الغربية على تصوراتهم الخاصة بالفن عموماً ، وبفنهم العربي ، الاسلامي والمغربي خاصة ، أي انهم اعادوا الاعتبار للفنون المحلية وتخلصوا من رواسب تعلمهم في المدارس الغربية حسب أصول الجمال الاغريقي ، اللاتيني . ومن جهة ثانية ، أدرك الفنانون ايضاً انهم ينتجون فناً منقطع الصلة مع عادات الناس المحيطين بهم .

هكذا خاض هؤلاء الفنانون في عام ١٩٦٩ أولى تجاربهم في اقحام الفن بالبيئة والناس : في هذه السنة نصب الفنانون اعمالهم في ساحة « جامع الفناء » بمراكش ، ثم في ساحة ١٦ نوفمبر بالدار البيضاء ، أي في ساحتين تعتاد الجماعة على اللقاء فيهما . « انهم يريدون تجاوز الفن ، بوصفه ممارسة معزولة ومقتطعة عن سائر النشاطات الاجتماعية الأخرى ، ودمجه في الحياة اليومية ، كما كان عليه الحال في الماضي » . يؤكد محمد السيجلماسي شارحاً المغزى من هاتين التجربتين في كتابه « التصوير المغربي » الصادر بالفرنسية عن منشورات « ارتو » في ١٩٧٢ .



تجريد .. للفنان عزيز سيد

إن النتيجة الفعلية لمثل هذه التجربة المتكررة ، وفي السنة نفسها ، لم تعرف فعالية أكيدة ، إلا على المستوى الرمزي ، فنحن لا نستطيع التأكيد أبداً بأن عرض أعمال محددة ، لأيام محددة ، وفي ساحة ، مهما كانت حاشدة ، قادر على تعويد الناس المارة على الممارسة الفنية ، أمام كتل شعبهم العمومية ، يتطهرون ويعلنون أمام الملأ انتسابهم الى هموم الجماعة . هذه التظاهرة المتكررة تعني وتوفر صلحاً مع النفس ومع تصورات هؤلاء الفنانين للصيغة الفنية المندمجة في بيئتها المحلية .

تجربة العرض الجماهيري كررها ايضاً طلبة مشغلي التصوير (بادارة م . حميدي) والديكور (بادارة ا . عطا الله) في « مدرسة الفنون الجميلة » بالدار البيضاء ، الذين عرضوا في الهواء الطلق في صيف ١٩٧٢ في « ساحة الأمم المتحدة » بالدار البيضاء ، كما جرت تجارب مماثلة في ثانويات بالدار البيضاء أيضاً . كذلك فان الفنان عبدالله الحريري والفنانة القير اليريني لم يتأخرا عن عرض اعمالهما في غرف « البنك الشعبي » بالدار البيضاء في ١٩٧٢ .

إن قيمة هذه التجربة بديهية : إنها المرة الأولى التي يقترح فيها فنانون واعون مساحة جديدة للتواصل الاجتماعي الجمهور يجد في هذه المساحة المكان الطبيعي لتبادلاته » .. يؤكد ذلك الباحث التونسي محمد عزيزة في كتابه « التراث الثقافي والابداع المعاصر في أفريقيا والعالم العربي » الصادر بالفرنسية تحت اشرافه عن دار « المنشورات الافريقية الجديدة » بداكار في ١٩٧٧ . أصيلة ، اذن ، تنتسب بشكل طبيعي الى هذا التاريخ الفني ، الى هذه الاجابات الجديدة والمتجددة حول السؤال ذاته : كيف يصبح العمل الفني شأناً طبيعياً للعين العربية ؟ وكيف يمكن مواجهة هذه العين إذا كنا لا نستطيع استدراجها أو اذا كانت لا تلبي دعواتنا وبطاقات زيارة المعارض ؟

أصيلة تثير الأسئلة الصحيحة والضرورية ، حتى حين لا تحسن الاجابة عليها ، فكيف اذا توفقت بالاجابة ! ! !

شربل داغر
باريس

امكن حديثا تصنيع لقاح يحتوى على اجسام مضادة ضد الفيروس « ب » . وقد ثبتت فعاليته فى الوقاية من المرض لمدة تصل إلى ٨ اشهر بعد حقنه . كما أن استخدامه يحد من حدوث المضاعفات . وتشير الأبحاث إلى أن استخدامه فى الأطفال المولودين لأمهات مصابات بالفيروس « ب » يبشر بنتائج مشجعة .

يؤكد ذلك التقارير الصادرة عن أحد المراكز المتخصصة فى الولايات المتحدة الامريكية . التقرير يقول أن نسبة الاصابة بالتهاب الكبد الفيروسى انخفضت إلى ٢٦,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة بعد أن كانت ٣٣,٦ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة سنه ١٩٧١



مريض بالتهاب الكبد الفيروسى

يعتبر الكبد اكبر غدة فى جسم الانسان ، وهو يحتل الناحية اليمنى لتجويف البطن اسفل الحجاب الحاجز مباشرة . ويصل وزنه فى الشخص البالغ ١٥٠٠ جرام ، ويتميز الكبد فى الانسان الى فصين : فص كبير أيمن يمثل معظم الكبد وفص صغير أيسر . ويصل الدم إلى الكبد عن طريقتين هما الشريان الكبدى الذى يتصل بالكبد من وجه السفلى حاملا اليه الدم المؤكسد ويجاوره الوريد البابى الذى يحمل اليه الدم غير المؤكسد (من الأمعاء ، والطحال ، والبنكرياس والحوصلة الصفراوية ، والمعدة) .. ويحدث اختلاط للدم المؤكسد وغير المؤكسد داخل وحدات خلايا الكبد ويخرج الدم من الكبد عن طريق الأوردة الكبدية التى تصب فى الوريد الأجوف السفلى الذى ينقله إلى الناحيه اليمنى للقلب . وتقدر كمية الدم التى تمر فى الكبد بحوالى ١٥٠٠ مللى لتر كل دقيقه . أى مايقرب من نصف كمية الدم التى تمر فى الوريد الأجوف السفلى الى القلب . ويساهم الشريان الكبدى بحوالى ٣٥٪ من كمية الدم الكلية المارة للكبد .

وتقوم خلايا الكبد بافراز السائل المرارى

- ماهي الفيروسات المسببة للالتهاب الكبدي ؟
.. وما الفرق بين الفيروس "أ" والفيروس "ب" ؟
- الحامل .. هل يتأثر جنينها بالفيروس ب ؟
- ما الجديد في الفحص المعملي لتشخيص المرض ؟
- هل للاصابة بالفيروس "ب" مضاعفات ؟

الذى يتجمع فى قنوات مرارية صغيرة تتحد مع بعضها وتخرج من الوجه الأسفل للكبد على هيئة قناتين مراريتين يتحدان فى قناة واحدة وهذه القناة تستقبل القناة المرارية الآتية من المرارة التى تعمل كمخزن للسائل المرارى . وتنتهى القناة المرارية المشتركة فى الاثنى عشر (شكل رقم ١)

وللكبد وظائف حيويه اهمها :

- تخزين الجلوكوز فى خلاياه على هيئة الجليكوجين الذى يعتبر من المصادر الهامة للطاقة عند الحاجة .
- بناء المواد البروتينيه التى تساعد فى بناء الأنسجة المختلفة .
- حرق المواد الدهنية للحصول على الطاقة فى أحوال معينة .
- تصنيع الكوليسترول وعوامل تجلط الدم .
- جهاز وقائى هام ضد السميات المختلفة
- تصنيع املاح الصفراء التى تساعد على هضم المواد الدهنيه .
- تخزين فيتامين ب ١٢ ، وفيتامين ا ، د ، هـ ، ك ، وعنصرى الحديد والنحاس .

ويرجع الالتهاب الكبدى الحاد إلى العديد من الأسباب اهمها :

١ ــ الاصابة بالفيروس «أ»
٢ ــ الاصابة بالفيروس «ب»
٣ ــ الاصابة بفيروس تم عزله حديثا وهو لا يحمل صفات «ا» ولا صفات «ب» ويسميه البعض بالفيروس «جـ»
٤ ــ الحمى الصفراء ، الحصبة الالمانى ، الاصابة بفيروس الهربس وغيرها ولكن أهم هذه الأسباب هى الاصابه بالفيروس «ا» أو الفيروس «ب»

الالتهاب الكبدى بالفيروس «ا»

يعرف ايضا بالالتهاب الكبدى المعدى لأن العدوى تتم عن طريق الفم بواسطة الأكل أو الشرب الملوث بالفيروس «ا» . ومدة حضانة هذا المرض قصيرة فهى مابين ٢ الى ٦ أسابيع (فترة الحضانة هى المدة بين دخول الفيروس الجسم وظهور اعراض المرض) . والاصابة بالفيروس «ا» تعطى المريض مناعة محدودة تقيه من تكرار الاصابة بالالتهاب الكبدى المعدى ، ولكنه يظل عرضة للاصابة بالفيروس «ب» .

وتنتشر الاصابةبهذا المرض فى الأحياء الشعبيه المزدحمة وخاصة المناطق المحرومة من الصرف الصحى حيث يكون لتراكم البراز والفضلات وانتشار الذباب وعدم اتباع القواعد الصحية والجهل بها اكبر الأثر فى انتشار العدوى بهذا المرض . لذلك فالمرض اكثر انتشارا فى دول العالم الثالث بالمقارنة الى الدول الغربية كما أن الاصابة فى الأطفال اكثر منها فى الأشخاص البالغين والمسنين .

ويوجد الفيروس «ا» على هيئه بللورات طولها ٢٧ نانومتر (واحد نانومتر = ق . م . = $\frac{1}{٩١٠}$ متر) ويمكن رؤيتها بالميكروسكوب الالكترونى بعد اعداد وتجهيز خاص للعينة المراد فحصها . ويظهر الفيروس فى براز المريض بعد الاصابه به مباشرة وقبل ظهور أية تغيرات فى اختبارات وظائف الكبد ،



الطبيب أثناء الفحص الأكلينكي لكبد المريض

ويختفى ظهور الفيروس فى البراز مع ظهور اصفرار صلبة العين . ومع ظهور الصورة الاكلينكيه للمرض تظهر الأجسام المضادة فى الدم ، وقد تستمر لعدة اعوام مما يعطى المريض مناعة ضد تكرار الاصابة به (شكل رقم ٢) .

ولا تختلف الصورة الاكلينكيه لهذا المرض عن الالتهاب الكبدى الناتج عن الاصابة بالفيروس «ب» . ولكن تتميز الاصابة «ا» بندرة حدوث المضاعفات اذ أن الشفاء التام هو القاعدة وخاصة فى الأطفال كما أنه لايوجد حامل للمرض .

الالتهاب الكبدى بالفيروس « ب » .

ويسمى ايضا بالالتهاب الكبدى المصلى . اذ تتم العدوى عن طريق تيار الدم وقد يتم ذلك بوسائل مختلفة اهمها :

١ ــ نقل الدم أو أحد مشتقاته من حامل للمرض .

٢ ــ استخدام محقن ملوث بالفيروس «ب» لذلك ينتشر المرض بين مدمنى الهيروين .

٣ ــ الوشم .

٤ ــ العمليات الجراحية الصغيرة مثل خلع الأسنان وغيرها بآلات غير معقمة .

٥ ــ انتقال العدوى من الأم الى جنينها عن طريق المشيمة .

٦ ــ تكثر الاصابة بين العاملين فى المستشفيات وخاصة فى حجرات العمليات والمعامل وبنوك الدم ووحدات الكليه الصناعية وأطباء الأسنان .

وقد اشارت الأبحاث الى ان العدوى بالفيروس « ب » قد تنتقل بطرق أخرى . كما أن بعض الأبحاث التى اجريت فى غرب افريقيا تشير إلى امكانية انتقال العدوى عن طريق البعوض وبق الفراش وغيرها من الحشرات ، وربما استطعنا فى المستقبل تأكيد الدور الذى تلعبه الحشرات فى انتقال الاصابة بالفيروس « ب » فى المناطق الاستوائيه .

ويتميز المرض بطول مدة الحضانة (من ٦ أسابيع إلى ٦ أشهر) والفيروس المسبب للمرض لايترك الدورة الدموية لذلك لا يمكن اكتشافه فى براز المريض كما هو الحال فى الفيروس «ا» .

الفيروس «ب» : أمكن عزل ثلاثة اشكال للفيروس «ب» من امصال دماء مرضى الالتهاب الكبدى المصلى : (شكل رقم ٣) .

١ ــ جزيئات كروية قطرها ٢٢ ق . م .

٢ ــ اشكال انبوبيه أو خيطيه قطرها ٢٢ ق . م . ولكن قد يصل طولها إلى ٢٠٠ ق . م .

٣ ــ جزيئات كبيرة كروية يصل قطرها الى ٤٥ ق . م . (وتسمى جزيئات دان) وتتكون من : .

ا ــ غلاف خارجى يحتوى على « الجسم الغريب للكبسولة »

ب ــ نواة داخليه قطرها ٢٧ ق . م . تحتوى على « الجسم الغريب لقلب الفيروس »

ويتحمل الفيروس « ب » درجات الحرارة حتى ٣٧ درجه مئويه ولمدة ٦٠ دقيقه ولكن درجة ثباته تقل عند ٦٠ درجه مئويه . وعند درجة ١٠٠ مئويه ولمدة ١٠ دقائق (درجة غليان الماء) يتحلل الفيروس « ب » ولكن « الجسم الغريب للكبسولة » يبقى . وهذا الجسم الغريب يظل ثابتا فى الوسط الحمضى لمدة ٦ ساعات كما ان الجسم الغريب للكبسوله لا يتأثر عند تعرضه للأشعة فوق البنفسجيه وتبقى قدرته على احداث المرض . ومن هنا كانت الضرورة إلى استخدام المحاقن المصنوعة من مادة البولى ايثلين التى تستخدم مرة واحدة وتعدم بعد ذلك اذ ان غليان المحاقن المصنوعة من الزجاج لا يعنى الأمان الكامل من الاصابة بهذا الفيروس .

اصابة الحامل بالفيروس « ب » .

اثبتت الدراسات التى اجراها زوكر مان سنة ١٩٧٩ أن :

١ ــ اصابة الحامل بالفيروس « ب » فى الثلاثة أشهر الأخيرة للحمل غالبا مايصاحبها انتقال الفيروس إلى جنينها فى ٧٦٪ من الحالات .

٢ ــ الاصابة بالفيروس فى الستة شهور الأولى للحمل يصاحبها انتقال الفيروس إلى الجنين فى ١٠٪ من الحالات .

والحقيقة ان انتقال الفيروس إلى الجنين لا يعنى بالتالى حدوث التهاب كبدى . اذ ان الالتهاب الكبدى فى المولود لا يحدث الا فى ٢٪ من كل هذه الحالات . وتجدر الاشارة إلى ان اصابة الحامل بالفيروس « ب » لا يصاحبها حدوث تشوهات خلقيه أو اجهاض أو موت الجنين فى الرحم ، ولكن قد يؤدى الى ولادة مواليد دون المعدلات الطبيعيه للوزن .

وقد ينتقل الفيروس « ب » من الأم إلى طفلها عن طريق الرضاعة وذلك عن طريق :

١ ــ لبن الثدى : امكن عزل الفيروس من حليب الأم المصابة بالفيروس « ب » .

٢ ــ وجود جروح حول حلمة الثدى يخرج منها الدم حاملا الفيروس فيصاب الرضيع عن طريقها .

لذلك يستحسن عند اصابة الأم بالفيروس « ب » ان تتوقف عن ارضاع طفلها حتى لا يصاب بالفيروس .

الصورة الاكلينكيه للمرض

الصورة الاكلينكيه تكاد تكون واحدة عند الاصابة باى من الفيروس «ا» أو الفيروس « ب » أو الفيروس الذى تم عزله حديثا « جـ » .

ويمكن تقسيم الصورة الاكلينكيه للمرض الى قسمين اساسيين :

اولا : نوع لايصاحبه اى اصفرار (يرقان) غالبا مايحدث هذا النوع فى الأطفال اثناء انتشار الأوبئه ويكون المرض فى صورة اسهال أو نزلة معوية . وقد يصاحب ذلك تضخم مؤلم فى الكبد .

ثانيا : النوع المصحوب بالاصفرار (اليرقان)

ويمر هذا النوع فى ثلاث مراحل :

١ ــ مرحلة ماقبل اليرقان : وتستمر

لمدة ٣ ــ ٩ أيام . وتبدو فى صورة مشابهة للاصابة بالانفلونزا حيث ترتفع درجة الحرارة مع حدوث صداع ؛ توعك عام فى الصحة ؛ آلام فى العضلات والمفاصل ؛ فقد الشهية للأكل والتدخين، بل ان استنشاق دخان السجائر يجعل المريض يشعر بالغثيان . وقد يشعر المريض بألم فى أعلى البطن وفى منطقة فم المعدة وربما حدوث قئ متكرر . وفى نهاية هذه المدة يتغير لون البول (يصبح بلون العرقسوس) .

٢ ــ مرحلة اليرقان : وتستمر لمدة ٢ ــ ٦ أسابيع ومع حدوث اليرقان تنخفض درجة الحرارة إلى المعدلات الطبيعية وتتحسن الحالة العامة للمريض ، ولكن يظل لون البول غامقا نتيجة وجود مادة البليروبين . اما البراز فيصبح فاتحا به نسبة كبيرة من الدهون ورائحته كريهة ويحدث تضخم فى الكبد فى ٧٠٪ من الحالات . اما الطحال فيتضخم فى ٢٠٪ من الحالات وقد تتضخم بعض العقد الليمفاوية فى ١٠٪ من الحالات .

وربما يصاحب ذلك شعور المريض بالحاجة إلى الحكة الجلدية ؛ ظهور طفح مميز على كف اليد .

٣) مرحلة النقاهة : وتدريجيا تختفى كل علامات المرض ما عدا اليرقان الذى قد يستمر لفترة طويلة . لذلك ففترة المرض كلها تصل إلى ٨ أسابيع ولكن الشفاء التام يحتاج إلى ٤ أشهر على الاقل .

الفحوص والاختبارات

١) فحص البول : يغمق لون البول ويصير بلون العرقسوس نتيجه وجود مادة البليروبين . كما ان وجود املاح الصفراء تجعله يتميز بوجود رغاوى كثيرة على سطحه . وقد يظهر ارتفاع بسيط فى نسبة الزلال .

٢) فحص البراز : يبدو لونه فاتحا ورائحته كريهه ويحتوى على نسبة عالية من الدهون لذلك يطفو على سطح الماء .

٣) فحص الدم : يحدث العديد من التغيرات اهمها :

• ترتفع نسبة البليروبين فى الدم اكثر من المعدل الطبيعى (المعدل الطبيعى ٢,٠ ــ ٨, مللیجرام٪)

• ترتفع سرعة ترسيب الدم ولكن تعود للمعدل الطبيعى فى مرحلة اليرقان .

• ارتفاع نسبه الاجسام المناعية المضادة «م» ، «ج» . ويمكن الكشف عن الجسم المناعى «م» فى أول ١٢ أسبوع لحدوث المرض . اما الجسم المناعى «ج» فيمكن الكشف عنه فيما بعد .

• الكشف عن « الجسم الغريب للكبسوله » فى مصل الدم باستخدام طريقة القياس المناعى بالاشعاع وذلك فى الفترة من الاسبوع السابع حتى الاسبوع العشرين من التعرض للفيروس «ب» .

• نقص العدد الكلى لكريات الدم البيضاء مع زيادة نسبه الخلايا الليمفاوية .

• ارتفاع بعض الأنزيمات فى الدم مما يؤكد اضطراب وظائف الكبد مثل (س . ج . و . ت) و (س . ج . ب . ت) وانزيم الالكلين فوسفاتاز .

مضاعفات المرض

الاصابة بالفيروس «أ» الذى غالبا ما يصيب الأطفال وصغار السن ، نادرا ما تتبعه مضاعفات اذ أن الشفاء التام هو القاعدة . اما الاصابة بالفيروس «ب» فقد تنتج عنه بعض المضاعفات مثل :

١ ــ الالتهاب الكبدى المزمن المستمر : تستمر شكوى المريض من الشعور بالهزال والضعف العام وقلة الشهية للأكل . والفقد المستمر للوزن ، وقد يحدث تضخم بسيط فى الكبد ولكن فى معظم الحالات لا يفيد فحص المريض فى شيء اذ أن المريض من الناحية الاكلينكيه يعتبر سليما . وعند اجراء بعض الفحوص المعمليه يتضح ارتفاع نسبه البليروبين عن المعدل الطبيعى ، وارتفاع مستوى بعض الانزيمات الدالة على وظائف الكبد ، وزيادة مستوى الجسم المناعى المضاد «م» . ولكننا نحتاج فى تشخيص مثل هذه الحالات إلى أخذ عينة من الكبد وفحصها تحت الميكروسكوب . ويستحسن عدم التسرع فى أخذ هذه العينة بل يجب الانتظار مدة ٦ شهور بعد اجراء الفحوص المعمليه حتى يسهل تشخيص





من أجمل الأواني المحفوظة في متحف الفاتيكان والتي تعود إلى سنة ٥٥٠ قبل الميلاد إناء رسم على أحد جوانبه «بروميثيوس» سارق النار ومعلم البشر استعمالها . ويبدو بروميثيوس مقيداً بالسلاسل عقابا على فعلته هذه.. وهناك نسر ضخم يقف على بطنه ويلتهم خلايا كبده . وعلى الجانب الآخر للصورة يظهر الجبار أطلس الذي ـ أجبر بحسب ماتقول الأسطورة ـ على حمل السماء على كتفيه

ورغم سذاجة الرسم إلا أن الأسطورة تؤكد معرفة الاغريق القدماء لسر هام من أسرار الكبد .. سر خلود خلاياه وقدرتها على النمو مرة أخرى . فمن المفروض علميا أنه حتى وإن فقد أكثر من ثلثي خلايا الكبد لأي سبب من الأسباب ، فإن الكبد يتمتع بقدرة عجيبة تمكنه من تعويضها واستعادتها مرة أخرى .

الحالة المزمنة عن الحالات الحادة .
والحقيقه ان الالتهاب الكبدى المزمن المستمر لا يؤدى الى أى اضرار لذلك يجب توضيح هذه النقطة للمريض والتأكيد عليها ولا داعى لتناول أى عقاقير ، كذلك ليس من الضرورى اتباع نظام غذائى معين .

٢) الالتهاب الكبدى النشط : اكثر حدوثا فى الاناث (٧٥٪) عنه فى الذكور . ويتميز هذا المرض باستمرار اليرقان أو عودته مرة أخرى فى اكثر من ٨٠٪ من هذه الحالات وقد يصاحب ذلك ظهور بعض العلامات المميزة التى تشير إلى اضطراب الجهاز المناعى فى الجسم مثل : روما تويد المفاصل ، نزيف الانف واللثة ، بعض التغيرات فى الجلد مثل حب الشباب النزيف تحت الجلد ، التهاب الغدة الدرقيه ، انقطاع الدورة الشهرية عند النساء ، وقد يحدث استسقاء فى بعض الحالات الشديدة . وحتى يمكن تشخيص هذه الحالات لا بد من أخذ عينة من الكبد وفحصها تحت الميكروسكوب هذا بالاضافة إلى بعض الفحوص المعملية . والعلاج هنا يتم باستخدام احد مشتقات الكورتيزون (بردنيزون ٢٠ ــ ٦٠ ملليجرام يوميا) وقد يحتاج الأمر استخدام بعض العقاقير الأخرى مثل (ازا اثيوبرين ١٠٠ ملليجرام يوميا) .

٣ ــ تليف الكبد الناتج بعد الاصابة بالفيروس الكبدى .

٤ ــ سرطان الكبد الأولى : الأبحاث الحديثه التى اجريت على سكان المناطق الاستوائيه تشير إلى وجود علاقة وثيقه بين الاصابة بسرطان الكبد ووجود « الجسم الغريب للكبسولة » (شكل رقم ٤)

الوقاية خير من العلاج

ارتفعت نسبة الاصابة بالالتهاب الكبدى الحاد فى الولايات المتحدة من ٣٤,٤٠٠ سنة ١٩٦٦ إلى ٦٩,٢٠٠ سنة ١٩٧١ (بزيادة تصل إلى ٣٣,٦ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة) وتشير الاحصاءات التى اجريت سنة ١٩٨٤ إلى انخفاض نسبة الاصابة إلى ٢٦,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة .
والواقع ان اتباع طرق مختلفة للوقاية كان له ابلغ الأثر فى خفض معدلات الاصابة بهذا المرض .

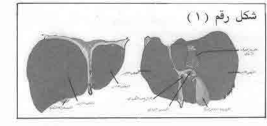
أولا : الوقاية من الفيروس « ا »

١) لما كان هذا النوع من الالتهاب الكبدى اكثر انتشارا فى المعسكرات والمدارس الداخلية والملاجى والمناطق المحرومة من الصرف الصحى حيث تتراكم الفضلات والبراز وينتشر الذباب ويساعد تفشى الجهل الصحى على انتشار المرض . لذلك يجب اتباع شتى الوسائل التى تمنع تلوث الطعام والشراب بالبراز مثل غسل اليدين جيدا بالماء والصابون قبل الطعام . وتزويد الاحياء الجديدة بوسائل الصرف الصحى السليم ، وتجديد شبكات الصرف ... والمحافظة على الأكل والشراب بعيدا عن مصادر التلوث ، والقضاء على الذباب . عزل المصابين وعلاجهم فى المستشفيات ، ونشر الوعى الصحى وتوعية المواطنين بطرق الاصابة والعدوى بالمرض واهمية التوجه إلى المستشفيات بمجرد ظهور الاعراض .

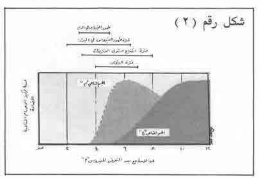
٢) حقن المرافقين للمرضى بالامينو جلوبيلين يكسبهم مناعة ضد المرض تصل نسبتها إلى ٩٠ فى المائة وخاصة اذا ماتم حقنهم خلال الاسبوع الاول وبدايه الأسبوع الثانى من مرافقتهم للمرضى . وجرعة الامينو جلوبيلين ٠,٠٢ ــ ٠,٠٤ مللي لتر / كيلو جرام من وزن الجسم تعطى فى العضل . وفى حالة انتشار الاوبئه يجب اعطاء الامينو جلوبيلين بصورة شاملة خاصة للأفراد المعرضين للاصابة مثل :

- المسافرين إلى مناطق الأوبئه
- المدارس الداخليه والملاجئ
- افراد القوات المسلحة

٣) الاهتمام بنشر الوعى الصحى بين السكان وذلك باستضافة المتخصصين فى وسائل الاعلام المختلفة ليوضحوا طرق


شكل رقم (١)

هذان الشكلان يمثلان (١) السطح السفلي للكبد (٢) السطح المقابل للحجاب الحاجز للكبد

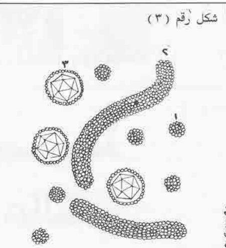

شكل رقم (٢)

التغيرات المصاحبة للاصابة بالفيروس «أ»

خريطة يوضح فيها اللون الأسود المناطق التي ينتشر فيها سرطان الكبد

شكل رقم (٤)

خريطة أخرى توضح فيها الخطوط المائلة ، المناطق التي ينتشر فيها الالتهاب الكبدي المصلي ..



شكل رقم (٣)

الفيروس «ب» أمكن عزله على ثلاثة أشكال : (١) جزيئات كروية قطرها ٢٢ ن.م. (٢) أشكال أنبوبية أو خيطية (٣) جزيئات كبيرة كروية تتكون من غلاف خارجي ونواة داخلية

العدوى وكيفية الوقاية من المرض واهمية الفحص والعلاج الطبى ومضاعفات المرض .

ثانيا : الوقاية من الفيروس « ب »

١ ــ يجب فحص المتبرعين بالدم جيدا للتأكد من صلاحيتهم واستبعاد المتبرعين الذين سبق اصابتهم بالالتهاب الكبدى . كما يجب تزويد بنوك الدم بالأجهزة الحديثه التى تمكن من الكشف عن « الجسم الغريب للكبسولة »

٢ ــ تعقيم الآلات الجراحية المعدنيه باستخدام الاتوكلاف أو غاز اوكسيد الايثيلين تعتبر من الوسائل الفعالة ويجب على أطباء الأسنان اتباع نفس خطوات التعقيم التى يتبعها جميع الجراحين قبل اجراء اى عملية .

٣ ــ تعميم استخدام المحاقن المصنوعة من البولى ايثلين والتى تستخدم مرة واحدة ثم يتم اعدامها بعد ذلك .

٤ ــ امكن حديثا تصنيع لقاح يحتوى على اجسام مضادة ضد الفيروس «ب» وقد ثبتت فعاليته فى الوقاية من المرض لمدة تصل الى ٨ أشهر بعد حقنه . كما أن استخدامه يحد من حدوث المضاعفات . وتشير الابحاث الى ان استخدامه فى الأطفال المولودين لامهات مصابات بالفيروس «ب» يبشر بنتائج مشجعة .

العلاج المناسب ..

معظم حالات الالتهاب الكبدى يتم علاجها فى المنزل مع الاهتمام بالراحة فى الفراش وعدم مزاولة أى مجهود وتناول وجبات خفيفة بحسب ماتسمح حالة المريض . والابتعاد النهائى عن تناول الخمور . وعند العلاج فى المنزل يجب عزل المريض وتطعيم المخالطين له بالامينو جلوبيلين والتخلص من فضلات المريض بعناية وتخصيص ادوات خاصة للمريض لايستعملها غيره . اما العلاج فى المستشفى فيفضل فى بعض الحالات مثل :

- الحالات الشديدة والتى تحتاج الى عناية خاصة .
- الحالات التى يصعب تشخيصها .
- الحالات المصحوبة بالتداخل الدماغى .

ويجب من البداية اجراء بعض التحاليل والاختبارات المعملية مثل :

- مستوى الاجسام المناعية «م» ، «ج»
- الجسم الغريب للكبسوله والجسم المضاد لها
- مستوى البليروبين فى الدم .
- مستوى الانزيمات الداله على وظائف الكبد .

وقد يستدعى الأمر فحص الكبد باستخدام الموجات فوق الصوتيه لاستبعاد الاسباب الجراحية لليرقان (انسداد المجارى الصفراوية) . وفى الحالات التى لا تستجيب للعلاج وتطول مدة المرض اكثر من اللازم فيجب اخذ عينه من نسيج الكبد وفحصها تحت الميكروسكوب حتى يمكن استبعاد امراض الكبد المزمنة التى قد تصاحب الالتهاب الفيروسى للكبد . اما عند ظهور احد المضاعفات وخاصة الالتهاب الكبدى النشط فقد يحتاج الأمر استخدام بعض العقاقير مثل مركبات الكورتيزون (البرد نيزون) وربما (عقار الازا ثيوبرين) أو احد العقاقير الحديثة المضادة للفيروس .

سامي عزيز

كلاسيكيات دبلن ١٩٨٤

رؤيـة عربيـة في مؤتمر ثقافي عالمي

بقلم: الدكتور أحمد عتمان



أسست جامعة دبلن المسماة ترينيتى كوليج Trinity College عام ١٥٩٢ ، ومن ثم فإن هذه الجامعة الايرلندية تعد من أقدم جامعات أوروبا . ولعل هذا هو السر في إختيارها لتكون مسرحاً لوقائع المؤتمر السابع للإتحاد الدولى لجمعيات الدراسات الكلاسيكية في الفترة ما بين ٢٧ أغسطس الى الأول من سبتمبر ١٩٨٤ . وجدير بالذكر أن رئيس مكتب هذا الاتحاد هو البروفيسور و. هـ. ويلليس من الولايات المتحدة الأمريكية . أما رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر فهو البروفيسور الأيرلندى ج. ل. هكسلى .

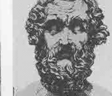
إشترك في هذا المؤتمر ما يقرب من أربعمائة عالم وباحث في الدراسات الاغريقية واللاتينية يمثلون الجمعيات الكلاسيكية في أنحاء العالم . وفي حين جاء من السنغال مندوب يمثل الجمعية الكلاسيكية السنغالية فإن العالم العربى كله لم يكن له مثل هذا المندوب لأنه لا توجد جمعية كلاسيكية بأى بلد عربى ! وبصفة فردية تقريباً شارك في أعمال هذا المؤتمر كل من الأستاذ الدكتور مصطفى العبادى رئيس قسم الحضارة بجامعة الاسكندرية ، وكاتب هذه السطور .

وقبل أن نتناول الموقف العربى من الدراسات الكلاسيكية دعنا نلقى نظرة سريعة على أعمال المؤتمر .

ألقت المحاضرة العامة الإفتتاحية الأستاذة الفرنسية الشهيرة جاكلين دى روميى (J. De Romilly) التى تحاضر بجامعة السوربون . وتحدثت عن « الأوديسيا » لشاعر الخلود الاغريقى هوميروس . وعللت العالمة الفرنسية اختيارها لهذا الموضوع بالقول أن دبلن هى مدينة أوليس (وهو إسم آخر لأوديسيوس بطل الأوديسيا) وهى تشير بذلك الى ملحمة المؤلف الأيرلندى الشهير جيمس جويس .

وكانت المحاضرة الختامية للبروفيسور الأمريكي شاكلتون بيلى من جامعة هارفارد . وقدم تفسيراً جديداً لبعض الأبيات الواردة في الكتاب السادس من ملحمة الشاعر اللاتينى فرجيليوس أى « الاينيادة » .

وهكذا مثلت المحاضرتان الافتتاحية والختامية قوسين كبيرين لأن صاحبيهما من أقطاب الدراسات الكلاسيكية ولأن







هوميروس — صلاح عبد الصبور — أبو القاسم الشابى — على محمود طه

موضوع كل من المحاضرتين أيضاً يمثل علامة بارزة فى تاريخ الأدبين الاغريقي واللاتيني ونعنى هوميروس وفرجيليوس .

وبين هاتين المحاضرتين ألقيت عدة محاضرات أخرى عامة . وفى نفس الوقت انبثقت عن المؤتمر ستة حلقات للمناقشات العلمية وهى على التوالى : حلقة للفلسفة ، النقوش ، الدراسات الموكينية ، المسرح البردى ، والمخطوطات . وفى كل حلقة من هذه الحلقات تم وضع برنامج يومى يتم فيه طرح أحد الموضوعات على يد أستاذ من الأساتذة ليرد عليه أستاذ آخر إما مؤيداً أو معارضاً لآرائه وبعد ذلك تدور المناقشة العامة التى يشترك فيها كل الحاضرين .

وفى حفل خاص أقيم قبيل اختتام المؤتمر منحت درجات فخرية لكل من الأساتذة شاكلتون بيلى وجاكلين دى رومى وجورج ليونارد هكسلى (وقد سبق أن أشرنا إلى هؤلاء العلماء) . ومنحت أيضاً هذه الدرجات الفخرية لكل من هيلين فلورنس نورث الاستاذة بجامعة سوار ثمور ورئيسة الجمعية الكلاسيكية الأمريكية سابقاً وجريجوريوس فلاستوس المولود على ضفاف البسفور وأستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا والمتخصص فى الدراسات الأفلاطونية . وجدير بالذكر أن خطب تقديم هؤلاء العلماء قد صيغت باللغة اللاتينية فى اسلوب جذاب وقام بإلقائها الأستاذ جوهانيس فيكتور لوس على نحو مؤثر ولطيف .

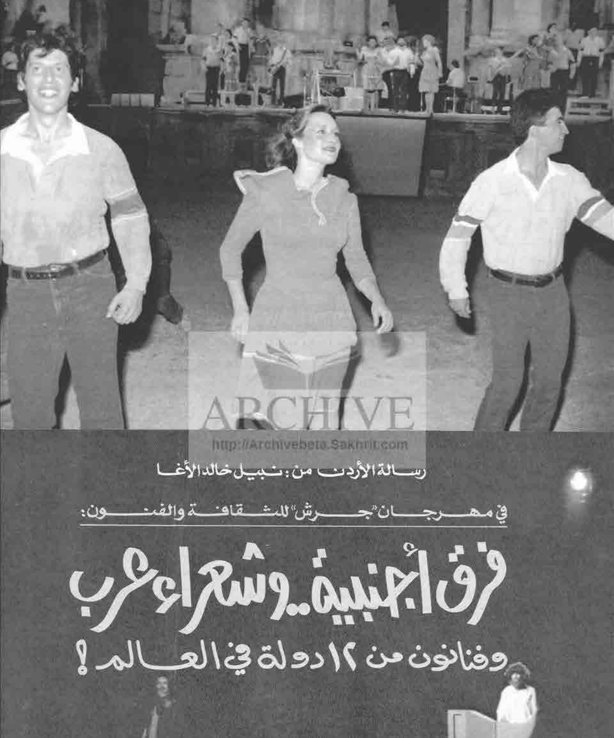
وللوهلة الأولى قد يتبادر إلى الذهن أن مؤتمراً كهذا يدور حول الدراسات الاغريقية واللاتينية ، أى حول الحضارات الأوروبية القديمة ، لا يهم العالم العربى فى شىء . وهذا تصور خاطىء لعدة أسباب نذكر منها أن الحضارة الاغريقية الرومانية قد نقلت إبان نشأتها الكثير من حضارات الشرق القديم مثل الفرعونية والحيثية والفينيقية وغيرها . ويكفى هنا أن نشير فقط إلى حقيقة أن الأبجدية الاغريقية نفسها مأخوذة عن الأبجدية الفينيقية . وهكذا فان دراستنا نحن العرب للتراث الاغريقى الرومانى سيساعدنا على إستيعاب حضارات الشرق القديم نفسها .

ومن ناحية أخرى فان العرب المسلمين فى عصرهم الذهبى قد نقلوا الكثير من علوم وفنون الاغريق إلى لغتهم حتى أن بعض الترجمات العربية كانت الأساس الذى إنطلق منه علماء عصر النهضة الأوروبية لإحياء تراث أجدادهم ونضرب لذلك مثلا بكتاب « فن الشعر » لأرسطو إذ أن الترجمات والملخصات العربية هى التى أشعلت الشرارة الأولى فى الدراسات الأوروبية الأرسطية بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية .

وبالنسبة لأدبنا العربى الحديث والمعاصر فحرى بنا أن ننوه إلى بعد النظر الذى تحلى به روادنا الأوائل الذين دعوا منذ بداية هذا القرن إلى ضرورة الاهتمام بالأدب الاغريقى الرومانى . فطه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد شوقى وغيرهم قد عادوا إلى التراث الكلاسيكى وإستلهموه أو نهلوا منه كل وفق طاقته واتجاهاته . بيد أننا نلاحظ أن هؤلاء الرواد جميعاً قد توسطوا فى اتصالهم بالأدب الاغريقى الرومانى باللغات الأوروبية الحديثة . فلم يتقنوا اللغة الاغريقية أو اللاتينية أو حتى لم يتعلموها قط . ولم يكن هذا ميسوراً لهم . المهم أن معرفتهم بالتراث الكلاسيكى معرفة غير مباشرة . ونرى من جانبنا ضرورة تخطى مرحلة « التوسط » هذه الانتقال منها إلى أفق التعامل المباشر مع التراث الكلاسيكى فى لغتيه القديمتين . ومن هنا تأتى ضرورة التفكير فى وضع بعض القواميس والموسوعات الكلاسيكية كبداية قوية لعقد هذه الصلة المباشرة .

وعلى أية حال فإن صفحات أدبنا المعاصر لازالت تحاول التقرب من الأدب الاغريقى الرومانى بصورة أو بأخرى ، فالمسرح العربى ـ الحديث العهد نسبياً ـ قد نجح فى الارتباط إلى حد ما بالمسرح الاغريقى . أما بالنسبة للشعر العربى الحديث والمعاصر فإن المتصفح لدواوين أبى القاسم الشابى وعلى محمود طه وأبى شادى ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى وأدونيس ونزار قبانى وصلاح عبد الصبور وغيرهم سيجد أن شخصيات ورموز إغريقية كثيرة ـ لاسيما تلك المتصلة باسطورة بروميثيوس سارق النار ـ تتربع على عرش الإلهام بالنسبة لشيطان هؤلاء الشعراء . بل إن الأسطورة الاغريقية ورموزها قد إرتبطت لدى البعض بفكرة التجديد فى الشعر العربى المعاصر .

وفى هذا الصدد ونحن نلفت أنظار المتخصصين العرب إلى الظاهرة الابداعية وندعوهم الى ضرورة مواكبتها ومتابعتها بالرصد والبحث والتقصى ثم بالتقييم أو التقويم ، فإننا من جانب آخر نتوجه بالدعوة إلى القائمين على شئون التعليم والتثقيف ولاسيما فى الجامعات العربية أن يزيدوا من اهتمامهم بالدراسات الكلاسيكية وأن يعملوا على نشر هذه الثقافة على أمل أن نحقق لأدبنا وتراثنا القوميين أفقاً عالمياً وإنسانياً أوسع وأرحب . بل وننتهز فرصة انعقاد المؤتمر السابع للاتحاد الدولى لجمعيات الدراسات الكلاسيكية بدبلن وندعو إلى قيام جمعية كلاسيكية عربية فى حضن هذه الجامعة أو تلك من جامعات الوطن الكبير .



رسالة الأردن من: نبيل خالد الأغا

في مهرجان "جرش" للثقافة والفنون:

فرق أجنبية.. وشعراء عرب وفنانون من ١٢ دولة في العالم!



ثلاث لقطات : على هذه الصفحة العاهل الأردني الملك حسين والملكة نور، في لقطة تذكارية مع بعض أفراد الفرق المشاركة في المهرجان .. وإلى اليمين لقطة لإحدى الفرق الأجنبية المشاركة .. واللقطة الأخرى لمشهد من مسرحية «وجه بملايين العيون» للشاعر عبد الرحيم عمر وإخراج هاني صنوبر

● مجموعات الدبكة والسامر في ليلة فرح أردنية .. والفرق المحلية تتبارى في عرض فنونها المرتبطة بالتراث العربي

● لماذا خلت عروض هذا العام من الأفلام الإسلامية التي جذبت انتباه المتفرجين في العام الماضي؟

شهدت مدينة «جَرَش» الأردنية التاريخية خلال النصف الثاني من شهر «أغسطس» الماضي، افتتاح مهرجانها الثالث للثقافة والفنون، في عشية اليوم السادس عشر توجه الملك حسين بن طلال الى موقع الاحتفال وأوعز بايقاد شعلة المهرجان من النفط الأردني الخالص، ايذاناً ببدء الاحتفالات الفنية الثقافية السنوية المقامة على اطلال المدينة الرومانية القديمة.

وليست هذه الاحتفالات بجديدة على مسارح جرش، واعمدتها وشوارعها، ومعابدها الموغلة في القدم... فالتاريخ يحدثنا بأنها قد مرت إبان العصر الروماني بمراحل زاهية من التقدم جعلتها واحدة من «أبرز المراكز الامامية للمبادلات الحضارية والتجارية بين الشرق والغرب، ولا سيما حينما الحقها القائد الروماني «بمبي» بالمقاطعة السورية ابتداء من عام ٦٣ قبل

الميلاد ، مع بقائها متمتعة بالحكم الذاتي ، وأدخلت فيما بعد ضمن حلف المدن اليونانية العشر الحرة ، وهي المدن التي كانت تتولى نشر الثقافة الهيلينية الرومانية المشتركة » .

ونتيجة لهذا التراث الحضاري الرفيع ، استحقت « جرش » أن تكون كذلك احدى اعظم المدن الكلاسيكية الثلاث في المنطقة اضافة الى البتراء ، وتدمر .

واليوم تمتاز « جرش » عن سائر الأماكن الأثرية الأخرى بكونها ما زالت تحتفظ — الى حد ما — بطابعها الاصيل ، حيث بقيت مرافقها الرئيسية تستعمل من قبل الوفود المشاركة ، والفعاليات المختلفة .. هذا وتقع مدينة جرش على بعد ٤٥ كم الى الشمال من عمان . وعلى بعد ٣٥ كم الى الجنوب من مدينة « إربد » عاصمة الشمال الأردني ، وعلى مسافة متوسطة الى الشرق من مدينة « عجلون » الجميلة ، وترتفع بمقدار ٥٧٠ متراً فوق سطح البحر ، واضافة الى هذه المزايا كلها فالمدينة تتوسط التجمعات السكانية الكثيفة في المنطقة .

ولعل هذه المزايا — وغيرها — هي التي شجعت المسئولين الأردنيين على اختيار المدينة كموقع للاحتفالات المتنوعة .

الفرق المشاركة

لقد استمر المهرجان على مدار اسبوعين كاملين ، وضم نشاطات وفعاليات ثقافية وفنية متنوعة شملت الغناء والموسيقى العربية والغربية ، الفولكلور والرقص العالمي والمحلي ، الشعراء المحليين والعرب ، الحرف التقليدية والفنون التشكيلية ، المسرحيات المحلية ، للكبار ومسرحيات الاطفال ، ثم الكتب والافلام والعروض الاعلامية .

وشاركت في كافة هذه النشاطات (٢٥) فرقة محلية أردنية تمثل كافة محافظات وألوية المملكة الأردنية الهاشمية ، وما تحويه من جوانب الفولكلور المرتبطة بالتراث العربي ، وتضم هذه الفرق ما يقرب من (٥٠٠) عضو ساهموا في النشاطات التالية : تقديم مسرحية « وجه بملايين العيون » من تأليف عبدالرحيم عمر واخراج هاني صنوبر ، ومسرحية « بيادر وحكايات » من تأليف واخراج محمود الزيودي وتنفيذ فرقة السلط للفنون الشعبية ومسرحية « الله يستر من بكره » تأليف مصطفى صالح واخراج محمد حلمي ، ومسرحية « حال الدنيا » من تأليف ممدوح عدوان واخراج حاتم السيد .

أما مسرحيات الاطفال فكانت مسرحية العرائس « الاميرة والبصلة المسحورة » ومسرحية « إن غاب القط إلعب يا فار » ومسرحية « درس في الصداقة » وأخيراً مسرحية « الأطفال قادمون » .

أما بالنسبة لفرق الفولكلور المحلي الأردني فقد شاركت فيه كل من : مجموعات الدبكة والسامر « ليلة فرح أردنية » — فرقة الفولكلور الشركسي — فرقة « عالية » للفولكلور — فرقة جامعة اليرموك للفولكلور الأردني . وفي مجال الموسيقى والغناء المحلي ساهمت فيهما : فرقة موسيقات القوات المسلحة الأردنية (١٢٠ عازفاً بقيادة الرائد جمال زريقات) ، فرقة اوركسترا الاذاعة الأردنية (٢٥ مشاركاً بقيادة السيد روحي شاهين) . فرقة جامعة اليرموك الموسيقية ، فرقة « الفحيص » لإحياء التراث .



آثار مدينة « جرش » التاريخية

وفيما يختص بالمشاركة العربية في مهرجان جرش الثالث للثقافة والفنون فقد ساهمت أربع فرق بصورة رئيسية هي :

أولا : جوقة المعهد الوطني للموسيقى بالمغرب الشقيق ، وضمت (١٣) موسيقياً برئاسة الموسيقار محمد العربي التمسماني ، وقدمت عدة فقرات من الطرب والموشحات الاندلسية ، ومعزوفات موسيقية تميزت بها منطقة المغرب العربي .

ثانياً : الفرقة القومية للفولكلور بالعراق الشقيق . ضمت الفرقة أربعين عضوا ، وقدمت الوانا من الموسيقى والغناء والفولكلور العربي مستوحاة من تراثنا العربي العريق في بلاد الرافدين التي اشتهرت كمنبع لكثير من الفنون العربية الاصيلة .

ثالثاً : فرقة الموسيقى العربية من مصر الشقيقة وبلغ عدد أفرادها (٤٠) عضواً على رأسهم الموسيقار المعروف عبد الحليم نويره ، وقد قدمت فقرات جميلة من الموشحات والتقاسيم والمعزوفات العربية .

رابعا : جهاد عزقول من لبنان الشقيق . وهو عازف موسيقي مميز على الجيتار ، وشارك في عدة مهرجانات موسيقية دولية متخصصة .

الفرق الاجنبية

شاركت في المهرجان (١٢) فرقة اجنبية اتت من اقطار عديدة مختلفة حملت في فنونها مساهمات عديدة في التراث الثقافي والفني الانساني ، وهذه الدول هي :

فرنسا ، المانيا الغربية ، الاتحاد السوفيتي ، بلغاريا ، تشيكسلوفاكيا ، سيراليون ، الولايات المتحدة الأمريكية ،كولومبيا .

وقد ساهمت هذه الدول في نشاطات



وصلة غنائية وسط آثار المدينة التاريخية ضمن فعاليات مهرجان جرش الثالث الذي شاركت فيه ١٢ دولة أجنبية بفرق للباليه والرقص والغناء الشعبي والموسيقى والعروض المسرحية

مهرجان جرش عن طريق فرقها التالية :

• فرقة « باليه الشمال » (فرنسا)
عشرون راقصاً قدموا رقصات الباليه الكلاسيكية .

• فرقة « بيتبرغ » للفولكلور : (المانيا الغربية)
(٢٦) راقصاً وراقصة من الهواة قدموا عروضاً شعبية .

• فرقة الصداقة للرقص الشعبي (الاتحاد السوفيتي)
(٢٧) راقصاً وراقصة قدموا الرقص الفولكلوري لشعوب اتحاد الجمهوريات السوفيتية .

• فرقة «هارمانلي » (بلغاريا)
(٤٥) راقصاً عملوا على ابراز الفنون الشعبية لجمهورية بلغاريا الشعبية .

• فرقة « جيمنك » للفولكلور (تشيكسلوفاكيا)
(٣٠) راقصا وراقصة قدموا رقصات وأغان شعبية

• الفرقة الوطنية للرقص الشعبي (سيراليون)
(٣٢) راقصا وراقصة قدموا عدة فقرات افريقية مميزة .

• فرقة « بيبول » للفولكلور العالمي (الولايات المتحدة)
(٤٥) شاباً وفتاة قدموا عروضاً مستوحاة من مختلف مناطق العالم .

• فرقة « الموسيقيين الصغار » (الولايات المتحدة)
(٢٣) طفلا وطفلة قدموا مقطوعات موسيقية واغنيات منوعة للأطفال .

• فرقة مسرح « فيرمونت » للصم (الولايات المتحدة)
(١٠) اشخاص قدموا مسرحية اجتماعية ، وأدوا جميع ادوارهم بصمت .

• فرقة « فوت ورمرز » لموسيقى الجاز (الولايات المتحدة)
(٦) اشخاص قدموا معروضات الجاز الجنوبية المنوعة .

• شخصيات من عالم « ديزني لاند » للأطفال (الولايات المتحدة)
(٢) شخصان ، احدهما يعمل في « ديزني لاند » ويرافقه شخصية « ميكي ماوس » المعروفة .

• فرقة باليه جمهورية كولومبيا (امريكا الجنوبية)
(٢٥) راقصا وراقصة وعازفا قدموا عدة لوحات تمثل الخليط الفريد لثقافة كولومبيا .

هذا .. وقد اشتملت برامج المهرجان على فقرات شيقة من الشعر والادب تمثلت في قراءات شعرية ، ومتابعات نقدية ، وشعر شعبي من قبل عدد من الشعراء والأدباء البارزين في الأردن والوطن العربي ، وقام بالاشراف على هذه الفعاليات الاستاذ حيدر محمود ومساهمة السيد



إحدى الفرق العربية تقدم عروضها الفنية ، وخلفها الأعمدة المتبقية من المدينة التاريخية

محمد سمحان .

ومن الشعراء العرب الذين ساهموا في هذا العطاء : الدكتور عبدالله الطيب (السودان) سعيد العيسى(فلسطين) ، طلال حيدر (لبنان) ، المنصف المرغني (تونس) ، راضي مهدي (العراق) ، محمد التبيتي (السعودية) وغيرهم .

أما الشعراء الأردنيون المشاركون في الأمسيات الشعرية فيزيدون عن الثلاثين شاعراً منهم على سبيل المثال : عبدالرحيم عمر ، حيدر محمود ، محمد الظاهر ، الدكتور وليد سيف ، خالد المحادين ، د. جميل علوش ، ابراهيم نصر الله ، علي البتيري ، خالد الساكت ، سليمان عويس ، احمد المصلح ، فهد الريماوي وغيرهم .

وتضمن المهرجان كذلك فعاليات محلية أردنيةهي :

● معارض الفنون التشكيلية :

وقد اشتملت على كثير من الاعمال الفنية لابرز الفنانين الأردنيين ، وشملت اللوحات الزيتية والمائية والتصوير الفوتوغرافي واعمال النحت . وتم عرض جزء من هذه الأعمال في « قبو زيوس » . وفي بعض المواقع الأخرى في المهرجان أقيمت معارض فنية جانبية لفن « الجرافيك » واللوحات وغيرها .

● معرض الكتاب :

اقتصر معرض الكتاب لهذا العام على مشاركة المؤسسات الثقافية والناشرين والوكلاء الأردنيين . واشتمل المعرض على جناح المجموعات المختارة لأحدث المطبوعات والمنشورات باللغتين العربية والانجليزية ، وجناح المؤلفات الوطنية وتسويقها باشراف رابطة الكتاب الأردنيين ، ومديرية المكتبات والوثائق الوطنية .

● معرض الحرف والصناعات الوطنية :

تم العرض من خلال حوانيت أقيمت على جوانب شارع الاعمدة ، شارك فيها حرفيون أردنيون حقيقيون ، واشتمل المعرض على مصنوعات يدوية وحرف الى جانب تطبيق عملي حي من قبل الحرفيين انفسهم في مجال انتاج مصنوعاتهم على أنوال وأفران .... الخ .

ومن ابرز الحرف التي تم عرضها : الحياكة التقليدية ، وصناعات الحصر ،والصوف ، وخشب الزيتون ، والخزف ، والفضة ، والزجاج ، والفراء ، والمطرزات ، وبيوت الشعر ، والسيوف والمهباش ، وحفر الخطوط الاسلامية .

● الافلام والعروض الاعلامية ، والفنية ، ومعرض كتب الاطفال .

وفي معرض حديثه عن مهرجان جرش الثالث للثقافة والفنون ، قال الدكتور مازن العرموطي مدير المهرجان حين سألته حول ازدحام برامج المهرجان : « ان هذا كان مقصوداً لكون المهرجان مهرجاناً عاماً ، وهو موجه لكافة الأذواق والاهتمامات



جانب من المشاهدين الذين حضروا لمتابعة عروض المهرجان التي تميزت بالتنوع والابهار

والمستويات الثقافية والاجتماعية ، وقد قصدنا أن نوفرعددا من النشاطات المتنوعة في وقت واحد ليختار منها رواد المهرجان ما يوافق ميولهم ورغباتهم .. ولقد راعت « اللجنة الوطنية العليا » للمهرجان التي ترأسها الملكة نور الحسين ــ وهي أيضاً صاحبة فكرة إقامة المهرجان ــ توازن العروض والفعاليات المختلفة بحيث لا يطغى جانب على آخر ، بحيث يؤدي ذلك في النهاية الى خدمة ورفد الاهداف العامة لهذا المهرجان السنوي والتي تتمثل في « إحياء الحياة الثقافية والفنية في الاردن ، وانعاش الفولكلور الأردني ، وتدعيم اواصر التفاهم والاتصال بين ابناء العالم العربي ، وانشاء جسر للاتصال الثقافي بين الأردن والأقطار الاجنبية ، وتدعيم الاقتصاد الوطني عن طريق زيادة الجذب السياحي من الخارج » .

وعن اللجنة الوطنية العليا لمهرجان جرش قال مدير المهرجان : لقد تشكلت اللجنة كالآتي :

الملكة نور الحسين (رئيسة اللجنة) ، السيدة ليلى شرف (نائبة للرئيسة) ، سمو الاميرة وجدان علي ، الدكتور عبدالله عويدات ، الدكتور جواد العناني ، السيد علي غندور ، الدكتور عدنان بدران ، الدكتور مازن العرموطي (عضو ، امين سر اللجنة) السيد بطرس صلاح ، العميد عدنان الداغستاني . ويحضر اجتماعات اللجنة السيد منير الدرة ، والدكتور محمد العدوان .

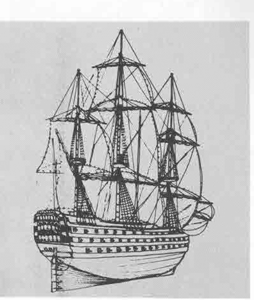
أما اللجنة التنفيذية للمهرجان فمن ابرز عناوينها : الدكتور عدنان بدران (رئيس اللجنة) ، والدكتور مازن العرموطي (نائب الرئيس ومدير المهرجان) .

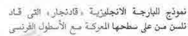
والملاحظ بشكل عام أن ترتيب عملية الدخول والخروج والحضور هذا العام كانت اكثر دقة مما كانت عليه في العام الماضي ، كما لاحظ المراقبون ، ولقد علمت ممن حضروا فعاليات العام الماضي بأن الانتاج السينمائي في المهرجان قد تميز بعرض نماذج مرموقة من الافلام العربية الاسلامية مثل : الرسالة ، و « عمر المختار » و « شيماء أخت الرسول » ، وفجر الاسلام ، والناصر صلاح الدين ، وخالد بن الوليد ، والقادسية .

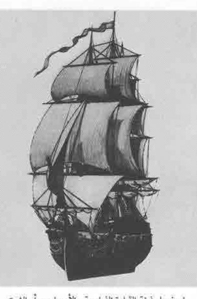
أما هذا العام فقد خلت الافلام والنشاطات الاعلامية من مثل هذه الدرر الاسلامية الثمينة ، .

واذا كانت فعاليات المهرجان قد استوعبت (١٥) ألف زائر يومياً ، وتكفلت ادارة المهرجان بتوفيركل سبل الراحة والمتعة والرعاية لهم ، فلا شك أن عدم وجود مصلى في أرض المهرجان يعد خطأً ما كان يجب على المسئولين عن المهرجان نسيانه كما أن وجود بعض السلبيات الأخرى لم يؤثر في نجاح هذا العمل الكبير .

نبيل خالد الأغا




نموذج للبارجة الانجليزية « فانجار » التى قاد نلسن من على سطحها المعركة مع الأسطول الفرنسي



نموذج لسفينة القيادة الفرنسية « الأورينت » أو الشرق التى ترقد بمدافعها وكنوزها تحت أمواج « أبو قير »



كنوز نابليون الغارقة في "أبوقير"

بقلم : فاروق أباظه

- أكثر من عشرين غواصا يبحثون عن سفينة « الشرق » التى سماها المؤرخ العربى الجبرتي : نصف الدنيا !
- على متن السفينة الغارقة كان نابليون يتعجل الوصول لشاطئ الاسكندرية ، ليحقق أحلامه وطموحاته !
- البحرية الفرنسية تساهم بكاسحة ألغام ، وحفيد نابليون يشارك فى عمليات البحث والانتشال !

بعد أكثر من مائة وستة وثمانين عاماً ، يجري الآن التنقيب عن كنز دارت حوله الحقائق والأساطير ، بعد أن احتوته أعماق البحر عقب معركة غير متكافئة عند جزيرة صغيرة بالقرب من شاطئ أبو قير في مدينة الاسكندرية .

الكنز الثمين ليس مجرد عملات ذهبية ومدافع وسيوف ودروع وأزرار نحاسية من بقايا ما كان يرتديه جنود البحر « الفرنسيس » وانما هو ما تبقى من أسطول حربي قدر له أن يحمل أحلام جنرال شاب ، أراد أن يكون الاسكندر الثاني في غزوه للشرق حيث الأمل في تكوين إمبراطورية واسعة الأطراف تفرض بها فرنسا حصارها الاقتصادي والحربي على مملكة بريطانيا العظمى في ذلك الوقت .

إن أكثر من عشرين غواصاً مدرباً يتأهبون لجولة جديدة تحت الأمواج من

أجل أن يطفو الى السطح « القايق » الكبير أو نصف الدنيا كما سماه المؤرخ العربي عبد الرحمن الجبرتي ، وكان يقصد سفينة القيادة « الأورينت » أو « الشرق » التي طال رقادها وفي قلبها الكنوز الحقيقية والأسطورية في قاع البحر ،وشهد سطحها وقمراتها وقلاعها تأملات نابليون بونابرت وهو يتعجل الوصول الى شاطئ الاسكندرية ، تسبقه إليها أحلامه وطموحاته وأمنية أن ينصب نفسه امبراطوراً على الشرق والغرب معاً !

الأسطول العظيم

الزمان : الساعة السادسة من صباح ١٩ مايو عام ١٧٩٨ .. المكان ميناء طولون الفرنسي حيث ترسو بارجة حربية ضخمة تبادلت أسماء ثلاثة قبل الثورة الفرنسية وبعدها ، فعندما تم إعدادها أطلقت عليها البحرية الفرنسية إسم نجل لويس السادس عشر ، ولكن الشعب الفرنسي الذي كان يعاني من القهر والظلم آثر أن يستبدل هذا الاسم باسم تهكمي آخر فاطلق على البارجة الحربية « سان كلوت » أو « بدون سروال » تعبيراً عن الفقر الذي كان يعيشه السواد الأعظم من الشعب ، ولما قامت الثورة حملت البارجة اسمها الثالث والأخير وهو « الأورينت » أو الشرق !

وفي هذا اليوم بالتحديد « ١٩ مايو عام ١٧٩٨ » أصدر الكابتن « كازبيانكا » الأمر إلى سفن الأسطول الفرنسي المتجمعة في طولون كي تنطلق في طريقها إلى مالطة تتقدمها « الأورينت » الشامخة كحصن مدرع بمدافعها ذات الصفوف الثلاثة والمؤلف كل منها من أربعين مدفعاً ، وقد تشكل هذا الاسطول من ثلاثة عشر بارجة تحمل ١٠٢٦ مدفعاً ، ٤٢ فرقاطة ومركباً خفيفاً وزورق بريد ، ١٣٠ ناقلة من شتى الأنواع ، وتحمل هذه السفن والناقلات ما يقرب من سبعة عشر ألف جندي ، ومثلهم من الملاحين والجنود البحريين وأكثر من الف قطعة من مدفعية الميدان ، ومائة ألف قطعة من الذخيرة ، ٥٦٧ عربة ، ٧٠٠ حصان .. وكان المقرر أن ينضم الى الأسطول ـ قبل أن يصل الى الهدف ولم يكن أحد يعرفه غير حفنة من الرجال ـ ثلاثة قوافل صغيرة من جنوه وأجاكسيو وشقيتا فيكا ، وبذلك يصل عدد الرجال الى ٥٥ الف رجل ومجموع السفن الى ٤٠٠ سفينة .. وهذا الأسطول يشغل في عرض البحر مساحة تتراوح بين ميلين وأربعة أميال مربعة ،ولذلك فعندما ألقى مراسيه على ساحل الاسكندرية قال المؤرخ العربي نقولا ترك ، أن من شاهدوه من البر لم يروا بحراً بل سماء ومراكب فوقع عليهم خوف عظيم وهم جسيم .

غواص فرنسي من الغواصين المدربين الذين يعملون تحت أمواج شاطئ « أبو قير » من أجل أن تطفو على السطح سفينة القيادة الفرنسية التي طال رقادها في قاع البحر

قوات الغزو

وعلى ظهر « الأورينت » وقف رجل شاحب اللون تبدو قبعته أوسع مما يجب ، وهو الجنرال الشاب نابليون بونابرت ، الذي استطاع خلال سنوات قليلة أن يحقق العديد من أمجاده الحربية التي توجها بانتصاراته في ايطاليا ،والتي أحس بعدها بأن الشرق يجذبه بسحره وأساطيره وكنوزه للمزيد من الطموح ، فقرر القيام بحملته الشهيرة لتحقيق المزيد من الأحلام والطموحات الكبيرة !

وأبحر الأسطول تجاه مالطة .. كان البحر ثائراً ، ومعظم الرجال الذين تركوا أسرهم وبيوتهم قبل سنوات وشاركوا في جيش المتطوعين دفاعاً عن الثورة والجمهورية ، كانوا على يقين أن قائدهم الشاب يقودهم دائماً الى أعتاب المجد ويكلل هاماتهم بالكبرياء أينما كانت وجهته .. إن الهدف هذه المرة هو الإستيلاء على مصر .. وقد سبق مشروع الغزو دراسات شتى اكدت أنها الطريق إلى التحكم في الطرق البرية إلى بلاد العرب ، كما أنها تقطع طريق بريطانيا إلى الهند ، بالاضافة إلى ما

أثير من أساطير مبالغ فيها حول ثروة مصر في الروايات اليونانية والرومانية القديمة !

وفي نفس الوقت رحب التجار الفرنسيون القاطنون بمصر بالغزوة الفرنسية ، وقد كان لهم بالقاهرة حي مسور يقوم على حراسته جنود الإنكشارية ، وأجمعت كل التقارير الواردة الى فرنسا على ضرورة الغزو !

واختار نابليون لحملته الحربية نخبة من قادته الذين شاركوه انتصاراته إبان الحملة الايطالية ، وقد أصبح ستة منهم بعد ذلك « مارشالات » في جيش الامبراطورية ، وجرح ثلاثة جراحاً قاتلة ، وقتل اثنان ، ومات اثنان نتيجة المرض في مصر !

أما المدنيون المرافقون لحملة الغزو فقد كان عددهم خمسمائة من بينهم طهاة وخدم وتجار جشعين يحلمون بالربح الوفير داخل البلاد المفتوحة ، ونساء وأطفال رغم الحظر المفروض على السماح للنساء بمرافقة الحملة ، ولكن بعضهن نجح في التخفي داخل أزياء الرجال وعددهن ٣٠٠ إمرأة أجملهن « مدام فوريه » زوجة الملازم « فوريه » التي لها قصة شهيرة مع نابليون طوال فترة إقامته في مصر !

ولم ينس نابليون أن يصحب معه نخبة من العلماء الأفذاذ من بينهم مونج وكفاريللي وكونتيه وفورييه وكبير الجراحين الدكتور « لاريه » مبتكر مستشفى الميدان المتنقلة ، بالاضافة الى حروف أول مطبعة عربية تجلب الى الشرق !

نابليون بونابرت .. عندما أبلغوه بنبأ كارثة « أبوقير » قال: إننا مطالبون بل مكرهون على أن نأتي بجلائل الأ

مصادرة كنوز الفرسان

وكانت سفينة القيادة « أورينت » أو الشرق تحمل ثروة هائلة من الكنوز الذهبية ، التي يعود مصدرها كما يذكر المؤرخون الى المرفأ التالي لأسطول نابليون بعد مغادرته طولون ، وهو جزيرة مالطة ، حيث يعيش فرسان القديس « يوحنا » أو





في هاتين اللقطتين : نلسون القائد الانجليزى الذى أغرق سفينة القيادة الفرنسية .. ومجموعة طلقات رصاص .. من ضمن القطع التي تم انتشالها من السفينة الغارقة

فرسان «الاسبتاريه الأورشليميين» وكان البابا «باسكال الثاني» قد شكل منهم فرقة حربية مسلحة متعصبة، وتدرعوا بجزيرة «رودس» حيث عملوا بالقرصنة، الى أن هاجمهم السلطان العثماني سليمان القانوني عام ١٥٢٢ وأرغمهم على الاستسلام، ولكن الامبراطور شارل الخامس منحهم جزيرة مالطة ملكا خاصاً لهم عام ١٥٣٠ م.

لقد استطاع نابليون أن يستولى على مالطة في يوم واحد، مقابل ثلاثة جنود قتلوا أثناء اقتحام الجزيرة، وكان بها حامية من ١٥٠٠ رجل، ٣٣٢ فارساً، نصفهم يعاني أمراض الشيخوخة بينما هرب الباقي طمعاً في الحياة.. وقد صادر نابليون كنوز الفرسان المكونة من ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك، ٣٥٫٠٠٠ بندقية، بالاضافة الى الأواني الذهبية والفضية التي تبلغ قيمتها مليون فرنك، وتحف كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر ومن بينها قضيبان مرصعان بالذهب!

ويقال أن علماء الحملة صهروا الذهب الى سبائك وضعت في صناديق حديدية واخفيت في قاع الأورينت!

المهم أن الرحلة استغرقت من طولون الى الاسكندرية ستة أسابيع أنفق أغلبها نابليون في قراءاته المتنوعة عن مصر والأراضي المقدسة، بينما كان جنوده على ظهر السفن الأخرى يعانون المرض والجوع والارهاق بعد أن تلف اللحم الملح ونقص البسكويت.

أحد الأجهزة التى تستخدم فى التمهيد لعملية الانتشال البحرى

نابليون والهزيمة

ولم تدع بريطانيا غريمها نابليون يستحلب حلاوة النصر، فاطلقت وراء سفنه أسطولها بقيادة «هوراشيو نلسون» ليجوب البحار بحثاً عن سفن الأسطول الفرنسي.

كان وقتها في الأربعين من عمره، وقد



بعض أجزاء متناثرة من السفينة الفرنسية بعد انفجارها وتطاير أجزائها وهبوطها إلى القاع!

كنوز نابليون الغارقة في "أبوقير"

خدم البحرية البريطانية منذ الثانية عشرة من عمره ، وفقد عينه اليمنى في القتال ، بينما لم يتم شفاؤه بعد من أثر فقده لذراعه اليمنى أيضاً !

كان القائد الغريم لنلسون هو أمير البحر الفرنسي « بروى » الذي كلفه نابليون بعد أن نزل مع جنوده على الشاطئ أن يبحث لأسطوله عن مرفأ أمين يتمكن فيه من مناورة الدفاع والهجوم ضد أي عدوان بريطاني متوقع !

وفي الساعة الرابعة بعد ظهر أول أغسطس عام ١٧٩٨ م ، لاح الأسطول البريطاني عبر الأفق في أربع عشرة بارجة وهو يندفع في سرعة نحو ساحل أبي قير . كان نلسن يحاول أن يكتشف موقع كل قطعة من الاسطول الفرنسي بمنظاره المكبر

وهو على سطح بارجة القيادة الانجليزية « فادنجارد » وبدأت المعركة مع مغيب الشمس . وعندما خيم الظلام كان الدخان يحجب القمر تماماً .. وكان الأميرال بروى جريحاً في رأسه وإحدى يديه ! ويذكر المؤرخون أن « الأورينت » نجحت في

البداية في تعطيل البارجة الانجليزية « بللرفون » بعد أن تجرأت الأخيرة على ضربها وبعد نجاح طلقة مدفع في تمزيق الفخذ اليسرى « لبروى » الذي أبى أن يحمله أحد الى المستشفى وطلب أن يموت كقائد بحري في مكانه ، واستطاعت الطلقات الفرنسية أن تصيب « نلسون » أيضاً بجرح غائر في رأسه !

واشتدت نيران المعركة لتشب في مساء نفس اليوم النيران على ظهر السفينة « أورينت » !

ورغم هذا الحريق الهائل ، ظل الأسطول الفرنسي يقاوم ، الى أن انفجرت باخرة القيادة « أورينت » وتطايرت أجزاؤها ، صواريها وعوارضها وحبالها مختلطة بأجساد الجنود ، وطفا نحو ستين منهم وهم يتعلقون بأشياء عائمة لتحصدهم قذائف المدفعية من الجانبين !

وأبلغ بونابرت بنبأ كارثة أبو قير في ١٣ أغسطس قرب الصالحية التي تقع على طرف صحراء سيناء ، وكان يطارد واحداً من أمراء المماليك ، ويقال أنه قال لضباطه ساعة ابلاغه النبأ : « حسناً أيها السادة .. اننا مطالبون بل مكرهون على أن نأتي بجلائل الأعمال » !

البحث عن الكنز

ولكن ما هي قصة البحث عن أسطول نابليون تحت قاع البحر ، والتي ربما تتم آخر فصولها باكتشاف جديد لم يتوقعه أحد بعد أن تبدأ المرحلة الثانية من العمل خلال الثلاثة شهور القادمة ؟

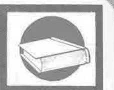
إن القصة تبدأ عندما تقرر البحث عن هذا الأسطول الغارق في قاع أبو قير ، وخاصة الأورينت سفينة القيادة التي سيتم تحزيمها بما فيها لتطفو على السطح في أكبر عملية انتشال بحري ، ثم يلي ذلك اخراج السفن الثلاثة الأخرى الغارقة وهي : لارتيمز ولورجريبه ولاسربير .

ويقول عبدالله العطار كبير مفتشي الآثار الاسلامية ورئيس بعثة انتشال الأسطول الفرنسي ، أن المبادرة جاءت من الجانب الفرنسي عندما تقدم كبير غطاسيهم ورئيس الاتحاد الدولي للغطس « جاك دوما » بطلب الى هيئة الآثار المصرية لاكتشاف بقايا الأسطول الغارق وشارك في تمويل تكلفة البحث والانتشال واحد من أحفاد نابليون

وهو « لويس جيروم فيكتور » وأرسلت البحرية الفرنسية كاسحة الألغام « فان لونج » الى الاسكندرية في العام الماضي حيث مارست عملها في دائرة مساحتها ٣٧ كيلومتراً ونجحت في تحديد مواقع السفن الأربعة .. وفي هذا العام واصلنا البحث مستعينين بأحدث الأجهزة الفنية ، وانتهت المرحلة الأولى بالتنظيف حول « الأورينت » وبالرغم من أن عملية التنظيف تمت بالنسبة للسطح فقط ، إلا أنها أدت الى اخراج مجموعة كبيرة من مقابض السيوف والبنادق والمسدسات وأحد مدافع الأورينت الثقيلة ودفتها وبكرات حبال وألواح رصاص وأزرار ستر الضباط والجنود ومسامير نحاسية وبرونزية وشمعدانات نادرة وأواني زجاجية وخزفية وعملات ذهبية وبرونزية ، وزجاجات نبيذ فارغة ومجموعة من أدوات الملاحة القديمة من بينها بوصلة واسطرلاب وبراجل وخرائط وحامل نياشين قائد البحرية الفرنسية « أدميرال بروى » وعليها الحروف الأولى من اسمه ويتدلى منها عشرة أفرع من الخيوط الذهبية ، بالاضافة الى معلقة من الذهب الخالص هي الوحيدة من نوعها في المتاحف وتبلغ زنتها ٥٠٠ جرام ، وأدوات جراحة طبية وقطع هامة من جسم الأورينت من بينها شاسيه الدفة .. وقد أعدت هيئة الآثار متحفاً مؤقتاً للقطع التي تم اكتشافها في قلعة « قايتباي » الأثرية تمهيداً لنقلها في متحف مناسب يضم كل المقتنيات الخاصة بالبحرية المصرية منذ عصر الفراعنة وسيطلق عليه اسم المتحف البحري .. وستبدأ المرحلة الثانية من الاكتشاف خلال شهري أكتوبر ونوفمبر القادمين ..

وهكذا نرى أن الأيام القادمة ستشهد على ساحل الاسكندرية بالقرب من جزيرة نلسن القابعة بصخورها بين الأمواج مولد صفحة جديدة من تاريخ الشرق الذي كان دائماً وما زال مطمعاً لأحلام وأطماع الغرب في الاستعمار بكل صوره وأشكاله القديم منه والجديد !

فاروق أباظه



بقلم: الدكتور محمد البهي



• قد نرى كثيراً من الناس ــ في حاضرنا اليوم ــ يعلنون التوبة الى الله عن ذنب أو خطأ ارتكبوه في سلوكهم مع أنفسهم أو مع الآخرين. ويعتقدون أنهم باعلانهم التوبة الى الله قد زالت آثار ذنبهم أو أخطائهم وأصبحوا مقبولين عند الله. ثم يستأنفون نفس السلوك الذي يتضمن الذنب أو الخطأ، أو يرتكبون ما هو أشد قبحاً من سابقه، ويعلنون بعده: التوبة الى الله، ويعتقدون كذلك: أنهم أصبحوا مطهرين من ذنوب الماضي وأخطائه. وهكذا.. تمر حياتهم بين أخطاء ترتكب، وتوبة الى الله تعلن. وكأن إعلان التوبة ممحاة بها الذنوب والأخطاء في أفعال الإنسان وتصرفاته، التي تنطوي على سوء أو قبح للذات أو للآخرين.

والتوبة على هذا النحو أشبه بلعبة يلعب بها المذنب ولا يدري: إن الذي يقبل التوبة من عباده هو الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو القاهر فوق عباده، وهو الجبار المتعال. وهكذا تحولت التوبة الى الله الى «شعار» يردده، دون أن تكون له حقيقة واقعة في حياة التائب، والذي حولها هو الانسان المسلم عندما خف ايمانه وأصبح هذا الإيمان «شهادة» يتلوها بقوله: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من غير أن يستجيب عملياً لدعوة الحق في توجيه الانسان، وتصرفاته، وهدايته الى الصراط المستقيم.

• واذا عدنا الى القرآن لتحديد معنى «التوبة» الى الله وجدنا: أن «التوبة» مقترنة بأمرين:

أولا: بتصفية الماضي كله وعدم العودة اليه نهائيا.

ثانيا: بانتهاج المنهج السليم في العمل والسلوك، وفي المعاملة والعلاقات بين الناس طبقاً لمنهج الاسلام في العقيدة والشريعة معا.

فعن تصفية الماضي يقول الله تعالى للذين يتعاملون بالربا: «وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم. لا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمونْ. وان كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ الى ميسرة. وان تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون» (البقرة: ٢٧٩).. فيطلب القرآن لكي تتم التوبة من المرابين: أن يتنازلوا في ديونهم عن جميع الزيادات الطارئة على رؤوس أموالهم التي أقرضوها، بحيث لا يكون هناك ظلم لأحد: لا لهم.. ولا للمتعاملين معهم. ثم للتدليل على النوايا الطيبة والاخلاص في التوبة.. يجب أن يؤجل المدين الى حين يساره، إن لم يتنازلوا له كلية عن الدين، والتنازل عن الدين كله هو في مصلحة أولئك الذين كانوا يتعاملون بالربا، قبل أن يكون في مصلحة المتعاملين معهم وهم الدينون: «وان تصدقوا (أي برأس المال والزيادة عليه) خير لكم إن كنتم تعلمون»، لأن هؤلاء المدينين لا تنطوي نفوسهم بسبب قسوة المعاملة وهم أصحاب حاجة ماسة، إلا على الحقد لمن قسى عليهم. وساعة أن يتنازل لهم عن الدين يتبدل حقدهم الى صفاء، فمحبة، والحقد شر ما يبتلى به الإنسان.

وعن الأمر الثاني وهو انتهاج المنهج السليم في العمل والسلوك يقول سبحانه جلت قدرته: «ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا: ان ربك من بعدها لغفور رحيم» (النحل: ١١٩).. فيربط القرآن غفران الله وقبوله للتوبة.. بتوبة التائب عن عمله السيء الذي صدر عنه من غير قصد، والتزم حين توبته في عزم وإرادة قوية: بتغيير عمله، في نوعه وفي أسلوبه، بحيث يكون عمله الجديد تعويضاً عن الماضي وإصلاحاً لأخطائه.

أما إذا أعلن التوبة واستمر على منهجه فيما قبل التوبة، فتوبته عندئذ هي شعار فقط، يرفع دون أن يثمر: «وليست التوبة للذين يعملون السيئات» (النساء: ١٨). أي الذين يستمرون في عمل السيئات، سيئة بعد أخرى.

وهكذا: نجد حقيقة: «التوبة الى الله» مركبة من أمرين: من الندم على ذنب فات ووقع من غير قصد، ومن مباشرة العمل المثمر الصالح الذي توحي به هداية الله تواً في غير إبطاء وفي عزم أكيد: «واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة: انه من عمل منكم سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح، فانه غفور رحيم».. (الأنعام: ٥٤).. والذين يعمدون الى السوء ويقصدونه، ثم يعمدون الى إعلان التوبة فلن تقبل توبتهم: لأن قصدهم الى السوء لا يحقق ندمهم على اقترافه.

وان أمارات الضعف للمسلمين هي في أن تتحول مفاهيم دينهم الى شعارات، تظل بعيدة عن التطبيق في حياتهم. وان أمارات قوتهم وقربهم الى الله هي في أن تكون حياتهم العملية تعبيراً عن إسلامهم، بدلا من أقوالهم التي لا مدلول لها..

العميل المزدوج!

المواطن العربي الذي اشتهر بحبه للأسفار والمغامرات والمسمى بالسندباد، عاد إلى بلده إثر انتهاء رحلته السابعة التي كانت زاخرة بالأخطار والمفاجآت والوقائع الغريبة المدهشة .

ولما علم أصدقاؤه بعودته ، أتوا إلى بيته كعادتهم مستفسرين بفضول عما جرى له أثناء رحلته ، فحكى لهم وقائع كثيرة مثيرة مشوقة انتزعت من حناجرهم شهقات التعجب ، ثم أعلن في ختام حديثه أنه قد تعب وآن له أن يهجر الأسفار ويخلد إلى الراحة ولاسيما أنه قد صار عجوزا ، فقال له أحد أصدقائه بلهجة موبخة : «من المؤسف أن تتخذ هذا الموقف الشائن ، وهو موقف لا يليق بك ، وينبغي لك أن تسارع إلى التخلي عنه ، وأن .. » .

فقاطعه السندباد قائلا : «تكلم بوضوح ولا تكن كالأدباء الذين يحتاجون إلى خمس آلاف كلمة كي يقولوا فقط إن الذبابة هي ذبابة . هيا قل ما تريد دون لف ودوران» .

قال الصديق : «أأنت عربي أم أجنبي ؟» .

فقال السندباد : «ماهذا السؤال المهين ؟ أنا بالطبع عربي ، ولا أحد يجرؤ على الشك في أصالة عروبتي» .

قال الصديق : «إذا كان ماتقوله صحيحاً فلماذا زرت بلدان العالم ولم تزر البلاد العربية التي هي بلادك ؟ أليس مخجلاً أن تجهل وطنك العربي الذي تزعم أنك تنتمي اليه ؟ أنا أعتقد أن الوطني المخلص يعرف بلاده أولاً ثم يحاول بعدئذ أن يعرف بلاداً أخرى» .

ففكر السندباد فيما سمعه ، ثم قال لصديقه : «أنا أقر بأن انتقادك لي صائب ، وأعاهدك على أني سأزور البلاد العربية كافة في أقرب وقت» .

وبعد أسابيع قليلة ، بر السندباد بعهده ، وسافر بالطائرة إلى إحدى المدن العربية التي اختارها كي تكون بداية لرحلته الاستطلاعية في أرجاء الوطن العربي . وما أن حطت الطائرة على أرض المطار حتى بادر السندباد إلى النزول منها ، وهرع لانجاز الاجراءات الأمنية والجمركية المطلوبة من كل مسافر آت إلى تلك المدينة .

قدم السندباد جواز سفره إلى موظف الأمن الذي دقق مطولا في الجواز ، ثم قال للسندباد متسائلا : «ماغايتك من هذه الزيارة ؟» .

قال السندباد : «الاطلاع على أحوال الناس والبلاد» .

قال موظف الأمن : «وما مهنتك ؟» .

قال السندباد : «لاعمل لي في الحياة إلا السفر من بلد إلى بلد» .

فحدق موظف الأمن إلى الثياب العتيقة التي يرتديها السندباد ، وقال له : «أأنت مليونير متنكر ؟» .

فابتسم السندباد بمرح ، وقال : «لا . لا . أنا لا أملك من متاع الدنيا الا القليل من المال والثياب وراديو ترانزستور يوضع

خواطر تسر الخاطر



بقلم : زكريا تامر

في الجيب» .

قال موظف الأمن وقد تجهم وجهه واحتد صوته : «أأفهم من كلامك أنك فقير ولا مهنة لك وتزور البلاد من أجل معرفة أوضاعها ؟» .

قال السندباد : «أحسنت . لقد لخصت حالي أروع تلخيص وبأقل عدد من الكلمات» .

فقال موظف الأمن بصوت صارم مهدد : «ابق مكانك ولا تتحرك وانتظرني حتى أرجع» .

ودخل موظف الأمن إلى إحدى الغرف وهو يحمل بيده جواز سفر السندباد ، ومكث فيهادقائق ، ثم خرج منها وبرفقته شرطيان ، ودنا من السندباد ، وقال له وهو يشير بسبابته إلى الشرطيين : «اذهب معهما» .

فهم السندباد بالكلام مستنكرا ، ولكن أحد الشرطيين لكزه في خاصرته لكزة فظة آلمته ، وقال له : «أمركَ بالمشي معنا فامش معنا بلا أي كلمة» .

واقتاد الشرطيان السندباد إلى غرفة فسيحة لاتوجد فيها إلا طاولة جلس وراءها ضابط شاب .

قال الضابط للسندباد : «اسمك السندباد ؟» .

فهز السندباد رأسه بالايجاب ، فقال الضابط : «أهذا اسمك الحقيقي؟» .

فدهش السندباد ، وقال باعتداد : «هذا هو اسمي ، ولا اسم لي غيره» .

لاذ الضابط بالصمت ، وشرع في تقليب جواز سفر السندباد ، ثم قال له فجأة : «من أرسلك إلى بلادنا وما المهمة المكلف بتنفيذها ؟» .

فحملق السندباد إلى الضابط مبهوتا ، فضحك الضابط بهزء ، وقال : «مابك ؟ هل ظننت أننا أغبياء إلى حد أنك تستطيع خداعنا ؟ هيا اعترف ولا تحاول الإنكار والا اضطررت الى استخدام أساليب ستجبرك على الاعتراف حتما ، ومادمت ستعترف وتتكلم فمن الأفضل لك ولنا أن تتكلم فوراً» .

قال السندباد مذهولا : «عن أي شيء اتكلم !» .

فقال الضابط بنزق : «لا تتصنع البلاهة والسذاجة . أحك بالتفصيل عمن أرسلك وعن أهدافك من هذه الزيارة» .

قال السندباد : «لم يرسلني أي شخص وغايتي الوحيدة من هذه الزيارة هي أن أطلع على أحوال الناس والبلاد» .

قال الضابط : «أن تطلع على أحوال البلاد أم أن تتجسس على البلاد ؟» .

فقال السندباد بغضب : «أنا عربي ، والعربي لايتجسس على أخيه العربي» .

قال الضابط : «لن تخدعنا بمثل هذا الكلام الذي تعودنا سماعه من كل خائن عميل جاسوس . من الواضح أنك شخص عنيد لايفيد معه الكلام اللطيف» .

وأشار الضابط إلى الشرطيين ، فانقضا على السندباد ، وانهالا عليه بالصفع واللكم والركل ، فسقط أرضا ، وتعالى صياحه مستغيثا متوسلا ، ولكن الضرب استمر ، وازداد قسوة وعنفا وضراوة حتى سالت الدماء من فمه وأنفه وأذنيه ، وأحس بألم كأن آلاف السيارات مرت فوق جسده ، فزحف نحو الضابط ، وقال له بصوت متهدج : «ارحمني . سأقبل حذاءك . سأفعل كل ماترغب فيه» .

قال الضابط : «ستعترف وتتكلم» .

قال السندباد : «سأعترف» .

فأشار الضابط إلى الشرطيين ، فكفا عن ضرب السندباد .

قال الضابط بلهجة آمرة : «هيا تكلم واعترف» .

قال السندباد : «بماذا تريد أن اعترف ؟» .

قال الضابط : «اعترف بأنك خائن وعميل لدولة معادية» .

قال السندباد : «ولكني لست عميلا لأحد . أنا مجرد شخص يهوى الرحيل من مكان إلى مكان ، ورحلاتي كتبت عنها حكايات للكبار والصغار ونشرت بمختلف لغات العالم» .

قال الضابط : «إذن أنت تعترف بأن اخبار رحلاتك قد نشرت بلغات اجنبية ؟» .

فهز السندباد رأسه موافقا ، فقال الضابط : «هذا دليل لا يدحض ، ويبرهن على أنك عميل لجهات أجنبية . هيا اعترف والا ...» .

ونظر السندباد إلى الشرطيين ، فألفاهما كذئبين جائعين متأهبين لالتهامه ، فانتحب ، وقال : «إحترموا شيخوختي . أأضرب وأذل وأهان وقد بلغت من العمر عتيا ؟» .

فقال له الضابط بصرامة : «من يتعاون مع الأجنبي لا احترام له لدينا ، وعليك الآن أن تختار بسرعة إما استمرار الضرب وإما الاعتراف» .

قال السندباد بخنوع : «سأعترف» .

فقال الضابط لأحد الشرطيين : «اكتب اعترافاته» .

فقال السندباد : «مادمتم تعرفون ما سأعترف به ، فاكتبوا اعترافاتي وأنا سأوقع عليها» .

فقال الضابط للشرطي : «اكتب : اعترف المدعو السندباد بأنه عميل مزدوج يعمل لصالح المخابرات الاميركية والمخابرات الروسية ، وكلفه تشيرنينكو باثارة النعرات الطبقية والاضطرابات ، وكلفه ريغان بتدبير انقلاب عسكري للاطاحة بنظام الحكم» .

قال السندباد باعياء : «هل تريدون مني شيئا آخر ؟» .

فضحك الضابط ، : «لا داعي إلى العجلة ، وما حدث لك الآن مجرد صفحة واحدة من كتاب ضخم ، ولدينا الكثير من الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة منك» .

فأغمض السندباد عينيه ، ورأى بحرا هائجا يحطم السفينة التي يركب فيها ، فيسقط في الماء ، ويصطدم بلوح خشبي من الواح السفينة ، فلا يحاول الإمساك به ، بل يدفعه بعيدا عنه ، ويستسلم ببهجة لقوة غامضة تجره الى قاع البحر .

- اللغة الإنجليزية في نيجيريا رمز للاضطهاد والقسوة .. أما اللغة العربية فهي لغة الدين والذوق والوجدان
- محاولة لتكسير الإنجليزية تعبيراً عن رفضها من جانب المواطنين
- أكثر من ٢٧ ألف مدرسة قرآنية لتعليم الدين واللغة العربية في نيجيريا

الثقافة العربية في نيجيريا

بقلم : الدكتور عبد الحميد إبراهيم

– ١ –

ان نيجيريا اليوم تبحث عن شخصيتها ، خلال ثلاثة محاور ثقافية ، تتصارع وتتداخل فيما بينها ، وهي اللغة العربية ، ولغة الهوسا واللغة الانجليزية ، وتبدو مظاهر هذا الصراع والتداخل حتى عند الرجل العادي ، فهو يحادثك بلغة تختلط فيها العربية والهوسا والانجليزية .

والنيجيريون على وعي بهذا الصراع ، ويوجهونه نحو غاية تهدف في النهاية الى خلق الشخصية النيجيرية الموحدة ، التي ترتبط بهموم واقعها ، وقد تكرر هذا الهدف كثيراً على لسان قادة الفكر . ان الدكتور الحاج جنيد يعبر عن الكثيرين من ابناء وطنه حين انتقد نظام الجامعات في نيجيريا ، وقال في كلمته التي القاها في جامعة احمد بللو ، لمناسبة منحه درجة الدكتوراة الفخرية (اعذروني اذا قلت ان جامعتكم هذه كسائر الجامعات في نيجيريا هي نبت ثقافي مستورد ، تبدأ جذوره في تقاليد اخرى ، وهي جزء من تركة الثقافة التي ورثناها من اتصالنا بهذه التقاليد ، ومازلنا نحاول التلاؤم معها) ثم يذكر ان الجامعات في بلده انما هي نيجيرية في الاسم والموقع الجغرافي فقط ، لأنها لا ترتبط بالمجتمع ، ان المعرفة وحدها لا تكفي ومجرد التعبير وحده لا يدل على تقدم ، ولكن الازدهار الحقيقي ان يرتبط كل ذلك بالواقع ، ثم يقول (انني اوافق على ان كل ثقافة لها اعتبارها ، وان كل الثقافات تهدف لأهداف واحدة ، وتشترك في المبادىء الاساسية ، ولكن هناك فوارق دقيقة بين ثقافة واخرى ، وهذه الفوارق على دقتها هي الأساس الذي يميز بين شخصية كل ثقافة ، وعندما تمحى هذه الفوارق الدقيقة ، التي تميز ثقافة جماعة معينة ، فان هذه الجماعة نفسها لا تلبث ان تضمحل) (١) .

ولكن المشكل هو التمييز بين الدخيل والجوهر في الثقافة النيجيرية ، بين النبت المستورد الذي يحمل عناصر ثقافة خارجية ، والنبت الذي ينمو داخل التربة المحلية ، ويوم ان يتم ذلك التمييز بدقة ، فان نيجيريا ستجد شخصيتها التي تبحث عنها .

– ٢ –

والثقافة الأجنبية المستوردة ، التي يعنيها الحاج الجنيد وامثاله ، هي الثقافة الانجليزية ، التي ادخلتها حركات التبشير ، وروج لها الاستعمار حتى اصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة الرسمية للدولة ، ولغة التفاهم بين كثير من النيجيريين .

ووجد الاستعمار مقاومة شديدة من النيجيريين ، وظل منذ سنة ١٨٦١ م – وهي السنة التي احتل فيها لاجوس في الجنوب – يحاول ان يحتل الشمال ، معقل المسلمين وموطن دولة الشيخ عثمان ، ولم يكتب له الانتصار النهائي إلا سنة ١٩٠٣ ، فاستسلم اهل الشمال عن كره ، وهادنوا الانجليز ظاهريا ، وقلوبهم تضمر لهم العداوة ، وقد كتب الوزير محمد النجاري رسالة الى اهل العلم والتدبير ، يبرر فيها الصلح مع الانجليز ، اذ يجوز موالاة الكافر باللسان دون القلب ، ويستدل بالآية الكريمـــة (إلا ان تتقوا منهم تقاة) ويرى ان هذا بلاء سيزول بمشيئة الله ، كما زال المغول الذين احرقوا بغداد ، وكما زال القرامطة الذين غزوا مكة . (٢)

وصورة الرجل الابيض تعني في ذهن النيجيري صورة المختطف الذي يسرق الآلاف من السود ، ويسوقهم مكبلين بالحديد الى بلاد مجهولة ، يعملون عبيداً ، ويتركون الاهل والوطن ، رايت بعيني سائحة إنجليزية ، اقتربت من طفلة نيجيرية لتربت على كتفها ، فاذا بها تصرخ بتشنج ، وحدثني احد الاصدقاء انهم كانوا في سيارة في طريق عمومي فاشار لهم رجل نيجيري لكي يحملوه معهم ، ففعلوا . وحين اضيئت الانوار وهم يسيرون ، واكتشف انهم ملونون ، اصابه

هكذا يكتبون الخط العربي في نيجيريا

الرعب وصاح باعلى صوته : ابيض! ابيض! وظن انهم سيحملونه مكبلا الى بلاد مجهولة، ولم يهدأ حتى انزلوه .

إن اللغة الانجليزية لاتحتل جزءا من وجدان النيجيري ، انها تجري على لسانه في الظاهر فقط ، اما في داخله فهي رمز للاضطهاد والقسوة ، انه ينطقها بطريقة تحطمها ، هي ليست انجليزية صحيحة ولكنها انجليزية مكسرة، وكان النيجيري من حيث لا يشعر يحاول ان يكسر قواعدها ، ويحطم ابنيتها ، ويلوي مفرداتها ، فينتقم منها بطريقته الخاصة .

وحاول الاستعمار بكل الوسائل ان يحارب اللغة العربية او ان يبعدها من المدارس الحكومية ، وان يستبدل الحروف اللاتينية في لغة الهوسا بدل الحروف العربية (الخط المغربي) ، الذي كانت تكتب به لغة الهوسا قبل مجيء الاستعمار وان يحول بين النيجيري وبين الازهر الشريف .

ولكن كل هذه المحاولات لاقت مقاومة شديدة من النيجيريين انفسهم. ان تقرير وزارة المعارف لسنة ١٩٦٠ يثبت ان عدد المدارس القرانية في الشمال ، وهي المدارس التي يقيمها الاهالي ، لتعليم الدين واللغة العربية ، يفوق بكثير عدد المدارس ، التي تقيمها الحكومة وتجعل الانجليزية لغة رسمية بها ، فقد بلغت المدارس القرانية ٢٧ر٦٠٠ مدرسة ، يدرس فيها ٤٢٣ر٩٥٤ طالبا في حين بلغت المدارس الحكومية ٢ر٤٩٠ مدرسة ، يدرس فيها ٣١٦ر٢٦٤ طالبا (٣) والاحصائيات تثبت ايضا أن عدد الذين يكتبون الهوسا بالحروف العربية لا يزال ، على الرغم من محاولات الاستعمار، يفوق الذين يكتبونها بالحروف اللاتينية في شمال نيجيريا . (٤) وقد كتبت الجرائد النيجيرية عام ١٩٥٠ ، تنتقد موقف الحكومة الانجليزية ، لأن « الازهر قد تفضل باعطاء بعض المنح الى النيجيريين ولكن الحكومة لم تقبل تلك المنح » (٥) .

– ٣ –

يقول عيسى البى ابوبكر ، وهو من الشعراء الشباب في نيجيريا ، عن اللغة العربية ، وذلك في المؤتمر الذي عقدته كلية التربية – بالورن ، عن أهمية اللغة العربية :

ابن فودى ادارهـا بهدي الله
تعـالى فصـار في الأرض قطبا
لغـة الضـاد عنده كـانت الأو
لى سواهـا يعد عيبـا وثلبـا
غـلية المرء ان يكـون عزيزاً
وإذا عز صـار للغير طبـا
ايهـا النـاس ارحمـوا لغـة الضا
د ولا تخـفقوا بذلك رعبـا
لا تقولوا اباءنـا من قديـم الـ
ـعهد ليسوا – كما يظنون – عربا
ان تاريخنـا يقـر بأنـا
عـرب ، طالعوا – رجالي – كتبا

ان هذا الشاعر الشاب هو امتداد لاجيال قبله ، ترى في اللغة العربية جزءا من تاريخها وتعبيرا عن وجدانها .

دخل الاسلام عن طريق التجار الى غربي افريقيا ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، وازدهر في القرن الخامس عشر على يد القبائل الفلانية ، وهي قبائل كانت تهاجر من مكان الى مكان في غربي افريقية تنشر دينها ، وتتمسك بثقافتها الدينية ، وقد زارهم فرنسيس موار ١٧٣١ على نهر الجامبيا وقال عنهم : (انهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلمون العربية لانهم يتعلمونها في مدارسهم) ، وكانت هذه القبائل تؤثر باخلاقها واخلاصها على سائر القبائل الاخرى، حتى استطاعت في بداية القرن التاسع عشر ان تؤسس خلافة اسلامية ، وحدت غرب افريقيا ، بزعامة الشيخ عثمان ، وهو ابن فودى الذي يعنيه الشاعر الشاب والذي جعل اللغة العربية لغة رسمية في غرب افريقيا ، حتى قضى الاستعمار على هذه الخلافة عام ١٩٠٣ م .

فالاسلام لم يدخل عنوة ، ولم يترك ذكريات اليمة ، واللغة العربية لم تفرض نفسها على السنة القوم ، بل هم كانوا يندفعون الى تعلمها ويعتبرون ذلك واجبا دينيا ، ويمثل الازهر الشريف حلم كل افريقي ، لانه رمز للعربية والاسلام ، ولم تنقطع صلتهم به منذ القديم ، فقد كانوا يمرون به وهم في طريقهم الى الحج ، ويتزودون من العلماء ، وقد اتصل الشيخ محمد الفلاني الكشناري بالجبرتي وصادقه ، واقام عنده بعد عودته من الحجاز ، حتى توفى بالقاهرة ، وهناك رواق في الازهر لمملكة (البرنو) ، وهي أوسع ممالك نيجيريا القديمة ، ولا يزال اسمها باقيا حتى الآن ، وكان أول ملك من ملوكها قد هداه الله للاسلام في اواخر القرن الحادي عشر . وكان الطلبة النيجيريون يشكلون اعدادا كبيرة تقيم في هذا الرواق ، وفي رواق المغاربة ، ورواق الدكارنة ايضا .

واستمر اتصال النيجيريين بالازهر الشريف حتى ايام الاحتلال ، وتطور الامر بعد الاستقلال ، وارسلوا البعثات الكبيرة ، عاما بعد عام (٦) ، ينهلون منه ، ويرون في الاتصال به انتصارا للعلم ، وتحقيقا لشخصيتهم ، ومقاومة للغزو الثقافي الذي فرضه الاستعمار عليهم ، يقول الشاعر الشاب

في قصيدة اخرى ، انشاها سنة ١٩٨٣ ، حين زار شيخ الأزهر نيجيريا ، وتتبع فيها باجلال شديد ، شيوخ الأزهر شيخا فشيخا ، يقول :

ازهر الخير من قديم مكـــــان
يشرب الناس فيه ماء الزلال
قد مضى العصر حوله وهو باق
لا يرى في الوجود شر الزوال
يا صقلي بنيته معهدا فيـــ
ـه تبث العلوم للاجيـــال
وبضاء نور الهداية والايـ
ـمان للناس من قرون طوال
يذكر اسم الاله فيه رجـــال
خير بالغدو والاصـــال
ثم يحمون من ضيـــاع ولحـن
لغة الضـــاد او من اضمحـلال
موجة الغزو سدها القوم بالايـ
ـمان والعلم او كريم الخصـــال

وحين انشئت الجامعات في نيجيريا ، كانت مرتبطة بالجامعات الغربية ، وخاصة جامعة لندن ، واخذ النيجيريون ينتقدون هذا الوضع الذي يخلق بيئة غريبة داخل بيئة ، ويطالبون بارتباط الجامعات بالواقع ، وبالتعبير عن الشخصية النيجيرية ، وهم يعنون بذلك صراحة ان تهتم الجامعات بدراسة التاريخ الافريقي ، ومشكلات المجتمع النيجيري ، وان تدرس اللغات النيجيرية ، وان تهتم باللغة العربية ، وهي لغة المسلمين في البلاد .

واخذ املهم يتحقق شيئا فشيئا ، ففي مجال اللغة العربية مثلا انشئت اقسام كثيرة للغة العربية والدراسات الاسلامية ، حقا كانت في اول امرها على غرار المعاهد الشرقية في الجامعات الاوروبية ، تدرس الدين الاسلامي من خلال افكار ومؤلفات المستشرقين ، وتدرس المناهج العربية باللغة الانجليزية ، ولكنها تاخذ الآن في التخلص من هذا الارتباط ، ويتضح ذلك في قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة (عبدالله تايرو) بكانو ، وفي قسم اللغة العربية بجامعة (سوكوتو) ، فان الدراسة فيهما باللغة العربية ، ويقوم بالتدريس اساتذة من مصر والسودان ، ومن بلاد افريقية قد تخرجوا من الأزهر الشريف ، يعودون الطلبة على الرجوع الى المصادر العربية القديمة ، ويطلبون منهم كتابة البحوث باللغة العربية ، ويعقدون الندوات ويلقون المحاضرات . وكل ذلك يساعد على خلق بيئة صالحة لازدهار العربية من جديد ، واسترداد مكانتها التي فقدتها بعد الاستعمار .

ـ ٤ ـ

كان كتاب (مركب العوام الى دار السلام) هو اول كتاب بلغة الهوسا ، كتبه حفيد الشيخ عثمان ، وهو الشيخ سعيد بن امير المؤمنين محمد بللو ، وقد كتب مقدمته باللغة العربية ، يعتذر فيها عن هذا الصنيع الذي جعله يترك كتابته باللغة العربية ، لغة الدين التي كان يكتب بها اجداده واباؤه ، ويسوق من الاحاديث والآيات ما يبرر هذه الضرورة وانه يريد ان تصل نصائحه الى اهله وبلغتهم ، والله تعالى يقول (وانذر عشيرتك الاقربين (يا ايها الذين امنوا قوا انفسكم واهليكم نارا) (وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه) . وبعد تلك المقدمة التي يبرر فيها صنيعه يكتب بلغة الهوسا ، ولكن في حروف عربية ، وفي الخط المغربي الذي كانت تكتب به لغة الهوسا حتى مجيء الاستعمار (انظر الشكل المرفق) . ويخيل لي ان الشيخ عثمان نفسه كان يحس بهذه الضرورة حين افتى بجواز تعلم القصائد باللغة الاعجمية وقال ان من يعلم الناس يحتاج الى فطنة ليظهر الحق لهم بما يفهمونه ولو بالاعجمية ، فان المطلوب هو ذوق القصائد بالقلب) (٨) .

ان لغة الهوسا لا تحس بالصراع مع العربية ولا تراها لغة معتد دخيل ، بل العربية هي جزء من ثقافتها ، وقد استعارت منها الحروف ، وخمس مفرداتها ، والأهم من كل ذلك انها استعارت منها فيما يمس الوجدان الداخلي ، وهو اهم شيء في تركيب الشخصية ، وتشكيل نظرتها نحو الواقع والكون ، فقد استعارت منها ما يمس الطقوس الدينية ، ولا تزال المساجد في نيجيريا تلقى خطبتها مرة بلغة الهوسا واخرى بالعربية واستعارت منها ايضا الأوزان والبحور الشعرية والقافية ، مما يرتبط اكبر ارتباط بتشكيل الذوق .

ـ ٥ ـ

يخيل لي اننا اقتربنا الآن بعض الشيء ، نحو حل الاشكالية التي تميز بين العارض والجوهر في الشخصية النيجيرية . ان اللغة الانجليزيـــة تحمل له ذكريــات اليمــة ، تصدم وجدانه كل حين ، اما اللغة العربية فهي ابدا لا ترمز الى القسوة والعنف وسرقة الرجال والاطفال وانتهاك النساء ، بل هي ترمز الى الدين ، وترتبط بوجدان النيجيري ، وتعبر عن ذوقه ، وترمز الى الشرق ، الى مكة مرة ، والى الأزهر الشريف مرة اخرى . وابدا لم يكن هناك تصادم بين العربية والهوسا ، بل هناك تداخل وتواؤم ، فكلاهما من اللغات الافريقية ، والهوسا تحس انها بنت العربية ، فهي لا تستطيع ان تقف على قدميها بدونها لان تراثها المكتوب ، لا يمتد الى الوراء كثيرا ، انه يعود فقط الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ان العربية تمثل لها العين الاخرى التي يمكن ان تطل بها على الثقافة والحضارة والتاريخ .

ان المستقبل فيما يخيل لي سيكون للغة العربية ، وسوف تنتصر كما انتصرت في مصر والسودان وشمال افريقيا ، وحينذاك ستجد فيها لغة الهوسا تعبيرا عن تطلعاتها كما وجدت فيها ذلك لغات القبط والبربر والنوبة من قبل .

ان التاريخ لا يخطيء مسيرته ، فقط بتدخل العنصر البشري للاسراع بتلك المسيرة ، ان لدينا الأزهر الشريف ولدينا الاموال المتوافرة في بعض البلاد العربية ، ويوم ان يتم التحالف بين الأزهر والمال ، فان التاريخ سوف يسرع في مسيرته ، وسوف يشرق نور العربية على غرب افريقيا وجنوبها كما اشرق من قبل على شرقها وشمالها .

عبدالحميد ابراهيم
سوكوتو ـ نيجيريا

الهوامش

١ ـ حركة اللغة العربية وادابها في نيجيريا : شيخو احمد سعيد غلادنث ص ٢٧١ (القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨٢ م)

٢ ـ المرجع السابق ص ٣٢١

٣ ـ انظر نص التقرير في (الثقافة العربية في نيجيريا) ص ٥١٢ . تاليف الدكتور علي ابو بكر (بيروت ـ ١٩٧٢

٤ ـ المرجع السابق ص ٣٧٢ .

٥ ـ حركة اللغة العربية ص ٢٥١

٦ ـ لمعرفة الاعداد والسنوات انظر المرجع السابق ص ٢٥٢ .

٧ ـ ديوان الشاعر ـ مخطوط .

٨ ـ حصن الافهام من جيوش الأوهام ص ٢١ (القاهرة ـ مطبعة الزاوية التيجانية ـ ١٣٧٧ هـ)

صورة حية ورائعة لأديب سعودى موهوب لا يعرفه الكثيرون يكتبها صديقه الأديب العربى المصرى يوسف الشارونى

الضحك حتى الموت

بقلم: يوسف الشاروني

ترددت كثيراً قبل أن اكتب عن هذا الصديق ، فقد تعودنا في شرقنا العربي أن نخفي مشاعرنا ونخجل منها حينا ونعتبرها نوعاً من المباهاة حيناً آخر ، تلزمنا فضيلة التواضع أن نتجنبها . لهذا فانه حتى أدب السير ــ ولا أقول أدب الاعترافات ــ يندر وجوده في تراثنا الأدبي قبل بداية أدبنا الحديث . أما نشر رسائل الأدباء الخاصة فأمر لا وجود له إلا إذا كانت من نوع رسائل ابي العلاء المعري التي يرد فيها على بعض من يراسلونه فتطول وتصبح فناً أدبياً رائعاً ، فتقاليدنا الاجتماعية والأخلاقية اذن تضع حدوداً ــ وما تزال ــ على جرأتنا على الكشف عن دخيلة أنفسنا ، ونفضل أن نرتدي الأقنعة عندما نعلو المسرح أمام جمهورنا .

وبرغم كل هذه الاعتبارات ، وهذه التقاليد التي تجثم على تاريخنا الأدبي ، وجدت أن من حق الصديق سعيد سليمان كردي ــ الذي سبق أن أشرت إليه في مقالي عن الأديب السعودي الكبير أحمد السباعي في عدد يونيو من مجلة الدوحة والذي تكرم بموافاتي بالمراجع التي عاونتني على القيام بنزهتي الأدبية في عالم هذا الأديب ــ أقول إن من حقي عليه أن أودعه بكلمة بمناسبة رحيله عن دنيانا في الساعة السادسة من صباح الجمعة ١٤ شوال عام ١٤٠٤ هـ الموافق ١٣ يوليو ١٩٨٤ م بعد مرض طويل كافحه بروح الفكاهة والسخرية والدعابة قبل أن يكافحه بالطب والعقاقير .

وكل أديب لابد وأن يكون له وبالضرورة جمهور قراء يحبه ويتتبع كتاباته ، وإلا فكيف يوزع مؤلفاته ومن ذا الذي يواظب على شرائها ؟ هؤلاء القراء المختفون يتمثلهم الأديب أمامه حين يكتب في هيئة قارئ مجرد ــ مثل المجردات في عالم المثل الأفلاطوني ــ وهم أحد دوافعه القوية للكتابة وللاستمرار فيها حتى وان زعم أنه لا يعبأ بوجود هذا الجمهور .

وأحياناً ما يلتقي الكاتب فجأة وعلى غير انتظار لقاء عابراً بأحد هؤلاء القراء ــ ربما في اقصى مكان من الأرض حيث يعتقد أن صوته لم يصل ولن يصل ــ فيحدثه قارئه كيف يتابعه منذ سنوات ، وكيف وقع في يده كتاب من كتبه بمحض الصدفة ــ أو قرأ له مقالاً أو قصة ــ فلما أعجب به أصبح قارئه ، ثم يذكر له تفاصيل دقيقة مما قرأ واضح أنها أصبحت جزءاً من وجوده ، فيدرك الكاتب أن كتاباته قد حفرت آثارها في ذاكرة قارئه الذي يراه يعامله باحترام شديد ــ كأنما ما توقع أن يلتقي به يوماً ما أو أن يكون مثله من لحم ودم ــ فلا شك أن مؤلفه كان فكرة مجردة حتى ولو كان قد لمح صورته من قبل في وسائل الإعلام ، ثم تجسد أمامه فجأة للحظات . تلك هي احدى المتع القليلة للكاتب في مجتمع تسوده أغلبية أمية أبجدية وثقافية وروحية .

غير أن هناك أفراداً من هذا الجمهور القارئ لديهم الجرأة أن يكونوا أكثر إيجابية من بقية القراء ، فلا يتركون لقاءهم بكاتبهم لصدفة قد لا تقع ، فيقررون في لحظة ــ لابد وأن تكون عواطفهم أو حماستهم نحو هذا الكاتب قد نضجت كما تنضج الثمرة ويحين أوان جنيها أو قطفها ــ أن يصبحوا اكثر اقتراباً من كاتبهم فيرسلون له معبرين عن حبهم له وإعجابهم بما يكتب . وليس من الضروري أن يكون أفضل كاتب يقرأون له ، لكنهم ربما يستشفون من كتاباته أنه يصلح أن يصبح صديقاً لهم ، وأنه لن يعرضهم لتجربة صد أو عدم مبالاة . ولعل عملية انتقاء تحدث بين الطرفين المتراسلين ، شأنها في ذلك شأن علاقات الحب والصداقة في الحياة ، فليس كل من راسل كاتباً وجد استجابة ولا الكاتب يستجيب لكل رسالة يتلقاها .

تلك هي أيضاً إحدى متع كل أديب ، هؤلاء الأصدقاء الأعزاء الذين يجسدون له قراءه المجهولين المجردين ، إذ يبرزون من غبش هذا السديم الذي يكتب له الأديب ويسفرون عن وجودهم فاذا هم من لحم ودم .

رسائل الصديق

ومنذ أكثر من عشرين عاماً ــ ربما ــ تلقيت خطاباً بالقاهرة عليه عنواني بخط لا اعرفه ، فقلبته لأقرأ الراسل : سعيد سليمان كردي ــ حي الملز ــ الرياض .. وفتحته فاذا به كلمات أحد هؤلاء الأصدقاء المجهولين الذين يخجلون الأديب بكلماتهم

الودية المشجعة ــ ها أنا ذا أسقط في رذيلة المباهاة التي يجب أن نتجنبها بحكم تقاليدنا ، ومع ذلك فقد تواتيني الشجاعة مرة أخرى لأذكر نص الكلمات التي اخجلني حقاً أن يغمرني بها .

وقد شدني في اسلوب هذا الصديق الجديد القديم شيء ما جعلني أقرر الاحتفاظ بخطابه ولو لفترة ــ لا سيما وأن الخطاب كان فيه ما يتطلب رداً . ومع أنني كسول في كتابة مايسمى بالرسائل الإخوانية ، وأعجب من نفسي كيف أستطيع أن اكتب صفحات طوالاً تنتمي إلى ما يسمونه أدباً وأعجز عن كتابة سطرين رداً على رسالة صديق ، إلا أنني بادرت بالرد عليه . ولجأت إلى حيلة طالما لجأت إليها للخروج من مثل هذا المأزق ،ضرورة الرد على رسالة دون أن أكلف نفسي كثير عناء . ذلك أنني أنتظر أو أنتهز فرصة الأعياد فأرسل بطاقة تهنئة متضمنة رداً موجزاً ــ بحكم المساحة الصغيرة المتاحة على البطاقة . وبذلك أضرب عصفورين بحجر كما يقولون،تهنئة ، ورد ديون رسائل سابقة .

وسرعان ما تلقيت رداً على الرد ، وتتالت المراسلات بيننا ، وكانت رسائله تتميز بأنها مكتوبة بأسلوب أدبي رفيع تدل على ثقافة كاتبها وسعة اطلاعه كما تتخللها روح الفكاهة والدعابة . فلما تقابلنا أثناء زيارة له بالقاهرة ــ أسعدني أن أكتشف أنه لواء بالشرطة السعودية وأن له محاولات ادبية ــ أطلعني عليها فيما بعد ــ وأن عنده مكتبة تضم مؤلفات معظم الأدباء العرب المعاصرين ، كما أنه يحفظ كثيراً من الشعر العربي قديمه وجديده ، وطالما استشهد به في رسائله الى ، كما أحزنني أنه يعاني من مرض السكر وهو ما يزال في أواسط العمر .

وتعددت بعد ذلك لقاءاتنا بالقاهرة كلما جاءها في مهمة رسمية أو مستشفياً أو سائحاً (بعد احالته إلى المعاش) . أما خطاباته فقد أخذت ترتفع كومتها على مر السنوات لتملأ مجلداً لو تقرر نشرها .

ومنذ شهور نزلت ضيفاً على عمان ، وكنت قد تباطأت في الكتابة إليه لانشغالي بأمور السفر ، فأرسل لي يقول : في الأسفار خمس فوائد : تفريج هم واكتساب معيشة ،وعلم ، وآداب ، ونسيان صديق .

من وجد أصحابه العمانيين ، نسى احبابه السعوديين . الصبر جميل .

وعندما فاز الأديب السعودي الكبير الأستاذ أحمد السباعي بجائزة الدولة التقديرية أرسلت إليه أطلب منه موافاتي بمجموعته القصصية الوحيدة «خالتي كدرجان» . فأرسل لي مجموعة كبيرة متنوعة من المؤلفات القصصية السعودية ، ورد علي قائلاً :

هل تصدق أن طلبك البسيط حركني ، وأورثني نشاطاً كنت مشتاقاً اليه . متقوقع كسلحفاة عجوز ، حركني الخروج من غرفة والدخول لغرفة ، الهبوط لمكتبتي الصغيرة بالدور الأول ، والصعود ثانية لتناول ما صنعته ست البيت من غذاء شهي ، أو رؤية حلوى يسيل لها اللعاب لا إذن لي بتذوقها .

ثلاثة أرباع وقتي قراءة ، إذا هرب النوم من عيني ــ وكثيراً ما يهرب ، أو انتابني قلق ــ ودائماً ينتابني . وتضغط علي مخي افكار ملونة منها البيضاء والسوداء وما بينهما أفتح الكتاب لأقرأ ، لا دعوة للنوم انما طرداً له .

سيدة البيت تقول لي :

ــ لو كنت متزوجاً ثلاثاً غيري لهان الأمر ورضيت بحكم الله . وعلى طول المدى لاتفقنا عليك ، وأرهقنا صحتك وأعصابك ، ومزقنا جيبك من كثرة الطلبات .

ــ كنت سأدعو الله أن يسلط عليهن شهريار جديداً .

ــ ستأتي شهرزاد أخرى تفك رقابنا .

وواصلت ست البيت دردشتها :

ــ ما العمل في هذه الكتب المرصوصة في صفوف لا يقل مجموعها عن ألفي كتاب أو تزيد ، منها الكبير الضخم ، والصغير المراهق . أرى في كل كتاب ضرة تأخذك مني ، وتنفرد بك وهات ياللمس ياهمس .

في شفتيها
في كفيها
في قدميها
ويداك ضارعتان
ترتعشان من لهف عليها »
« ويشب في قلبي حريق
ويضيع من قدمي الطريق
شك ! ضباب ! حطام
بعضي يمزق بعضي ! »

تصرخ على الأولاد إن عبثوا بأحد الكتب أو لم يعيدوه الى موضعه .

بحق أم هاشم والأولياء والصالحين والصالحات أن يصد نفسك قليلاً عن خلوة الكتب فهي شغلك .

ــ فال الله ولا فالك ، هو الينا ولا علينا ... احمدي ربك أن سخر لك زوجاً كالفالوذج .

ابتسمت

« وناظرتني .. وألقت
برأسها فوق كتفي .
تباعدت وتدانت
كأصبعين بكفي »

وقامت من مجلسها بصعوبة .

« ودنت لتسألني على حدة عما أريد ...

فقلتها : أنت » .

حوار معاد ، واسطوانة يتكرر

سماعها ، وشريط يلف ويلف .

ثم يختتم رسالته بتبرمه أن قلمه ينساب عند كتابة الرسائل ويتوقف عن كتابة القصة :

لمن أشكو ؟

لمن أحكي ؟

لمن أقول : أنا مظلوم ؟

من هذا القلم اللعين ، يتمطى في الرسائل الخاصة ، ينكمش حتى كأني به يتلاشى ويذوب فلا يمدني بمشروع أقصوصة . أسمعه يقول : ذلك يحتاج لهندسة وتخطيط ، فلا ينفع في البناء الطوب النيء ولا طمي النيل .

أطأطئ رأسي في صمت وأقول في نفسي :

ــ مقادير ، إيش ذنبي أنا ؟

لم أر منك يوماً ضوءاً أحمر أو علامة توقف أو اشارة انتظار . منطلق . الأنوار كلها خضراء أمامك في الطريق والمنعطفات ، والبترول في بلادي رخيص . هكذا خلقت .

ابتسامات بين السطور

فلما وصله ردي بالشكر على ما أرسله من مؤلفات الأخوة الأدباء السعوديين جاء رده :

قلت في رسالتك إنك لم تطلب سوى خالتي كدرجان فبعثت لك بأبنائها وأحفادها وأخوتها وأخواتها .

خالتي كدرجان أمست عجوزاً وهن منها العظم ، واشتعل الرأس شيباً . تساقطت أسنانها ، تلعثمت وتفأفأت في حديثها . إرتعشت أطرافها ، تفككت مفاصلها . كان لزاماً أن يرافقها بعض أحفادها لساعدتها في تحركها ، شارحين حديثها ، ذاكرين حياتها .

ابن اختها السباعي ٩١ سنة عرفها في طفولته شابة على اعتاب الزواج ، فلابد أن تكون من عمرها المديد الآن تزداد خريفاً وتكثر تخريفاً .

بأسلوب الحريري وبديع الزمان .

عجوز دردبيس . تأكل الهريس . تؤنس الجليس . تتحدث عن حرب البسوس . تشرب العرقسوس . ابن اختها السباعي لقولها داع ، لأمورها راع . بعثت معها مرافقين ، خوف أن تكون من التائهين . لا تعرف شوارع عمان ، ولا قصر السلطان ، لتذهب اليه ، وتشكو لديه ، ما فعل بها الزمان ، فأحوجها لترجمان ، وبيدها عكازان .

تقول بصريح العبارة . فوجئت بالشرائط ولم يكن هذا من المتفق عليه . وهل الهدايا مما يتفق عليها ؟ سرني أن أعجبك الشريط الذي يحمل صوت المغنية ابتسام لطفي . فكلامها بالفصحى لذا تمكنت من تتبعها والاستماع إلى طبقات صوتها وهو يعلو حينا وينخفض حينا مردداً :

ــ تعال من نهر الحب نشرب .

كأنما الصوت ينخفض بدوره على نهر الحب ليشرب هو أيضاً !

ابتسام أخذ الله بصرها ، ومنحها جمال الصوت وحسن الأداء . سعودية بالتبعية والولاء ، والولادة وطول البقاء ، لا بالأرومة والأصالة . لا يبعد أن تكون تركية من سلالة العثمانيين ، أو مغربية هاجر أجدادها ، أو مصرية ــ وهو ما أميل إليه ــ من شارع محمد علي ، استضفنا إحدى جداتها لإحياء حفلة عرس وغنت وقالت :

ــ مبروك عليك يا معجباني يا غالي ، عروستك الحلوه أمر (قمر) يلالالي . لا شك أعجبتها الإقامة فاستدعت زوجها وبقية الأسرة ، وخلفا صبياناً وبنات . وأيامها لا رخص اقامة ولا جوازات سفر ، لا شرطي يتعقب ولا شيخ حارة يقتفي الأثر . البلاد مفتوحة الذراعين عندنا وعندكم . أهلا وسهلا . لابتسام أخ يمارس الغناء . يجيد غناء قصيدة مطلعها :

وهل بالطلول لسائل رد

أم لها بتكلم عهد

رسالة من المستشفى

وجاءتني آخر رسائله :

تحية حزينة من حزين .

اتصلت بي أسرتي هاتفياً بالمستشفى وأخبرتني بسؤالك عني . دمعت عيني تأثراً لصديق يتتبع أخباري ، انشغل باله لتأخري عن محادثته فسارع للاستفسار عن حالي .

« كل أحبائي القدامى نسوني

لا فؤاد يجيب لا عفراء .

وأنا الحزن من زمان صديقي ،

وقليل في عصرنا الأصدقاء .

فجراح الحسين بعض جراحي ،

وبصدري من الأسى كربلاء . »

« أنا عمر بلا شباب ،

وحياة بلا ربيع .

فمن يبيع ؟ »

في المستشفى وعلى السرير الأبيض ، والممرضات يحطن بي ...

« تعاودني ذكراك كل عشية

ويورق تفكيري حين فيك أفكر .

وتأبى جراحي أن تضم شفاهها

كأن جراح الود لا تتخثر .

أودك ، لا تفسير عندي لصبوتي ،

أفسر ماذا ، والود لا يفسر . »

لا تؤاخذني في خربشتي

« طفل يخربش فوق حيطان النجوم ،

فرح أنا ، ورسائلي فرحت معي

هل للرسائل ياترى أعصاب »

من المستشفى ، من فوق سريري أبعث برسالتي ، فهي مريضة الاسلوب ، هزيلة القوام ، مهتزة الحرف ، الا أنها صادقة الاحساس ، مترعة إخلاصاً ، ممتلئة وداً .

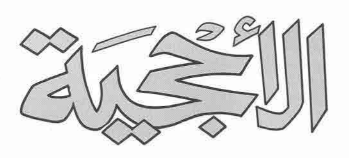
وخرج من المستشفى وعاد إليه ... ليخرج منه لكن .. إلى غير دنيانا .

إن أصدقاءنا جزء من وجودنا ، وبصمتهم ندرك أن جزءاً منا قد كف عن الوجود ، وان ظلت اصداؤهم تتشبث بنا ونتشبث بها .

إن اصداء ضحكات سعيد سليمان كردي تتجاوب في الفراغ الذي خلفه رحيله فتطغى على آلام فراقه .

وليعذرني كل من يعتبرني اتحدث عن قضية شخصية جداً ، لأن هذه الخصوصية الشديدة هي بعينها منفذها إلى عموميتها وانسانيتها .

يوسف الشاروني



الأضحية

قصـــــة جديـــــدة

بقلم: الدكتور عبدالسلام العجيلي

في جلسة الأربعاء المسائية في دار السيد بدر الدين ، في البلدة الصغيرة دار الجدل في آخر الجلسة حول موضوع النية والعمل . ودار في أشده ، كما ألف الحضور ، بين الصديقين اللدودين الشيخ عبد السميع والدكتور حبيب . الا أنه لم ينته في هذه المرة ، شأنه في كل مرة ، باستسلام الدكتور حبيب لغريمه على كره ، متظاهراً على الرغم منه بالاقتناع بحجج مجادله ، بل اتخذ الحديث اتجاهاً آخر سنتعرف عليه في حينه .

بدأ الأمر بعتاب مقارب للتقريع وجهه الشيخ عبدالسميع لصاحبه الطبيب على الطريقة التي اتبعها في معالجة فتى من أهل بلدتهم ، اسمه اسماعيل ، فارق الحياة منذ أيام قليلة . كان الدكتور حبيب مقتنعاً منذ البدء بأن داء الصبي لا شفاء منه . ومع ذلك فقد وصف له أنواعاً من الأدوية والمعالجات ارهقت جيوب أهله المحدودي الموارد ولم تزد حاله إلا سوءاً . ثم أشار عليهم بنقله الى المدينة الكبيرة لمعالجات جديدة لم تفد ، إن كانت أفادت ، إلا باطالة عمره أياماً معدودات قضاها في تألم وعذاب . إن أهل الصبي ، مثل كل أبناء البلدة ، يعملون باشارة الدكتور حبيب لثقتهم بمعرفته وباخلاصه فيما يرتئيه لهم ، فلماذا لم يترك اسماعيل لمشيئة الله ما دام علم الأطباء وأدويتهم عاجزة عن أن تحمل إليه العافية ؟ أليست إساءة اجترمها الدكتور حبيب في حق الصبي حين ساهم في إطالة أيام عذابه ، وفي حق أهله بما كبدهم من نفقات هم أحوج اليها في متطلبات عيشهم ؟

تلقى الدكتور حبيب هذا العتاب المقارب للتقريع بسعة صدر وبابتسامة عريضة دأب على أن يتلقى بها مماحكات الشيخ عبدالسميع فيزيد من غيظه ومن حدته في النقاش . باستطاعته أن يرد على الشيخ بأن قسم أبقراط الذي بدأ به مزاولته لمهنته يلزمه بأن يجهد لابقاء شعلة الحياة في أجساد مرضاه بكل وسيلة ممكنة . إلا أنه خشي من أن يفتح على نفسه ، باحتجاجه بأبي الأطباء أبقراط الاغريقي ، الوثني ، باب هجوم جديد من الشيخ . لذا آثر أن يدفع الحملة عليه بأسلوب آخر ، فقال :

ـ أنا معك يا شيخي في كل ما تكلمت به . وإنما يجدر بك أن تجد عذري في نيتي الحسنة التي كنت أضمرها لاسماعيل . كنت أحاول أن أطيل في عمره ، وما حاولت ابداً أن أزيد من عذابه .

قال الشيخ عبدالسميع بحدة : نيتك الحسنة ... نيتك ! ماذا يهمني أنا من نيتك ؟ العمدة في ما جرى هي على العمل . وأنا أحكم عليك من عملك لا من نيتك .

وهنا اتسعت ابتسامة الدكتور حبيب على شفتيه حتى قاربت الضحكة فقال الشيخ :

ـ لم يبق إلا أن تضحك . أترى فيما تصرفت به ما يضحك ؟

قال الدكتور حبيب : لم أضحك لتصرفي يا عزيزي الشيخ . أنا مثلك قاربت أن أبكي على ما جرى للصبي ، على الرغم من كوني طبيباً مرت به حالات كثيرة مثل حالته وأكثر إثارة للحزن . ولكني وجدتك تتكلم مثل الفرنسيين الكفرة يقولون في أحد امثالهم إن أرض جهنم مرصوفة بالنيات الحسنة . وابتسم كذلك لحكاية ، مرت بخاطري وأنت تذكر النية والعمل ، فأردت أن أستفتيك فيها .

وتهيأ الشيخ ليرد على صاحبه بقسوة ، إلا أن السيد بدر الدين ، رب الدار ، وجد له مجالاً ليحول الحديث الى مجرى آخر فقال :

ـ وما هذه الحكاية يا حكيمنا ؟

قال الطبيب : ليسمح لي شيخي الأستاذ عبدالسميع بأن اتركها الى الجلسة القادمة . هي حكاية طويلة ، وأنا على موعد . ثم إني اريد الرجوع اليها في كتاب عتيق من مخلفات المرحوم جدي . قرأتها في صباي وأحسب أن بعضاً من تفاصيلها قد امحى من ذهني . تصبحون على خير ، والسلام عليكم .



— ٢ —

وفي أمسية الأربعاء التالية ، في دار السيد بدر الدين ، بدأ الحضور جلستهم بالتساؤل عن حكاية الدكتورحبيب التي وعدهم بروايتها لهم .

قال الطبيب : ليست هي حكاية ، بل معضلة أحب أن أستفتي شيخنا الفاضل بها . لا ... بل هي أحجية أريده على أن يحلها لي ، ولكم .

ولما كانت الأيام السبعة الماضية قد طامنت من تشديد الشيخ في محاسبة الطبيب على تصرفاته ، فقد بدأ أكثر استعداداً لسماع ما يقوله غريمه الدائم ولتقبل ما يدلي به من آراء . بل أنه أراد أن يجاريه في مرح المحاورة فابتسم وهو يسأله :

— أحجية ؟ وهل تطلبت أحجيتك سبعة أيام من التحضير قبل أن تطرحها علي ؟

قال الطبيب : لم تتطلب كل هذا الوقت . عدت الى كتاب جدي المرحوم ثاني أيام جلستنا الفائتة ، ووجدت فيه الحكاية بتفاصيلها . ولكنك تعلم يا شيخي أن ظروفنا ، أنا وكثير من إخواننا الحاضرين لا تسمح لنا بالتلاقي إلا في جلسة الأربعاء هذه .

قال السيد بدر الدين : ألا تقصها علينا هذه الحكاية ، أو تطرحها علينا إذا كانت ، كما تقول ، أحجية ؟

فرد الدكتور حبيب قائلا : اصبروا علي قليلاً . عدت الى كتاب جدي لأسترجع ما كنت قرأته في صباي ... كتاب هو مجلد مهترئ من تلك التي يسمونها الكتب الصفراء ، والتي يشبه بعضها بيدر قش مدفونة فيه جوهرة : يضيع وقتك وتختنق أنفاسك ، وتغثي معدتك أحيانا ، وأنت تفتش فيه ... إلا أنك تنسى كل ما لقيته من عناء حين تحظى بالجوهرة ، أو الجواهر المدفونة فيه .

قال أحد الحضور مستعجلا : الحكاية يا دكتور ... الحكاية !

قال الطبيب : نعم ، الحكاية . إنها قصة أخوين شقيقين ، الكبير اسمه محمد ، والصغير أحمد . ذكرني ما قرأته من صفاتهما بي وبأخي الشيخ عبدالسميع . ألسنا أخوين في الله يا أستاذ عبدالسميع !

فأجابه الشيخ ، وقد تهلل وجهه : بلى إن شاء الله .

فسأل سالم أفندي ، وهو مأمور البريد في البلدة : من منكما يا دكتور الكبير ، ومن منكما الصغير؟

قال الطبيب : الشيخ عبدالسميع هو محمد ، إنه أكبر مني سناً وقدرا ، وأنا الصغير ، أحمد . نعم ، هما أخوان لأم وأب . توفي أبوهما وترك لهما ثروة طائلة ومنزلا في بستان في ظاهر المدينة أقاما فيه معاً واختص كل منهما بجزء منه . سكن الكبير في الطابق العلوي ، وهو شقة فخمة مملوءة بالرياش والتحف الثمينة . الا أنه اقتصر في سكناه على العلية ، أعني على حجرة صغيرة فوق السطح أثاثها فراش متواضع وسجادة صلاة ، وليس فيها من الآنية غير كوز للشرب وابريق للوضوء . ذلك بأن الأخ الكبير كان شاباً تقياً ، زاهداً في طيبات الحياة ، همه الصلاة والتفكر في بدائع خلق الله وعجائب آياته . وكانت سكناه في العلية تتيح له الابتعاد عن ضجيج الناس في الأرض وعن مشاغل الدنيا الفانية . أيامه قراءات في الدين وتأمل ، ولياليه ابتهالات وتبتل واستغفار الى الله من نزعات الشيطان ونزوات النفس الأمارة بالسوء ...

وهنا عاد سالم أفندي نفسه الى السؤال قائلاً :

— هذا عن الشيخ عبدالسميع ، أعني عن محمد . وماذا عنك أنت يا دكتور ، أعني عن أخيه الصغير أحمد ؟

قال الطبيب ، متجاهلاً لهجة مأمور البريد الساخرة :

— أحمد هو الابن الصغير ، لذا كان صبي أبيه المدلل في حياته . اختص أحمد



بالطابق الأول إلا أن اقامته كانت بصورة دائمة في قبو المنزل أو سردابه . في القبو يقضي أغلب ساعات نهاره وكل ساعات ليله ، وفيه يستقبل أصدقاءه والمترددين عليه ، ويحيي حفلاته الساهرة التي تبدأ منذ المغيب وتستمر حتى الفجر أو الى مطلع النهار . كان أحمد على خلاف أخيه فتى ماجناً منصرفاً الى لذائذ العيش ، مولعاً بالشراب والعزف والغناء ، وبرفقة عشراء السوء من الرجال والماجنات المبتذلات من النساء . لم يتورع هذا الفتى عن أن يحيل السرداب الذي يقيم فيه الى مقصف لهو ، وذلك في الدار التي يساكنها فيه أخوه ، وعلى مرأى ومسمع من ذلك الأخ الزاهد الورع . وفي إحدى الليالي ...

وهنا تدخل سالم أفندي مرة أخرى في الحديث مقاطعاً ، فقال : أبهذا تصف نفسك يا دكتور ؟

قال الطبيب : أنا أصف أحمد ولا أصف نفسي . إذا كنت تراني هكذا يا سالم أفندي فليسامحك الله ... وليرحمني .

قال الشيخ عبدالسميع مخاطباً الدكتور حبيب ، كالمطيب لخاطره :

ــ أخونا سالم أفندي يمزح . أنت لست الصغير أحمد ، وأنا أكثر انشغالاً بالدنيا وبهارجها من أن أكون مثل أخيه الكبير ، ولو أني تمنيت على الله أن يرزقني تقوى ذلك الأخ وزهده .

قال السيد بدرالدين ، متجاوزاً هذا الملام الهامشي : من فضلك يا دكتور أكمل الحكاية .ماذا جرى في إحدى الليالي ؟

قال الطبيب : نعم يا سيدي ... في احدى الليالي أقام أحمد ، الأخ الصغير ، في ذلك القبو إحدى سهراته الماجنة ، وقل أن تمر ليلتان دون إقامة واحدة منها . العزف والقصف كانا في ذروتهما ، والجو في قاعات السرداب مثقل بانفاس الساهرين والساهرات وبأدخنة اللفائف المتكاثفة وبروائح الأشربة بأنواعها . وفي منتصف الليل أحس الفتى ، أعني أحمد ، بضيق في صدره فخرج الى الحديقة الصغيرة الملحقة بأرض الدار ليتنشق الهواء النقي فيها . كانت الليلة ربيعية مزدهرة الأنجم ، رائقة النسيم ، وأرجاء الحديقة معطرة بأنفاس الياسمين والورد الجوري . عب ملء رئتيه من ذلك النسيم الرطيب ورفع رأسه متطلعاً الى النجوم فوقه فشده التماعها في زرقة السماء الداكنة كأنما كان يراها لأول مرة . وحانت منه التفاتة فوقع نظره على ضوء العلية التي يسكنها أخوه محمد على سطح الدار ، ضوء ضئيل يتسلل من طاقة صغيرة كأنه في التماعه الخافت نور إحدى النجوم البعيدة في صفحة السماء . لتلك النظرة احس أحمد برعشة تهز كيانه وبيد تعصر قلبه بين أضلاعه . من أعماق القبو كانت تصل اليه الحان الموسيقى الراقصة مقطعة برنين الكؤوس وبالغناء والضحكات الماجنة وفوقه كانت السماء الرائعة الجليلة البهاء ، وضوء العلية الذي أحس بأن اشعته ، على خفوتها ، كانت تنفذ الى صدره كأنها حراب مسنونة ، أو كأنها السنة لاذعة ناطقة تقول له : أما تستحي يا أحمد ؟ ... أما تتقي الله يا أحمد ؟ عشرة اعوام مضت عليك منذ توفى الله أباك وأنت غارق في الموبقات ، تتبع خطوات الشيطان فيما يزين لك من المعاصي ، أمام عيني اخيك التقي الورع وعلى بعد خطوات من مصلاه ! ماذا جنيت من مقارفة شهواتك غير لذة زائلة تعقبها المرارة في الفم والعذاب في الوجدان بعد أن تكون أهدرت فيها صحتك وأنفقت مالك ؟ أنظر الى أخيك في العلية واستح من نفسك ... لذته وجدها في القرب من الله ، ونعيمه لقيه في رضاه ، وبالهما من نعيم ومن لذة لا يقاس بهما ما تجنيه من إشباع شهواتك البهيمية ومن صحبتك لهؤلاء الفاجرين والفاجرات ...

وهنا تساءل أحد الجلوس ، مقاطعاً الدكتور حبيب وهو منطلق في وصفه المؤثر لحال الفتى أحمد :

ــ أهو إحساس بالتخمة ، أم هي يقظة ضمير ؟

قال الطبيب : العلم عند الله ، وهذا ما جرى وما خيل الى أحمد أن أشعة الضوء المنبعثة من طاقة العلية تحدثه به . خيل اليه أنها كانت تهتف به : أحمد ... أحمد ... أما تستحي من نفسك ؟ فاستحى من نفسه . شعر بعبث الحياة التي عاشها منذ مات أبوه ، منذ عشر سنوات ، وثقل ما حمل عنقه من أوزار في هذه السنوات العشر . وفي تلك اللحظة سطع في أعماقه نور سكن الرعشة التي تملكته وحرر قلبه من اعتصار الأصابع المطبقة عليه . في هداية هذا النور عزم على أن يسعى الى أخيه الكبير في عليته ، فيقطع عليه صلاته المنصرف اليها في تلك العلية ، وينكب على يديه مقبلاً ومعلناً له أنه طلق الدنيا ودنس ملذاتها طلاقاً لا رجعة فيه ، ومتوسلاً اليه أن يقبله في زاوية من عليته ليغسل بدموع الاستغفار ذنوبه السالفات ، عسى الله أن يقبل توبته ويقيه عذاب النار الموقدة ويتقبله في زاوية من جنته التي وعد بها من تاب وأناب .
نعم ، عزم أحمد على هذا ، وباشره .انطلق في لحظته تلك ، غير مفكر بالتعريج على رفاق السوء الغارقين في مفاسدهم في احشاء القبو ، وتوجه بجسده وروحه الى علية أخيه ، متخذاً طريقه اليها السلم القائم في وسط الدار ، وقد إغرورقت عيناه بالدموع وفاضت جوانحه بأنوار العودة الى الله تبارك وتعالى ...

وهنا علا صوت الشيخ عبدالسميع هاتفاً بتأثر :

ــ انها هداية الله . سبحانك اللهم سبحانك ! أكمل يا أخي الحكيم .

فارتسمت على شفتي الدكتور حبيب ابتسامة خفيفة ، بين المكر والرضى ، كأنما سره أن يثير ما قاله اعجاب الشيخ عبدالسميع ، وقال :

ــ سأكمل . في تلك الدقائق التي جال فيها في خاطر أحمد ووجدانه ما جال ، وساقه الى ما ساقه اليه ، كان الأخ الكبير ، محمد ، منصرفاً في عليته الى صلاته وتهجده واستغفاره وتسبيحه ، وفي اللحظة التي أحس فيها أحمد بضيق في صدره دفعه الى أن يخرج من السرداب الى الحديقة أحس محمد برغبة في أن يريح ساقيه مما خلفه فيهما تواتر الركوع والسجود من الخدر ، فخرج من الحجرة الصغيرة الى سطح الدار وراح يتمشى عليه ، والى النجوم المتعلقة فوقه ، واصغى الى ما تلتقطه أذناه من

اصوات قريبة وبعيدة . كانت كما قلت لكم ليلة ربيعية صاحية السماء تلألأت أضواء نجومها في عين الفتى محمد وملأ نسيمها الرائق صدره ، فحمد الله على نعمه التي لا تحصى وسبحه على عجائب ما ابتدعه من أكوان . وحين وقف من السطح على الحافة فوق نوافذ القبو الذي يقيم فيه اخوه ، وتناهت الى سمعه ضجة الساهرين فيه ، حوقل واستغفر ، ودعا الله بحرارة الى أن يهدي أخاه الضال الى صراطه المستقيم ...

لم يملك الشيخ عبدالسميع نفسه ، عندما سمع هذه الجملة الأخيرة ، من أن يرفع صوته قائلاً :

ــ الله أكبر ! استجاب الله دعاء الرجل الصالح .

فاتسعت لهذه الكلمات ابتسامة الدكتور حبيب ، الرضية الماكرة ، على شفتيه وتابع حديثه . قال :

ــ دعا الله ربه أن يهدي أخاه الضال الى الصراط المستقيم بينما كان يصغي الى الأصوات المتعالية من كوى القبو . ميز من بين تلك الأصوات أنغام غناء تطلقها أصوات رخيمة على ألحان موسيقى شجية ، وتناهت الى أذنيه ضحكات ناعمة تنبض بالبهجة والفرح . وفي رقة النسيم الذي كان يتسلل نديا الى صدره وفي روعة هذا الليل الربيعي تحولت الأنغام المطربة المرحة في خاطر محمد ، الذي كان في عنفوان شبابه ، الى صور حية تخيلها عن الساهرين في أعماق ذلك القبو ، وعما يرتعون فيه من لهو شائن ولذاذات فاجرة . تخيلهم فتيات وفتياناً في ربيع العمر وفي زهو الصبا يصفقون ويرقصون ويتساقون الأنخاب ،قد أعطوا نفوسهم هواها وألقوا الهموم وراء ظهورهم . وتخيل الوجوه الصبيحة والقدود المشيقة والصدور المشرئبة متلاصقة متعانقة ، والعيون تنطق بالرغبات الفائرة والشفاه منتشية بطلا الكؤوس ولمى القبلات . وتخيل أخاه ثملاً ، مترنحاً ، يتنقل بين أذرع الفتيات وأحضانهن ، فأحس الى جانب الرثاء له بشيء من الحسرة . أهي حسرة ؟ لعلها الغيرة أحس بها من أخيه ! منذ موت أبيهما وهذا الأخ الصغير سادر في غيه يعب من الشهوات عباً ، غير مكترث بما يجر عليه الركض في دروب ابليس من نقمة الرحمن عليه . لا ... كيف يحكم على أخيه هكذا ؟ لعل إيمان ذلك الأخ بأن الرحمن هو ربه الذي أطمعه بعفوه ومغفرته حين يؤوب اليه في ذات يوم تائبا مستتيبا . اليس هو الرحمن الرحيم ؟ أما هو ، محمد الأخ الكبير ، فقد حرم نفسه طيبات ما خلق الإله الكريم رهبة من بطشه تعالى وفزعاً من عذابه . لمن أبدع الله الوجه الجميل والصوت الرخيم واللقمة الهنية والملبس الناعم إلا لابن آدم ؟! وعادت الى خاطر محمد وهو يسأل نفسه هذا السؤال ذكريات جفاء عشر سنوات مرت به ، منذ وفاة أبيه ، وذكريات شظف الحياة الذي راض نفسه عليه فيها ، لا يلبس من اللباس إلا الخشن ولا يأكل من الطعام إلا الجافي ... يقضي نهاره صائما وليله قائماً ، واذا ثارت في عروقه الدماء بالشهوة العارمة لعن الشيطان وأحرق شهواته بجمر الحرمان . ترى ماذا غنم زيادة عن أخيه بهذه القسوة التي أخذ نفسه بها ؟ أليس اذا تاب أخوه غداً يعفو الله عنه فيفوز بنعيم الآخرة بعد أن روى نفسه من نعيم الحياة الدنيا ؟! فماذا لو عب هو ، الأخ الكبير ، بعض جرعات من النعيم الذي يعب منه في هذه اللحظات أخوه وأصحاب أخيه ؟ كفاه ... كفاه ضياع عشر سنوات من عمره قضاها في شقاء وحرمان تغنيه عنهما في آخر حياته توبة يتقدم بها الى ربه فيغفر له ذنوبه ، إذا كان التنعم بلذائذ ما خلق الله ذنباً ! جدير بهذه التوبة أن يتقبلها منه الخالق الرحيم ، اللطيف بعباده ، فيزحزحه عن ناره ويدخله جنته ...

وهنا سكت الدكتور حبيب لحظات ، كالمنتظر ، من سامعيه تعليقاً على ما استرسل به من رواية لخواطر الأخ الكبير في وقفته على سطح الدار ، وهو يستمع الى ما تناهى اليه من قبو أخيه من أنغام وأصوات ، ويتصور المشاهد التي توحي بها تلك الأنغام والأصوات . إلا أن السامعين في الجلسة المسائية ظلوا على سكوتهم ، مرتقبين معرفة ما سيفعله الأخ الزاهد بعد ان استبدت به هذه الخواطر المبعدة كثيراً عن تأملات الزهاد . فتابع عندئذ الطبيب حديثه قائلاً :

ــ كم استمر محمد في التخيل والتفكير بهذه الصورة التي أقصها عليكم ؟ ليس هذا المهم . المهم أن التساؤل الأخير الذي طرحه على نفسه ، بشأن تذوق بضع جرعات من ينبوع اللذة الذي يعب منه أخوه ، تحول الى رغبة عارمة ، وأن الرغبة تحولت الى عزم وإقدام . بدا له في تلك اللحظات أن كل دقيقة يمكثها في عليته بعد الآن هي خسارة من عمره لا تعوض وأن عليه أن ينحدر في التو الى أخيه ليستدرك فوت ما حرم منه في دقائق السنين العشر الفائتة وثوانيها . أترى أخاه يفسح له مجالا في دنيا الشهوات الجنية التي يعيشها ! لابد من أنه





فاعل ... اليس هو أخاه الكبير؟ وبدون تردد ، ولهب الرغائب المجنونة التي طالما كبتها يتأجج في عروقه ، أسرع الى السلم الذي يتوسط المنزل ذي الطابقين منحدراً نحو أخيه ...

وهنا قال الشيخ عبدالسميع بصوت مختنق : اللهم عفوك ... أتراه يفعلها الفتى الزاهد ؟

فرد عليه مأمور البريد ، في لهجة بين السخرية والاهتمام الجاد ، قائلاً : انتظر يا شيخي . لن يذهب زهد الرجل سدى . سيهدي الله به أولئك الفجارويخرجهم بكرامته من قبو الضلالة الى النور .

ولم يلق الدكتور حبيب بالاً الى كلام الرجلين ، بل تابع قائلاً :

ــ انحدر محمد الى قبو أخيه في أسفل الدار في نفس اللحظة التي صعد فيها أخوه الى لقائه في العلية على سطحها . كلاهما توجه الى غايته مسرعاً ، على درجات السلم الطويل الذي يخترق طابقي البناء بين السرداب والسطح . سلم ضيق ، ملتو على نفسه ، غارق في الظلمة اذ لم يضأ فيه نور منذ هجر محمد طابقه العلوي الى حجرته على السطح ولزم أحمد قبوه مستغنياً به عن بقية الدار . والتقى الأخوان ، دون أن يدري أحدهما بقصد الآخر ، ودون أن يراه أو يسمع له حساً ، في منتصف السلم . التقيا ؟... الصحيح أن أحدهما اصطدم بالآخر فجأة ، وبقوة . كان محمد يقفز الدرجات نزولاً في عجلته الى بلوغ الدرك الأسفل حيث تنتظره فاتحة ذراعيها عرائس اللذات ، وكان أحمد ينهبها صعوداً الى العلية في عجلته الى الاغتسال بأنوار التوبة من درن الخطايا ، فاصطدم أحدهما بالآخر . تشابكت منهما الأذرع بالأرجل ، والتوى جسد أحدهما على جسد اخيه ، وتدحرجا على درجات السلم ، الضيق والطويل المظلم ، الى أن وصلا الى القاع .

وحين وصلا اليه كانا جثتين هامدتين ...

وتوقف الدكتور حبيب عن الكلام فاطلق أحد الجالسين من بين شفتيه صفرة اندهاش ، بينما قال الشيخ عبدالسميع كالمفاجأة بما سمع :

ــ غفرانك ربي ! لاحول ولا قوة إلا بالله .

وأعقب ذلك صمت استمر برهة ، سأل بعدها السيد بدرالدين كأنه لم يصدق سمعه :

ــ ومات الاثنان ؟

قال الطبيب : نعم ماتا ، دون أن ينطق احدهما بكلمة قبل موته . كل ما تذكره القصة أن نية أحدهما قبل لحظة مغادرة الدنيا كانت في القطب المقابل لعمله أثناء حياته . نفض أحمد ، وهو الأخ الصغير الفاجر الداعر ، يديه من المعاصي والخطايا ونوى التوبة والرجوع الى ربه بقلب نقي من الأدران . أما الأخ الكبير ، التقي النقي ، فقد تحلل من تقاه في اللحظة التي سبقت موته وأسرع الى حيث كان مصمماً على أن يعطي نفسه هواها ، فمات وهو عاقد النية على ذلك . كل منهما عمل شيئاً ، ثم تحول عن عمله ونوى شيئاً آخر . فعلى أي من الاثنين ، يحاسب الله العلي القدير كلا منهما ، على العمل أم على النية ؟

قال مأمور البريد ، جاداً كل الجد في هذه المرة : حكاية غريبة . والحق معك يا حكيم حين قلت عنها أنها أحجية . لابد للانسان أن يتساءل في نهايتها الى أين يكون مصير محمد ، وما مصير أحمد ... أيهما سيكون جزاؤه الجنة ، وأيهما جزاؤه النار ؟!

قال الطبيب بلهجة ظاهرها البراءة وباطنها مكر : وجه سؤالك الى الشيخ عبدالسميع يا سالم أفندي . إنه استاذنا وعلمه في هذه الأمور فوق علمنا .وتوجهت الأنظار الى الشيخ عبدالسميع منتظرة ما يرد به ، فبدا عليه التردد خلال برهة ، ولم يلبث أن قال :

ــ هذه ليست مجرد أحجية يا حكيم . إنها مصيبة ... مأساة . أو لعلها ، اذا صحت وقائعها ، محنة أراد سبحانه وتعالى أن يمتحن بها عباده ، الصالحين منهم والطالحين ، له فيها حكمة لا ندرك نحن المساكين أبعادها .

قال الدكتور حبيب : هذا تهرب يا شيخ عبدالسميع . نريد رأيك فيما سأل عنه سالم أفندي . من ترى بين الأخوين مصيره الجنة ، ومن تراه يصير الى جهنم ؟

فبدا على الشيخ الضيق الذي يهدد بعودته الى حدته المعهودة في مجادلة الطبيب . ولعل هذا ما دعا السيد بدرالدين الى التدخل والى أن يقول :

ــ اسمحوا لي جميعاً بكلمة . إنها احجية كما اتفق أكثرنا على تسميتها ، والأحجية لا تحل بلحظة واحدة . دعونا نفكر بها ، ولعلنا نستفتي بها أهل العلم من غير شيخنا الشيخ عبدالسميع . ما قولكم اذا تركنا الحل الى جلستنا المقبلة ، في مساء الأربعاء القادم ؟

ووافق جميع الحضور على اقتراح السيد بدرالدين ، وانفضت تلك الأمسية .

* * *

قبل أن يحين موعد اجتماع الأصحاب في دار بدر الدين يوم الأربعاء التالي ، بل وفي مساء اليوم الذي أعقب الجلسة الفائتة ، فوجئ الدكتور حبيب بالشيخ عبدالسميع يدخل عليه غرفة المعاينة في عيادته . كان الطبيب يتهيأ للانصراف بعد أن فرغ من العناية بآخر مرضاه ، فرحب بصاحبه الشيخ متوقعاً أنه جاء لشكوى يشتكيها في جسده . إلا أن الشيخ عبد السميع تضاحك وهو يحمد الله ، قائلاً إنه في عافية تامة ، وأنه جاء مستعجلاً قبل يوم الاجتماع ليحدثه في أمر الأحجية التي طرحها هو الطبيب على الحضور ، وعليه هو خاصة ، الشيخ عبدالسميع ، أمس .

قال الدكتور حبيب : إذن فقد وجدت لها حلاً ؟ أراهن على أنك لم تنم الليلة البارحة ، بل قضيتها في تقليب كتب الفتاوى ومراجعة أقوال سادتنا الفقهاء القدماء .

قال الشيخ : حقاً لم يغمض لي جفن ليلة أمس . ليس لأني كنت أبحث عن حل الأحجية في الكتب ، بل لأني كنت أفكر .

فقال الطبيب مازحاً : أنت تفكر ؟ عجيب !

ابتسم الشيخ عبدالسميع وقال : اسخر كما تشاء . هل تذكر تشبيهك إياي ونفسك

بالأخوين محمد وأحمد ؟ هذا الذي طرد النوم عن عيني في الليلة الفائتة .

فسأل الطبيب : ولماذا ؟

قال الشيخ : فكرت بحكاية الشابين ، بحياتهما ونهايتهما ، وبمصيرهما الذي لا أدري الى أين انتهى كل منهما فيه ... أيهما سيحظى برضوان الله ويدخل جنته ، وأيهما سيبوء بغضبه فيكون مثواه جهنم .

قال الطبيب : اذن أنت لم تجد الحل لأحجيتنا ؟

أجاب : قطعا لا ، ولا أطمع في أن أجده . ما جاء بي اليك قبل موعد جلستنا شئ آخر . جئت لأعترف لك بخطئي معك ، لا في إجتماعنا الفائت بل في الذي سبقه ، حين تحدثنا بشأن الصبي اسماعيل .

فرد الطبيب قائلا : لا أذكر أنك أخطأت بشيء . كنت محتداً في حديثك معي عن النية والعمل ، وحدتك ليست جديدة علي ... ألفتها .

قال الشيخ : ولذا تراني أقر لك بخطئي . طالما قرعتك وقوست عليك فيما كنا نتجادل فيه . وصفتك بأنك رجل دهري ، لا تؤمن بغير المادة . واتهمتك مرة بالالحاد لانك لا تصدق كرامات الصالحين ولا حتى معجزات الأنبياء .

قال الدكتور حبيب : لم يكن هذا يزعجني منك . كنت اتلقى اتهاماتك بصدر رحب ، وأسأل الله أن يسامحك على نسبتك اياها إلي .

قال الشيخ : أعرف هذا وأعرف أن مجادلتي معك انتهت في غالب الأحيان بظهوري عليك . ينضم الناس في نهايتها الى جانبي معجبين بقوة حجتي وقدرتي على اقناع الشكاكين والملحدين . ولكن ...

ردد الطبيب كلمة الشيخ عبدالسميع الأخيرة متسائلا : ولكن ؟

قال الشيخ : ولكن نهاية الأخوين صدمتني . ماذا لو أراد الله بي وبك ما أراده بهما ؟ قطعنا ، أنت وأنا ، من عمرنا شوطاً طويلاً ، فماذا لو هجر كل منا موقعه الحاضر واتجه ، في آخر عمره ، الى ما يعتقده الآخر ؟!

فابتسم الدكتور حبيب وهو يسأل :

– ماذا يا شيخ عبدالسميع ؟ هل صرت تشعر بالشكوك التي راودتني في القضايا التي نتناقش فيها بين الحين والحين ؟ اذا اعترفت لي بهذا فانا اعترف لك بأني كنت اتظاهر دوماً بالاقتناع بحججك ، دون قناعة حقيقية ... ولكني في الزمن الأخير وجدت أن الحاحك في اقناعي بما تعتقد لم يذهب سدى . بدأ بصيص الايمان يتسرب الى نفسي ...

فهتف الشيخ عبدالسميع قائلاً : هل صحيح هذا ؟ إني سعيد بما تقول

إلا أنه لم يلبث أن أضاف بصوت منكسر : لا ... لا تقل هذا . أخشى أن يصبح الأمر جداً وأن نسير ، متعاكسين ، في طريقي الشقيقين ...

قال الطبيب وقد اتسعت ابتسامته : تعني أن أرقى أنا السلم الى العلية وتنحدر أنت الى سرداب الشهوات والمعاصي . هل تراني كفؤاً لأن أرقى المنبر وأعظ الناس في ايام الجمع ؟ أم ترى في نفسك الكفاءة لحمل سماعة الطبيب والغوص في كتب العلماء الأجانب ، الملاحدة الملاعين ؟

فجارى الشيخ صاحبه في الابتسام ، وقال : ليس هذا ما أقصده يا حكيم .

فتابع الطبيب كلامه قائلاً : أو لعلنا نصطدم في منتصف مسيرتنا ونهوى ميتين في لحظة معاً . من منا يفوز عندئذ بالفردوس ومن منا يكون قراره النار ؟ قال الشيخ : لا . لن تصل الأمور بيننا الى هذا الحد بمشيئة الله . في ليلتي التي لم أنم فيها تبينت الحكمة في قصة الأخوين . إنها تدعونا الى أن لا يزدهي واحدنا بواقعه أو يتعنت في تقييم الآخرين . لذا جئتك الآن معترفاً بما أخطأت في ملاسناتي معك . سامحني .

قال الطبيب : استغفر الله ... ولكنك لم تعطني رأيك بالمصير الذي تعتقده للأخوين . بأيهما يحكم على كل منهما ، أبنيته أم بعمله ؟ ما هو حل الأحجية ؟

قال الشيخ : أنت مصر على أن تصفها بالأحجية بينما أراها أنا حكمة . ليس لي في شأنها غير ما قلت لك . واستودعك الله .

وحين أغلق الشيخ عبدالسميع باب الغرفة وراءه جلس الطبيب في مقعده وراح يستعيد في خاطره حكاية الأخوين ويردد بينه وبين نفسه الملمات التي تكررت في الحكاية والحديث عنها : النية والعمل ، الجنة والنار ، الحكمة والأحجية . وانتبه الى أنه تلبث طويلاً في عيادته بعد أن كان متهيأً للانصراف ، فانتزع جسمه من المقعد وهو يقول في سره : يبدو أن السحر انقلب على الساحر ... لم يبق إلا أن آرق ليلتي ، مثل الشيخ عبدالسميع ،وأنا أفكر في الأحجية التي طرحتها ساخراً على الآخرين !

وأسرع في الخروج من العيادة مطبقاً وراءه بابها الخارجي بعنف .

عبد السلام العجيلي
الرقة ـــ سوريا





بقلم: جمال قطب

وصيفات الشرف



الفنان الاسباني فيلاسكويز

كان طبيعياً أن ينشأ فى روما فى نهاية القرن السادس عشر فن له سماته المميزة ، ولا أقول أن هذا الفن قد قام على أنقاض العصر الذهبى ، بل استفاد منه وجعله مثلا يحتذى به من حيث روعة الأداء التكنيكى ، ولكنه تحرر من طراز النهجية الذى ساد فى أواخره وعرف هذا الطراز باسم (الباروك) ، ويطلق مؤرخو الفنون كلمة باروك **Baroque** على الطراز الفنى الذى ساد فى أوربا فى الفترة (١٦٠٠ ــ ١٧٥٠ م) والمعنى الأصلى لهذه التسمية مصدرها أسبانى فى الغالب **Barruco** تطلق على اللؤلؤة غير المنتظمة فى الاستدارة ، وقد استمد هذا الوصف للتعبير عن الفنون المخالفة للتقاليد السائدة والمناهضة لمفهوم الفن الكلاسيكى والخارجة على النهجية المتوارثة .

وقد لا يتسع المجال لاستعراض التطورات الدينية والسياسية والفكرية التى سادت أوربا ــ وايطاليا بالذات ــ وشجعت فن الباروك ، ولكنه باختصار كان نتيجة لتحرر الفن من سيطرة الكنيسة البروتستانتية وظهور القوة الكاثوليكية الجديدة وزيادة نفوذ العائلات الحاكمة فى اوروبا واستقطاب الفنانين لتزيين قصورهم وحياتهم اليومية بلمساتهم الفنية . كما كان للاكتشافات العلمية التى بدأت تنشط وقتها ، أثر كبير فى نشأة هذا الفن .

ونأتى إلى اسبانيا .. فنجد أنها فى القرن السادس عشر والسابع عشر قد أصبحت قوة عظيمة سيطرت على دول أوربية كثيرة ، حتى أن ايطاليا فى معظمها كانت تابعة لأسبانيا ، وكذلك كانت دول الشمال الأوروبى .. إلا أن إنتاجها فى الفن لم يصل الى ما وصله الفنانون الايطاليون أو فنانو دول الشمال . وظهر فن الباروك فى أسبانيا فى أواخر القرن السادس عشر ، وازدهر بصفة خاصة فى مدينة اشبيليه على يد فناننا فيلاسكويز **Velasques** الذى تأثر بأعمال عباقرة عصر النهضة الايطالى .. حتى أنه تتلمذ على يد أحد الفنانين الايطاليين فى أوائل القرن السابع عشر ، وتزوج ابنته .

وترك اشبيليه واستقر فى العاصمة مدريد وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، فعينه الملك فيليب الرابع رساما خاصا بالقصر الملكى ، وقضى طوال حياته يرسم معظم لوحاته للعائلة المالكة .. وقامت بينه وبين الفنان روبنز ، فنان الشمال الأوروبى الشهير ، صلات صداقة وتعاون وتبادل فى الرأى والخبرة ، وكان روبنز ــ كذلك ــ رساماً للبلاط الملكى فى بلده (أنتورب) حيث كان رساماً خاصاً لإيزابيلا وزوجها الأمير البرت .. ويلاحظ ان أنتورب وقتها كانت بمثابة مركز الاشعاع الفنى الشمالى فى اقليم الفلمنك كما كانت البندقية فى القرن السابق ، ولذلك كانت صداقة فناننا فيلاسكويز لفنان الشمال الأوروبى روبنز حدثاً رائعاً انعكس على إبداع كل منهما .. وفى عام ١٦٤٩ أرسل فيليب فنانه إلى روما لرسم البابا (إينوسنت العاشر) .. وقضى فيلاسكويز عامين هناك ، درس فيهما روائع اساطين العصر الذهبى الأيطالى .. وعاد إلى مدريد ليعينه الملك حاكما للقصر الملكى ! ولما تزوج فيليب الرابع من مارى تيريز النمساوية ، رسم لها الفنان عشرات من اللوحات الخالدة ومازالت قمما فنية حتى يومنا هذا . ومن أهم هذه الأعمال .. لوحة كبيرة أسماها الفنان (وصيفات الشرف) ، رسم فيها الأميرة الصغيرة (مارجريتا) تتوسط مجموعة من وصيفاتها ، وقد رسم فيلاسكويز نفسه فى أقصى الجهة اليسرى من اللوحة ممسكا بفرشاته ، منهمكا فى عمله ، وأمامه لوحة كبيرة يرسم عليها الأميرة ووصيفاتها . واللوحة ضخمة إذ يبلغ طولها ٣١٨ سنتيمترا وعرضها ٢٧٦ سنتيمترا ، ومحفوظة حاليا بمتحف البرادو بمدريد .. وقد تعرضت هذه اللوحة لحادث خطير ، حيث شب حريق هائل دمر القصر الملكى بمدريد عام ١٧٣٤ ، وقد حرصت الأسرة المالكة وقتها على انقاذ الروائع الفنية قبل كل شىء ، واخرجت هذه اللوحة بأعجوبة قبل أن تأتى النيران على القصر بكل ما فيه من نفائس . !

وعلى الصفحة المقابلة نرى أحد قطاعات اللوحة ، ويمثل جزءا من صورة الأميرة مارجريتا .. ويقدر هذا الجزء بواحد على مائة من اللوحة الأصلية بكل محتوياتها .. وقد رسمها فناننا فيلاسكويز فى عام كامل (١٦٥٦) .

ولكى نعرف قيمة هذا الفنان الاسبانى العظيم يكفى أن نستعيد رأى الفنان الفرنسى إدوار مانيه (زعيم التأثيريين فى القرن التاسع عشر) عندما رأى أعماله اذ قال : « لقد كان فيلاسكويز أستاذ الرسامين بلا جدال » !



أحد قطاعات لوحة وصيفات الشرف للفنان الاسباني فيلاسكويز وهي للأميرة مارجريتا (١٦٥٦)

علوم الفضاء تقدم علاجا جديدا لمرضى السكر

بقلم : الدكتور نبيل سليم

احتفل العالم أخيراً بالعيد الثالث لاكتشاف الأنسولين ، الذى يعتبر بحق من أكثر الاكتشافات الطبية فى القرن العشرين أهمية وإثارة . فقد غير مجرى علاج المرض تغييراً جذرياً وأنعم بحياة أفضل على الكثيرين من المرضى ، إلا أن ما أعلنه العلماء فى وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » فى هذه المناسبة كان مثيراً للدهشة والاستغراب المشبع بالأمل فى الخلاص من هذا المرض .

ولكن وقبل أن نخوض فى تفاصيل هذا الحدث العظيم الذى أعلنه العلماء الأمريكان ، سنعرض لبعض ما يشوب هذا المرض من أسباب ووسائل علاجية حديثة فى مختلف مراحله فالعلم يتقدم والبحث مستمر .

أولا : ما هو الأنسولين ؟ !

الأنسولين هو هرمون تفرزه بعض الغدد الموجودة فى جسم الانسان ، فماذا نعرف عن الهرمون ، وما هى الغدد التى تفرزه ، وما علاقتها بالسكر ؟

يوجد فى جسم الانسان أنواع من الغدد منها اللعابية والغدد اللمفية والغدد الهضمية والغدد « الصم » وليس « الصماء » كما هو شائع ، اذ أن « صماء » هى مفرد « صم » وليس من الصواب أن نقول غدد « جمع » ثم نصفها بالصماء « مفرد » فالأصوب أن نقول « غدة صماء » و « غدد صم » .

والغدد الصم هى التى تتميز بأنها تفرز افرازاتها فى تيار الدم مباشرة وتسمى هذه الافرازات بالهرمونات ، وهى ذات تأثير من نوع خاص وهام لنظام العمل بالجسم ، ومن أمثلة الغدد الصم : الغدة الدرقية ، والجاردرقية ، والخصيتان ، والغدة النخامية ، وفوق الكلى .

والغدد اللعابية تفرز افرازاتها من الفم ، أما الغدد الهضمية فهى تفرز إفرازاتها (الأنزيمات) فى القناة الهضمية .

والمسئول عن مرض السكر هى الغدة البنكرياسية الصماء (احدى الغدد الصم) إذ أنه فى حالة عجزها عن إفراز هرمون الأنسولين المسئول عن تنظيم نسبة السكر فى الدم يصاب الانسان بمرض السكر .

فمنذ اكتشاف الأنسولين فى سنة ١٩٢١ تغيرت مفاهيمنا عن مرض السكر وطرق علاجه المختلفة ، فقد توصل حديثاً العلم



هكذا ينهمك علماء وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» فى عمل مشترك لتطوير وتركيز المواد الكيميائية فى السوائل البيولوجية

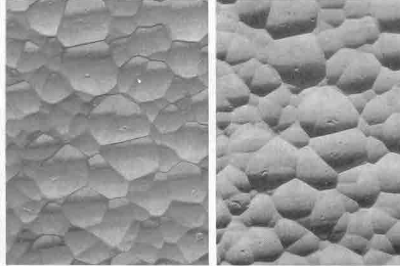
الى معرفة كيفية تصنيع الانسولين بخلايا «لانجرهان» بالبنكرياس وكذلك الخطوات السابقة لافرازه، وقد أمكن تصوير ذلك بالميكروسكوب الالكترونى وأمكن أيضاً معرفة أى المواد الغذائية تثير افرازه، فمثلا وجد أن الأحماض الأمينية الموجودة بالمواد البروتينية كاللحوم، وكذلك الجلوكوز الموجود بالسكريات والنشويات المختلفة هى من أقوى منبهات الافراز، كما وجد أنه عند تناول الأطعمة المختلفة، فإن المعدة والأمعاء تبعث برسائل هرمونية خاصة «كالجسترين والجلوكاجون» مثلا فتنبه افراز الأنسولين. هذا علاوة على اكتشافات عديدة بخصوص علاقة المرض بجدران الأوعية الدموية والتغييرات التى تحدث فيها وعلاقة ذلك بمضاعفات السكر.

وكذلك عن العلاقة الأكيدة بين البدانة والسكر.. وأيهما يسبق الآخر. وعن عامل الوراثة وأهميته فى حدوث مرض السكر.

ومن المعروف أن هناك ثلاث طرق علاجية للسكر، يمكن اتباعها منفردة، أو مجتمعة، وهى الغذاء والأقراص والأنسولين.

تنظيم الغذاء

وقديماً كنا نلجأ الى تحديد النشويات تحديداً قاسياً، الأمر الذى كان يضر بصحة المريض لأننا كما أوردنا سلفاً نجد أن السكريات وبالذات سكر العنب «الجلوكوز» هو من أقوى منبهات إفراز الانسولين ـ فضلا عن أن إتباع مثل هذا الرجيم لم يكن مستطاعاً أو متسعاً من ناحية المريض نفسه، وبعد هذا المفهوم تحرك



ليست أواني فخارية ، وإنما هي خلايا « لانجرهانز » بالبنكرياس ، التي تصنع الأنسولين

خلية ألفا
حويصلات بنكرياسية
جزر لانغرهانس
نسيج ضام

قطاع مجهري في البنكرياس

« بندول » الساعة في الاتجاه الآخر ، وأصبحنا نسمح للنشويات مقاسة بالجرامات ، فمثلا كنا نسمح بغذاء يحتوي على كمية من النشويات تتراوح بين ١٥٠ جم الى ٢٠٠ جم يومياً حسب وزن المريض وعمره وطبيعة عمله .

ولكن من دواعي السأم بالنسبة للمريض أن يتناول طعامه مقاساً بالجرامات ملتزماً بالميزان في كل وقت وكل لحظة ، فغالباً ما تكون النتيجة هي الثورة على هذه الطريقة المعقدة على مر الأيام ، منطلقاً المريض في غير مبالاة إلى كل محرم عليه تصل اليه يداه أو تراه عيناه .

وفي تقديري أنه يجب أن يكون الغذاء بسيطاً وواضحاً ، سهل الاتباع خالياً من التعقيد ، ولا يكون عبئاً مالياً على الفرد أو العائلة ، ومن هنا كانت النظرة الجديدة لغذاء مرضى السكر ، فالواجب ان يكون التوجيه لهم عاماً لنظام الغذاء ، وذلك بنصحهم بالابتعاد عن الحلوى المركزة ، وبالاعتدال في الأطعمة النشوية .

هذا بالنسبة للمريض ذي الوزن الطبيعي أما بالنسبة للمريض البدين فينبغي نصحه أيضاً بتحديد الدهنيات في غذائه . أما عن نوعية الدهون المسموح حتى الآن بها ، وهل نسمح له بتناول الدهون الحيوانية أو يفضل عن ذلك الدهون النباتية فالواقع أن البحوث حتى الآن في هذا الصدد لم تثبت فضل الزيوت النباتية في درء المضاعفات مثل تصلب الشرايين ، إذ ما زالت هذه المسألة في مجال الأخذ والرد ، ولذا يمكن السماح باستعمال هذه الدهون .

فكرة خاطئة

وهناك فكرة خاطئة تقول أنه لا يمكن التخلص من مرض السكر ، فالدراسات العلمية أثبتت أن الإلتزام بالنظام الغذائي في



لقطتان : الأولى لعملية تركيز الآثار الكيميائية وتحليلها داخل المعامل .. واللقطة الثانية لتشخيص المواد باظهار ألوان مختلفة وذلك باستخدام جهاز مقياس الطيف

العلاج يعطى فرصة لاختفاء المرض تماماً ولعدة سنوات ، ولاشك أن الإلتزام بتطبيق نظام حياة مستقرة ، بمعنى تحديد مواعيد وكميات ثابتة ، للوجبات الغذائية مما يتيح تناول الدواء أيضاً فى مواعيد ثابتة يساعد فى علاج مريض السكر ، ومن الضرورى لمريض السكر أن يبذل الجهد البدنى بصورة منتظمة مع مراعاة الظروف الاستثنائية للجهد البدنى التى تقتضى جرعات مختلفة من أدوية السكر فهذا يساعد أيضاً على الشفاء .

فمريض السكر لا يتطلب علاجاً ثابتاً ، لأن احتياجات الجسم من جرعات الأدوية قد تختلف بالزيادة أو النقص مع مضى الوقت رغم استقرار النظام الغذائى ،

لذا تقتضى تحليل الدم المستمر ويمكن للمريض اجراء تحليل السكر بنفسه فى المنزل .

ويؤكد أحد أساطين الطب فى مصر الأستاذ الدكتور جمال هنو أستاذ الغدد « الصم » بكلية طب الاسكندرية « أن أى تغير فى الحالة الصحية لمريض السكر كاصابته بالتهاب رئوى أو غيره من الأمراض التى تستدعى بالضرورة ضبط احتياجاته من العلاج ، مثل هذه الأمراض قد تؤدى الى ارتفاع السكر مما يستدعى زيادة جرعة الدواء ، كما ينبغى على مريض السكر الاهتمام بحالات الجروح والالتهابات فى الأطراف خاصة للمتقدمين فى السن » .

وكما ذكرت من قبل أن أهم المشاكل التى تواجه مريض السكر فى مصر والوطن العربى هى تنظيم الوجبات الغذائية فالأكل عادة وتقليد ، وليس استجابة بالضرورة لاحتياجات الجسم ، وعلى مريض السكر التحكم بإرادته فى تناول الوجبات المناسبة وبتوقيتات منظمه .. بمعنى تغيير عادات ومفاهيم الغذاء نفسها وهى عملية ثقافية يجب الإلمام بها خاصة لمرضى السكر من الأطفال حيث يصعب التحكم فى العلاج مالم تتغير مفاهيم وعادات الغذاء .

وعن الفكرة الخاطئة وغير الصحيحة بالنسبة لبعض مرضى السكر فهناك فرصة للتخلص من أعراض المرض ومظاهره وتصبح نتائج التحليل طبيعية تماماً ، وذلك فى حالة الاكتشاف المبكر للمرض واحكام علاجه احكاماً دقيقاً منذ اللحظة الأولى كما فى حالات السكر الناتج عن السمنة أو سكر الحمل ، فان الالتزام بالنظام الغذائى المناسب مع الأدوية يعطى فرصة كبيرة لاحتمال إختفاء المرض كلية أو قد يختفى المرض لعدة سنوات مما يمثل مكسباً ضخماً للمريض يجب المحافظة عليه ، فقد وصلت نسبة الشفاء من مرض السكر فى مصر إلى ١٢٪ وفى الدول المتقدمة وصلت إلى ٢٥٪ ولكن قد يعود المرض للظهور بالطبع مرة أخرى نتيجة لعدم الالتزام الغذائى المناسب لمثل هذه الحالات .

العلاج بالأقراص

هناك أنواع عديدة من الأقراص المستعملة وهى متشابهة من حيث تأثيرها المنبه لإفراز الأنسولين ـ مثال ذلك « الراستنون » ذو المفعول القصير و « الديابنيز » ذو المفعول الطويل و « الديملور » ذو المفعول الوسط ، وعقار « الدوانيل » ويمتاز بقوته الشديدة . ولكن أحذر المرضى من قوة هذا العقار ، فهى ليست دائماً ميزة تميزه عن غيره من العقاقير . إذ قد يكون سبباً فى متاعب كثيرة لهم ، ولذا ينبغى عليهم عدم الإندفاع فى استعماله ، إذ قد يحدث نقصاً شديداً فى سكر الدم وخاصة لدى كبار السن ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى الى غيبوبة ، ولذا يقصر استعماله فى الحالات الشديدة لمرض السكر .

أما عن عقار « الديابنيز » المدون عندنا تحت اسم « بتميدين » فينبغى ان نكون متنبهين الى احتمال اختزان الماء بجسم المريض نتيجة مفعول هذا العقار على إدرار البول ، كما ننصح بعدم شرب المواد الكحولية مع هذا العقار بالذات فقد يحدث ذلك أعراضاً غير مرغوب فيها ، ويهمنى أن ألفت نظر المرضى بأن من الخير لهم أن يحافظوا على علاج أنفسهم باتباع نظام غذائى لإنقاص الوزن بالأكل واستعمال الأقراص ، وفى هذا المجال أشير الى تقرير صادر من مجموعة الجامعات الامريكية اهتمت بمتابعة استعمال هذه الاقراص حيث يقول التقرير « انه بالنسبة للمريض الذى لايمكن ضبط معدلات « سكره » بالغذاء فقط فانه من المستحسن عندئذ استعمال الأنسولين بدلا من الأقراص نظراً لازدياد حدوث بعض المضاعفات الخاصة بالأوعية الدموية مع استعمالها .

ولكننى أعود فأقول بأنه لا ينبغى أخذ هذا التقرير كقاعدة مسلم بها ، لأنه مازال موضع نقاش فى جميع الهيئات العلمية بالعالم ، وبالذات فى البحوث الواردة من السويد وانجلترا ـ فهى لا تؤيد ما جاء به ، بل على النقيض تحث على استعمال الأقراص ـ وحتى ينجلى الأمر ينبغى أن يترك للطبيب اختيار الطريقة العلاجية المناسبة لكل حالة على حدة .

العلاج بالأنسولين

هناك أنواع جديدة من الأنسولين غزت الأسواق ، فتوجد أنواع تجمع بين سرعة المفعول وطوله « كالرابيتارد » مثلا ، وطول المفعول هنا لا يعتمد على مواد غريبة فى الأنسولين ، ولكنه يعتمد على وجود الأنسولين على هيئة بلورات بطيئة الذوبان ، وكذلك توجد أنواع من الأنسولين تناسب حالات الحساسية للنوع العادى منه ، مثال ذلك الأنسولين المتعادل ، والأنسولين المكبرت . وقد ثبت نجاح هذا الأخير فى علاج حالات المناعة أيضاً ، ونجاح الأنسولين المتعادل فى علاج حالات تليف الجلد والشحم الذى يصادف كثيراً استعمال الأنسولين العادى .

الأمل .. وزرع البنكرياس

وقد لاح الأمل الذى يراود مرضى السكر والأطباء المهتمين به فى شفاء كامل بامكانية إجراء عملية زرع للبنكرياس ، وقد اجريت عشرون عملية من هذا النوع بجامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة وتسع عمليات بأمريكا الجنوبية ، وهى عمليات معقدة

وصعبة للغاية ذلك لأن البنكرياس عضو له وظيفة مزدوجة ، إذ يقوم بافراز العصارات الهاضمة للطعام فضلا عن الإفراز الأصم للأنسولين مباشرة فى الدم .

وقد نجحت العملية فى خمس وعشرين حالة ، وأمكن الاستغناء عن حقن الأنسولين اليومية ، ولكن للأسف لم يدم ذلك سوى مدة محدودة لم تتجاوز التسعة أشهر وذلك بسبب لفظ البنكرياس المزروع على المدى الطويل .

وحتى الآن لا نعلم ما إذا كان زرع البنكرياس يمكن أن يمنع حدوث مضاعفات السكر أم لا ؟ .

ولكن خلاصة القول أن زرع البنكرياس فتح لهم باب الأمل للشفاءالكامل ، ولكنه مازال حتى الآن فى مجال التجربة .

أبحاث الفضاء .. أملنا فى الشفاء

ومن المعروف أن معدل زيادة مرض السكر فى كل بلدان العالم يرتفع باستمرار وتشير الأرقام إلى زيادة المرض بنسبة ٥ر١٪ فى السنة ، وهذا يعنى أهمية الاكتشاف المبكر للمرض وعلاجه وهو ميسر بدرجة تطيل فى عمر مريض السكر ، حيث أن النظام الغذائى والمجهود البدنى المنتظم يقيه شر أمراض أخرى أشد ضراوة من مرض السكر ، لذا لزم الاهتمام باتباع أحدث طرق العلاج لهذا المرض وهو تصنيع « الأنسولين الآدمى » الذى يمكن أن يصبح صورة طبق الأصل من الأنسولين الذى يفرزه الجسم البشرى ، فى تأثيره ، وذلك لتلافى الأعراض الجانبية للأدوية الأخرى ، مما حدى بالعلماء الأمريكيين أن تقودهم أبحاثهم الى تصنيع هذا النوع من الأنسولين فى شكل جزئ معقد جداً مكون أيضاً من « ٥١ حامضاً أمينياً » ولكن هذا النوع من الأنسولين لم يستعمل حتى الآن لأن تكاليف انتاجه الباهظة تحول دون ذلك .

كما أن هؤلاء العلماء قادتهم الأبحاث التى يجرونها فى وكالة الفضاء الامريكية « ناسا » فى مجال اختبار التغيرات التى تطرأ على نسب السكر فى الدم وفى البول لدى رواد الفضاء فى الرحلات الفضائية الطويلة الى اكتشاف وسيلة تشخيص واختبار لوجود السكر لدى الأشخاص مؤكدة بنسبة ٩٥٪ .

ويقول « د. البرت زيلاتكس » و « د. هارموت لا بتس » الباحثان بجامعة هيوستون واللذان عهد اليهما بإجراء اختبارات تحليل البول فى الفضاء ، ان الوسيلة الجديدة تعد تقدماً طبياً هاماً للغاية وبخاصة اذا ما علمنا أن الوسيلة القديمة لاختبار درجة تحمل الجلوكوز لقياس درجة امتصاص الجسم للسكر نسبة التأكد فيها لا تزيد على ٣٠٪ فقط .

ويقول الطبيبان « إن التطور الذى استخدمناه هو تقنية جديدة لتركيز كميات صغيرة من المواد الكيميائية فى سوائل بيولوجية ، وهى فى هذه الحالة سائل البول » .

كما يقول د. زيلاتكس « إنه قد تمكن من تركيز هذه المواد باستخدام مادة لاصقة تسمى « تيناكس » وهذه على عكس المادة الماصة فانها تحتفظ بالمادة المعالجة وتساعد على فصل آثارها الكيميائية .

وبمجرد ما يتم تركيز هذه الآثار الكيميائية يجرى تحليلها وتشخيصها باستخدام جهاز يحلل المواد بإظهار ألواناً مختلفة ثم باستخدام جهاز مقياس الطيف .

ويؤكد العالمان أن أسلوب التشخيص الجديد مؤكد ومضمون كما أنه يكشف عن الأنماط المختلفة لمرض السكر « الشبابى » والذى يصيب الشباب حتى سن العشرين والسكر الذى يصيب الناضجين والسكر فى مراحله الابتدائية والسكر فى مراحله المتقدمة .

ويضيف العالمان أنه بالنسبة للأشخاص المعرضين للإصابة بالسكر بدرجة قوية بسبب العوامل الوراثية أو غيرها فإن هؤلاء بحاجة الى أسلوب تشخيص دقيق مثل هذا الأسلوب الجديد .

ويؤكد د. زيلاتكس انه فى اختبار قياس الجلوكوز فانك كنت تشرب محلولا سكريا ثم يجرى قياس السكر فى الدم على عدة فترات زمنية مدة كل منها نصف ساعة مما يعنى انك كنت مضطراً الى قضاء نحو أربع أو خمس ساعات فى المستشفى أو فى العيادة . اما الأسلوب الجديد للتشخيص فانه لن يكلفك أكثر من دقيقة تعد فيها عينة من البول .

جهاز تحت الجلد

ومن ناحية أخرى وفى المانيا الغربية طور فريق من العلماء جهازاً يمكن زرعه تحت الجلد يقوم بتزويد الأنسولين الى المصابين بالسكر . ويمكن للجهاز تزويد ما يحتاج اليه الشخص من الأنسولين لمدة تسعة أشهر ثم تعاد تعبئته مرة أخرى من فوهة خارجية على الجلد .. ويعتمد الجهاز فى عمله على قياس نسبة السكر فى دم المريض ، ويقوم على الفور بإفراز الكمية اللازمة من الأنسولين فى الجسم لدى ارتفاع نسبة السكر فيه فيحترق السكر الزائد عن حاجة الجسم .. وما يميز الجهاز الجديد أنه يغنى المريض عن إجراء تحليل للدم والبول ويقوم بعمله بصورة تلقائية .. ويدرس العلماء الآن امكانية تخفيض تكاليف الجهاز لتعميم استخدامه على المصابين بمرض السكر .

نبيل سليم على





قد تبدو هذه اللقطة غير ملفتة للنظر ، ولا هي كذلك تنطوي على شيء يثير الاهتمام ، والا فماذا تعني هذه القطع من الأوراق الموزعة على أرضية لا تسر الناظرين ؟ .. هذا هو ظاهر الصورة ، لكن باطنها ينطوي على فكرة مذهلة .. فتحت كل قطعة توجد نملة تحملها وبها تسير ، ولهذا ظن الأوائل الذين شاهدوا هذا النمل أنه يحمل تلك الأوراق ليستظل بظلها من حرارة الشمس ، ومن أجل هذا اطلقوا عليه اسم « نمل المظلات » .. لكن ذلك ليس صحيحاً ، لأن هذا النوع من النمل يتسلق الأشجار ، ومن أوراقها يقطع قطعاً ، وبها يعود الى مستعمراته ، وفيها يمضغ الأوراق ، ويمدها بلعابه ، ويكومها في طبقات حتى تتخمر وتصبح سماداً غنياً ، وعلى هذه الخلطة يزرع نوعاً معيناً من الفطريات ، أو بالتحديد فطر عش الغراب ، « وبذور » هذا الفطر أو جراثيمه يحتفظ بها كل نوع من النمل الزارع في جيوب خاصة ، ويوزعها بين الأوراق المتخمرة ، فينمو عليها نمواً سريعاً ، وعليه يعتمد النمل في بروتيناته وسكرياته ودهونه وفيتاميناته وكل ما يحتاجه لحياته .. وكلما نضب محصول ، استعد له بمحصول جديد .. ولقد حاول بعض العلماء تقليد النمل في زراعاته ، لكن محاولتهم لم تكلل بالنجاح .. بقي أن نعرف أن الانسان أيضاً يزرع بعض أنواع عش الغراب ويهواها رغم أنها غالية الثمن ، ولهذا فالناس أمزجة .. وكذلك الحشرات .. لكنها قد سبقت الانسان بالزراعة قبل أن يظهر هو على هذا الكوكب بمئات الملايين من السنين !

ومن الورد ما خدع وحيّر!



يطلقون عليه ورد الصحراء أو الورد الصخري ، وهو بالفعل اسم على مسمى ، فهذا التشكيل الفريد قد جذب اهتمام رواد الصحاري الأوائل ، ولطالما تساءلوا : كيف نبتت هذه الورود في جوف صحراء قاحلة وخالية من أية صورة من صور الحياة ؟ .. ولقد خرج بعضهم من هذا المأزق ، واعتبر هذه الورود من نباتات متحجرة كانت تعيش في الأزمنة الغابرة ، لكن الشيء الغريب حقاً أن التشكيل المثير رغم أنه يتخذ شكل الورود ، إلا أنه لا ينتمي الى عالم النبات ، بل هو تكوين عجيب من مركب الباريت أو الجبس ، وقد جاء التشكيل من نمو بلوري لكبريتات الكالسيوم (الجبس) في جوف الرمال ، ويبدأ النمو يكبر ويتعقد ويتخذ شكل بتلات الورود ، حتى انتهى بهذا التشكيل المتقن .. وتبارك الله أحسن الخالقين .

حانت وجبة الدم!



في وحدة بحوث الحشرات الناقلة للأمراض بأحد المعاهد العلمية الطبية توجد اقفاص من سلك يربي فيها بعوض الملاريا لاجراء مزيد من الدراسات والبحوث عن العلاقة القائمة بين العائل والطفيل .. ولقد اندهش كاتب هذه اللقطات من زميل له يعمل في هذه البحوث عندما استأذن وشمر عن ساعده ، ثم ادخل يده وجزءاً من ذراعه من خلال فتحة في القفص الذي يعيش فيه البعوض ، اندهشت لتعريض نفسه للأذى ، ولتحمله آلام اللدغ ؟ .. إن الاجابة لا تحتاج الى ذكاء ، ففي سبيل المعرفة تكون التضحية والفداء ، ولو بلدغ وامتصاص جزء ضئيل من الدماء .. وهذه اللقطة تتكرر كثيراً في مثل هذه الوحدات ، لكنها تجيء تلك المرة من محطة تجارب الملاريا التابعة لمنظمة الصحة العالمية بايطاليا بعد أن داهمها ذلك الوباء في بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، والصورة هنا لا تحتاج الى تعليق ، بل الى قليل من التوضيح ، فالذي يلدغ ويعيش على دمائنا هي الاناث ــ اناث البعوض طبعاً ــ لكن الذكور تعيش على رحيق الأزهار ، هذا ومن الممكن أن تعيش إناث بعوض الملاريا على دماء خنازير غينيا ، لكن بعد أن تستمتع بأول وجبة لها من دماء البشر .

الإنسان العربي

بين واقعه وهمومه

بقلم: أحمد عبد الملك

العالم يضطرب .. ونتيجة لذلك تهتز كثير من القيم .. وتضمر مجالات الإبداع ، والمادية تطغى على الوجود الاجتماعي فينحسر مد الثقافة .. ويتحجم في نطاق ضيق جداً .

والمثقف العربي عانى من اغتصاب الأرض .. وعانى الظلم السياسي ، والتفكك الاجتماعي ، وعانى الفقر .. وشهد الانكسارات العربية .. وظل طوال حياته يردد نغمة الشعر الجاهلي .. والأدب في العصرين الأموي والعباسي .. حتى وصل الى مرحلة كبوة الثقافة على حاجز الفيديو .

تتعقد الحياة .. ويتلاشى الوقت ..

وينصب اهتمام الإنسان العربي على تدبير قوت يومه .. ومستقبل أبنائه .. ولم تعد هنالك فسحة من الوقت لتدارس أمور الثقافة أو تصفح كتاب جديد .. أو تفكير بعمل إبداعي جديد .

الانفجارات السياسية تدوي في أذن المثقف العربي .. الأساطيل الأجنبية تجوب مياه هذا الانسان الدافئة .. والأقمار الصناعية الأجنبية ترصد تحركات هذا الانسان .. وتراقب تلمسه الثقافي والفكري .. وعساكر الفيديو تدك مكتبات السوق .. ومكتبات المنازل وتنفق الكتب تحت الأنقاض .

ولو حاولنا الدخول الى تركيبة الانسان العربي وظروف حياته لوجدناه كالآتي :

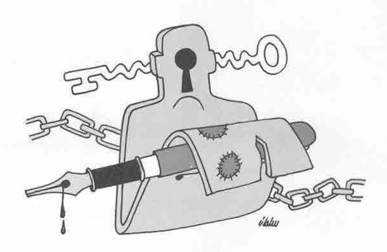
يعاني هذا الانسان شرودا وعدم قدرة على التركيز على موضوع معين .. فهو مظلوم في عمله .. ومدين لاقساط السيارة .. والثلاجة .. والعطلة الصيفية .. وهو في نزاع مع رئيسه المباشر في العمل حول ساعات العمل .. وهو في صراع مع زوجته حول تجهيزات المولود الجديد .. وهو في حرج شديد لعدم قدرته لمواصلة دعمه المادي لأخته الكبرى في الجامعة .. وأخيه الصغير في المدرسة .

يعيش هذا المواطن وسط احداث مريرة فرضتها القوى الأجنبية .. والوقت .. فالوطن العربي ممزق سياسياً .. والشعب العربي مشتت اجتماعياً رغم شعارات الوحدة والوطن الواحد والقضية الواحدة .. والمصير المشترك الواحد .. ذلك التمزق بين هذا الشعب وبين مفكري ومثقفي الأمة يجعل الإلتقاء بين الجميع ضرباً من الأمل البعيد .

البيئة التي يعيشها هذا الإنسان تضع الثقافة في دائرة الاهتمامات المستعصية .. فبالاضافة الى ضيق الوقت .. وكثرة مشاغل الانسان .. فان وسائل الاعلام (وأغلبها ترفيهية) تتلقفه في السيارة .. وفي المنزل .. فما أن يدخل بيته حتى يدير مؤشر التليفزيون من محطة الى أخرى ، وعندما تنتهي برامج المحطات الرسمية المحافظة يلجأ الى مكتبة الفيديو هارباً من رقابة التليفزيون وهواجس المجتمع ويقيم سداً منيعاً بينه وبين وسائل الثقافة الحقة .. حتى يغالبه النعاس لينام بجوار الفيديو إن لم يكن جسدياً ففكرياً .

الطبقة المثقفة المحدودة .. والتي تقرأ الصحف والمجلات مشغولة بعد وقت الدوام الرسمي بالأعمال التجارية الخاصة .. ولا وقت لديها إلا قراءة الجريدة على العشاء .. أو على السرير حيث تحضر الزوجة قائمة بالمشتريات المطلوبة للمنزل .

معظم الباحثين .. والكتاب .. – غير السياسيين – ما زالوا يعزفون على نغمة الماضي .. فالشعر الجاهلي .. يعيش في



عروقهم .. ومجالس الأدب العباسي ما زالت قائمة في أدمغتهم ، ومدائح سيف الدولة هي مقررات النجاح الأدبي .. لا بأس أن نشيد بالحضارة الأدبية .. ولكن علينا النظر الى الغد . إن الكتابة للمستقبل من المحظورات في الوطن العربي ..وكأن الشعب العربي هو الشعب الوحيد المناط به حفظ التراث للانسانية . ولو تساءلنا أين المبدعون العرب ؟ أين العلماء العرب ؟ ما الذي قدمه المفكرون العرب المعاصرون للانسانية ؟ هل انتهى عصر التفكير للغد .. ؟ لا نجد الجواب . أليست هنالك فرصة للعودة الى عصر الثقافة الذهبي ؟ خصوصاً في ظل الأزمات العربية .. والمعاناة . ونظراً للاهمال المتعمد من قبل المجتمع للثقافة ــ وذلك لعدم حاجته لها ــ قل الاهتمام الرسمي بالثقافة وقنواتها .

كانت هنالك منتديات .. وحلقات فكر وابداع .. وكانت الفرصة متاحة ومتوفرة لتبادل الخبرات . والاحتكاك الثقافي .. لكن ذلك تحول الى حلقات تجارة .. أو سهرات حتى الساعات المتأخرة من الصباح .

لذلك فان صحوة فكرية في الوطن العربي اصبحت ملحة .. ونهجاً جديداً لوسائل الإعلام أمسى ضرورياً لتأصيل الثقافة بفروعها في رؤوس الشعب العربي .. ولن تتأتى لهذه الصحوة الفعالية ما لم تستند الى حسن النية .. والخطوات البناءة لخلق مجتمع مستنير .. وإنسان سليم .

إن بناء الإنسان بناء قوياً سليماً ليس فقط في دخوله المدارس والجامعات وليس في ركوبه السيارات الفارهة .. والملابس الزاهية .. والحلي النفيسة ..

إن بناء الإنسان ليس في زيادة ساعات بث التليفزيون .. وتعدد قنوات الاذاعة .. وتنوع الاصدارات الصحفية .. إن بناء الانسان يتطلب أن يكون هذا الانسان قابلاً للتغيير .. قادراً على رفع مستوى وعيه .. أهلاً لأخذ زمام المبادرة في جميع المسائل الثقافية .. مؤمناً بأن يكون له حضور على المستوى الثقافي وإن كان موظفاً بسيطاً .. أو صاحب محل متواضع .. أو مليونيراً كبيراً بماله .. وأرصدته . ان الغزو الفكري المضاد يزداد شراسة يوماً بعد يوم .. ووسائل وأد الثقافة تتطور وتتنوع .. وحالة الخوف المعيشي تسيطر على تفكير الانسان العربي .

الإنسان الياباني رغم قصر قامته .. وضيق عينه أصبح يهدد الاقتصاد الأمريكي .. والانسان الهندي دخل مرحلة غزو الفضاء .. واستطاع تركيب القمر الصناعي .. الانسان الكوري رغم حروبه وأزماته استطاع أن يكسو أجساد العالم بصناعته المتعددة .

أين يقف الانسان العربي من كل ذلك ؟؟ رغم أن المستوى الذي يعيشه ــ يفوق مستويات كثير من الدول التي تقدمت .. وقدمت للإنسانية منجزات واضحة .

ان العودة الى الكتاب .. واستخدام العقل بصورة أخرى هو الطريق الأمثل الى عالم عربي قوي .. وشعب عربي سليم الجسم سليم العقل .

ان استخدام الكلمة بأسلوب حضاري .. ونظرة واقعية .. ونية سليمة لخلق مجتمع أفضل هو النهج المطلوب لمجابهة التحديات .. وان ايجاد رأي عام مستنير .. هو المعين في التغلب على جميع المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذا الوطن .. أما ترهات الحضارة .. وقشور التطور المادي فهي مادة للاستهلاك والهلاك الشعبي .

من عجائب الله في خلقه

قبيلة الشفاه المطوطة

حسني محمد بدوي

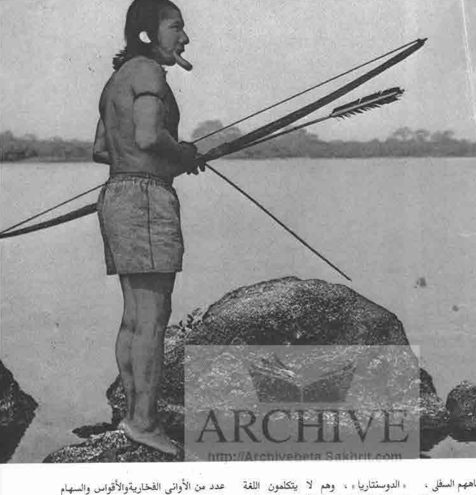
هندى من قبيلة الشفاه المطوطة فى البرازيل ، ويوضع القرص منذ الطفولة لتتخذ الشفاه هذا الشكل الغريب !

يقول الباحث الانثروبولجي الأمريكي « هارالد سكولتز » عن رحلته الشائقة العلمية ، الى قلب البرازيل : قبل أن أقوم برحلتي الى أغوار البرازيل ـ حيث عشت فترة غير قصيرة هناك بين أفراد قبيلة « الصويا » البدائية ـ ، كنت قد سمعت في متحف « ساوباولو » خبراً مثيراً عن هذه القبيلة ، قيل لي : « انها أشد قبائل البرازيل شراسة ووحشية » .. وكان ما يعرف عنها من المعلومات قليلاً .. فهي قبيلة غامضة في عاداتها وأسلوب حياتها . وعرفت قبل رحيلي اليها أن رجالها يقومون بتشويه شفاههم السفلى تشويهاً غريباً ، إذ هم يثقبونها ويمطونها ويدخلون فيها أقراصاً كبيرة ..

وأثارت هذه الأنباء فضول الباحث « سكولتز » قبل أن يرى ويدرس بنفسه تلك القبيلة عن معايشة . وقد أقلته طائرة صغيرة مع آخرين ، من جزر « بنانال » واتجهت غرباً صوب آفاق نهر « الكسينجو » حيث لاتزال بعض القبائل الهندية البرازيلية ، تعيش هناك في غابات ذلك النهر الذي ما لبث أن هبط بالقرب منه رهط الباحثين في مستوطنة « ديوروم » التي توجد بها أكواخ من القش .

ولم يكن بتلك المنطقة أحد من قبيلة « الصويا » . لكن الباحث « سكولتز » عرف أن بعض أفراد هذه القبيلة يزورون هذه المستوطنة بين وقت وآخر ، فلا مفر من الانتظار ...

وبعد أيام قليلة ، ظهرت على سطح النهر خمسة قوارب مصنوعة من جذوع لحاء الأشجار . ويروي « سكولتز » مشاهد تلك الساعة ، فيقول : « رأيت على ظهر القوارب أغرب مخلوقات بشرية وقع عليها بصري ! رأيت أفراداً من قبيلة « الصويا » » ،



هذا الرجل صبغ الشفة والقرص باللون الأحمر، وعلق في اذنية حلقانا من سعف النخيل المجدول، وصبغ جزءا من وجهه، واتخذ عصابة لرأسه من السعف أيضا!

أدوات الصيد التي يستخدمها الأهالي أثناء الصيد من البحيرة

كان الكبار منهم يثبتون في شفاههم السفلى، أقراصاً خشبية كبيرة مستديرة مصبوغة بطلاء أحمر، مما جعل هيئة الوجه أشبه برأس البطة! كما رأيت شحمة الأذن ممطوطة ويتعلق بها قرص أبيض مستدير مصنوع من سعف النخل المجدول. ويرتدي بعض رجالهم سراويل أو قمصاناً قصيرة، على حين تلبس نساؤهم مآزر حمراء، أما أطفالهم فكانوا عراة تماماً.. إنهم قادمون من موطنهم غير البعيد لزيارة «الكراي» (أي «المتمدينين») في مستوطنة «ديوروم».. ثم رأيت رجلا ذا قرص كبير بشفته، يسحب سلةً من داخل زورقه ممتلئة ببعض هداياهم».

وكان سبب قدوم «الصويا» هذه المرة الى «ديوروم»، هو رغبتهم في الحصول على الرعاية الطبية، على أيدي ذوي الخبرة هناك. كان منهم من يعاني من مرض «الدوسنتاريا»، وهم لا يتكلمون اللغة البرتغالية (لغة تلك المناطق). ولما عولجوا مما يشكون، وجهوا دعوتهم الكريمة للباحث «سكولتز» وزملائه لزيارتهم في قرية «الصويا».

وفي اليوم التالي، استقل المدعوون القوارب، وبعد أن قطعوا مسافة ميلين، عرجوا يساراً في نهر «الصويامبسو»، أحد روافد نهر «الاكسينجو».. وبعد ثلاث ساعات، خاضوا في رافد آخر ضيق بطيء الجريان.. ثم بلغوا غايتهم..

كانت هناك غابة كثيفة تحجب كل أثر للقرية وسكانها. ولكن عيونهم وقعت على دروب ضيقة في أغوار الغابة حيث لمحوا اضواء خافتة وظلالاً معتمة.. كانت هناك اكواخ من جذوع وأوراق الأشجار، وشبكات تستعمل للنوم. وكان بعض أفراد «الصويا» يشوون الأسماك، ومن حولهم عدد من الأواني الفخارية والأقواس والسهام المبعثرة. كان ذلك المكان يمثل قرية «الصويا» التي لا يتجاوز عدد أفرادها ٦٥ شخصاً فقط!.. ووجد المدعوون من مضيفيهم كل الكرم والترحيب. وكان من الواضح أن سكان تلك القرية الصغيرة يعيشون على أسماك النهر وثمار الغابة. ومع ذلك، فهم يتميزون بالكرم الى حد كبير. وأوضح «بنتوتي» (شيخ قبيلة الصويا) لضيوفه، انهم يصيدون الأسماك بالسم المعروف لدى هنود البرازيل، ثم يلتقطونه من الماء بسهامهم وأسياخهم — وبذلك يحصلون على كميات وفيرة من الأسماك ويأكلونه بنهم.. كما شرح لهم الشاب «كيوزي» (ابن «بنتوتي»)، كيف يحصلون على الفاكهة والثمار من فوق أشجار الغابة وكيف يشيدون أكواخهم. كما عرف الباحثون الضيوف أن قبيلة «الصويا»



الأولاد يحملون نوعا من الأسماك الكبيرة التي قام بصيدها رجال القبيلة

تنقسم الى جماعتين متحابتين يرأس كلا منهما زعيم .

العلاج بالملح

وعرف الباحث « سكولتز » كيف تصنع قبيلة « الصويا » الملح . في البحيرة الواقعة وسط الغابة ، تخوض النساء في الماء حتى يصلن الى النباتات المائية فيسحبن منها أكواماً ويجففنها في حرارة الشمس ، ثم يضرمن النار ويلقين الجمرات على أكوام هذه النباتات . وفي الصباح ، يجهز الزعيم « بنتوتي » قمعاً مصنوعاً من أعواد « الجريد » ، ثم تعلقه زوجته على غصن وتبطنه بأوراق الموز وتفرش على قعره طبقة من ألياف النباتات بمثابة مرشح ، ثم تملأ ذلك القمع برماد النباتات . بعد ذلك ، يوضع تحته وعاء فخاري ويصب فيه الماء فيتسرب خلال الرماد ويصفي الملح ويترسب في الوعاء الذي يوضع ، بعد تلك العملية ، تحت النار ليغلي السائل بداخله .. ويتصاعد البخار ويبقى في القاع مسحوق بللوري بني اللون يميل الى الاصفرار ، ولا تكون حصيلة هذه العملية الشاقة سوى حفنتين من الملح ! ويأخذ كل منهم (الرجال والنساء والأطفال) ذرات من هذا الملح ليمسح بها فمه ويتلمظها أو يلوكها في نشوة وطرب ! وهو ملح مر المذاق لاذع مختلف تماما عن الملح العادي ، ويستعمل كعلاج ضروري لسكان تلك البيئة ..

كما عرف الباحثون كيف تحصل قبيلة « الصويا » على عسل النحل البري الذي تكمن خلاياه في الأشجار .. وهو نحل غير مؤذ يسقطون أعشاشه بفؤوسهم المتواضعة ، ثم يلتقطون النحل الذي يلتصق بأجسامهم ويدعكونه لينز عسله فيلعقونه ويأكلون شمعه بما فيه من يرقات وحبوب اللقاح !

واذا ما أرخى الليل سدوله ، اجتمع شباب قبيلة « الصويا » للغناء والرقص والمرح . وهم لا يميلون في سهراتهم هذه الى كثير من الضجيج ، فهم يغنون بصوت خفيض رتيب وبلغة غير مفهومة لضيوفهم الأجانب . وكثيراً ما تشارك نساؤهم في الغناء فترن أصواتهن في رقة ، ويقمن متشابكات الأيدي لأداء رقصات بخطوات قصيرة .. ويغني الجميع حتى يدركهم التعب .. ثم يسود الهدوء الدغل .

وعندما سأل الباحث « سكولتز » شاباً من قبيلة « الصويا » : « ألا تملكون مزماراً « فلوت » ، يرافق الغناء كالقبائل الأخرى ؟ » ، فنظر اليه الشاب نظرة شزراء ماكرة ثم انفجر ضاحكاً وقال له : « كيف يمكننا النفخ في المزمار ولنا مثل هذه الأقراص الخشبية الكبيرة المثبتة في شفاه لاتطبق ؟! » .

أقراص في الشفاه

ولا يستعمل من أفراد « الصويا » هذه الأقراص ، إلا المتزوجون أو الأرامل . فما إن يتزوج الرجل حتى يثقب شفته السفلى ويغرز بها قرصاً .. ويحتفظ كل متزوج منهم بعدة أقراص لاستعماله الخاص ، يودعها في سلة متاعه الشخصي ، التي تحفل بأدوات مصنوعة من أنياب الحيوانات وبقطعة من الخشب المتحجر يستخدمها في شحذ السهام ، كما توجد بالسلة أوراق خشنة « لصنفرة » أقراص الشفاه الجديدة ، وعظام قردة وصمغ الصنوبر الأسود وشمع النحل ولفائف من القطن المغزول وسكين قديم وأصداف بلح البحر ، ومسمار صدئ وغير ذلك من الأشياء المتواضعة التي تمثل كل ثروة الفرد هناك !

وينفرد الزعيم « بنتوتي » من دون أفراد قبيلة « الصويا » بثلاث زوجات . من عادة كبراهن سناً أن تصحبه في جولاته ، وتقوم الثانية بغزل القطن أو جدل أغصان الأشجار ، وتقوم صغرى الزوجات بتجهيز الطعام ، لكنهن يتعاون في أداء الواجبات اذا اقتضت الضرورة ذلك .

وقد أنجب الزعيم « بنتوتي » من زوجاته الثلاث ، عدداً من الأبناء والبنات



الباحث «هارولد سكولتز» أمام آلة الة الكاتبة
وقد جلس في مواجهة أحد أبناء «الصويا»

أحد أبناء الزعيم «بنتوتي» يقوم
بزخرفة إحدى الأشجار



رجل طاعن في السن من قبيلة
«الصويا» وهو يقوم بتزيين نفسه !

وينادي أولاده بعضهم البعض ب «أخي» و «أختي». وتناديهم النساء بدون تمييز: «ايكرا» أي: «يا ولدي» أو «يا بنتي»!

وقد لاحظ الباحث «سكولتز» أن «جايسوجرا» زوجة «بنتوتي» الكبرى هي الوحيدة التي تستطيع صنع الأواني الفخارية، وهي أصلا لا تنتسب الى قبيلة «الصويا»، فقد سرقها «بنتوتي» من قبيلة أخرى .. قبيلة «الوايورا» التي تعيش في أعالي النهر، على رافد يسمى «الكليو ويني» أحد فروع «الاكسينجو». وتشتهر تلك القبيلة بصناعة الأواني الفخارية والسهام لكل المقاتلين في تلك المنطقة.

وتتميز أوانيهم بأشكال جميلة، بعضها بني اللون وبعضها الآخر أسود اللون. وهي تعكس الأسلوب الفني لعالم «الاكسينجو».

وكانت قبيلة «الصويا» في الماضي — قد هاجمت قبيلة «الوايورا»، واستولت على نسائها ولا يخطر ببال هؤلاء النساء المسروقات، العودة الى قبيلتهن!

ويقول الباحث «سكولتز»: «والغريب اننا لم نجد من نساء «الصويا» من استطاعت أن تتعلم صناعة الأواني الفخارية من نساء «الوايورا» رغم طول مدة معايشتهن .. وقد لفت «بنتوتي» انتباهي الى وجود عدد آخر من الهنود يعيش بين «الصويا» .. قال لي: هذا الشاب الهادىء زوج ابنتي الحبلى، ينتمي الى قبيلة «اليورونا» قد أسروه في طفولته بعد معركة حامية! وهذا الشاب «سوكو» زوج اخت «روبوندو»، من أهل قبيلة «تروماي» .. ! ».

وكان الزعيم يروي أحداث معارك قبيلته بفخر واعتزاز، وكأنما يريد أن يقول أن قبيلة «الصويا» تقوم بواجب التحرير، وقد أصبحت تضم أجناساً مختلفة .. أو كأنها قبيلة «قومية» أو «دولية»!

حسني محمد بدوي

عن مجلة: National Geographical

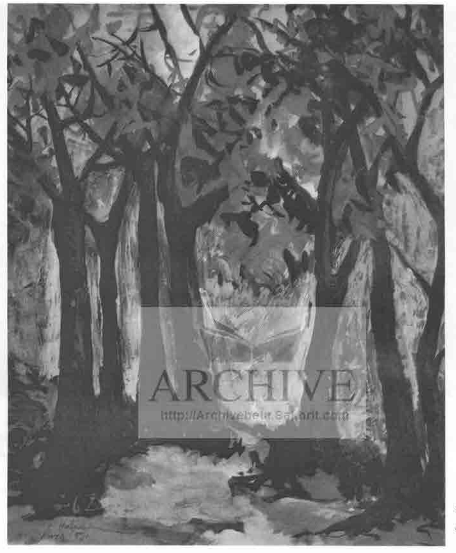
هكذا تبدوا الألوان عند تحية حليم ، متألقة دون بهرجة ، فهي لاتعرف درجات اللون الملتهبة .. اللوحة بعنوان «أولاد أختى نادية ونجلاء»

عاشقة النوبة
تحيّة حليم

بقلم : صبحي الشاروني



الفنانة تحية حليم



الغابة في باريس .. لوحة من وحي رحلاتها إلى الخارج

فنانة عربية لفتت أنظار العالم

عندما أحس الخديوي اسماعيل الذي حكم مصر في منتصف القرن الماضي ، أنه على وشك أن يتم عزله عن عرش مصر ، قرر عمل أفراح للعاملين في البلاط ، وتزويج الفتيات من الشباب مع تأثيث بيوتهم لكي يطمئن على حياتهم قبل أن يرحل إلى منفاه . وهكذا تزوجت عازفة الكمان ورئيسة الأوركسترا الآنسة « اليوزباشي » جولتار ، من ضابط السواري الشركسي « عبدالوهاب حلمي »بأمر الخديوي .

وقد انجبا بنتاً عندما كبرت هي الأخرى تزوجت من أحد ضباط الجيش المصري بالسودان .. وسافرت معه ، وفي مدينة دنقلة يوم ٩ سبتمبر عام ١٩١٩ رزقا بابنتهما الأولى « تحية محمد أحمد حليم » .. المعروفة الآن باسم الفنانة « تحية حليم » .

وقد توفى والدها بعد عودته من السودان وكان قد وصل الى رتبة الياور الأول للملك فؤاد ، كما حصل على رتبة « البكوية » ..



وجه نوبية .. في أقصى صعيد مصر



نجلاء : لوحة رسمتها بألوان الباستيل

فعاشت الفتاة طفولتها وصباها في جو من الرفاهية الأرستقراطية ، لولا أنها عشقت فن الرسم فسارت في طريق اختارته لنفسها .

طريق الفن

كانت دراستها الابتدائية في مدارس مصرية ، ثم التحقت بمدرسة فرنسية لفترة قصيرة ، تركتها وطلبت أن تدرس الرسم ، وكانت تحصل خلال فترة الدراسة بالمدرسة على الدرجات النهائية في مادة الرسم .

وفي المنزل تلقت دروس الفن واللغة الفرنسية ، ثم ما لبثت أن ألحت على دراسة الفن على يد فنان متخصص ، فالتحقت بمرسم الفنان « يوسف طرابلس » وهو فنان سوري ذاعت شهرته خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد هاجر الى البرازيل قبل أن تنتهي الحرب ، وبدأت تتردد على المعارض ، وفي احدى زياراتها لمعرض صالون القاهرة التقت بالفنان « حامد عبدالله »حيث أعجبت برسومه في أسوان والأقصر وطلبت منه أن يعرفها بأستاذه الذي علمه الرسم فاصطحبها الى الفنان اليوناني « الكوجيردن » الذي التحقت بمرسمه لمدة عامين توفي بعدهما ، فعرض حامد عبدالله على والد تحية حليم أن يتولى هو تعليمها الرسم ، فوافق الأب وخرجا للرسم معاً عن الطبيعة ، وكذلك في منزله بالمنيل ، وما إن حل عام ١٩٤٥ حتى ارتبطا بالزواج .

وبعد عام واحد من هذا الزواج قضياه في الاسكندرية انفصلا لمدة عام كامل .. ثم عادت علاقتهما لتستمر عشر سنوات أخرى . وطلبت الفنانة من اسرتها السفر الى فرنسا لاستكمال دراستها الفنية ، فسافرت مع زوجها عام ١٩٤٩ ، حيث كانت أسرتها ترسل لهما مبلغــاً صغيراً من المـال لمعيشـتهما ، والتحقت بأكاديمية « جوليان » حيث درست التشريح الفني والرسم الأكاديمي عن الطبيعة دراسة منتظمة ثلاث سنوات كاملة .

وفي عام ١٩٥١ شاركت بلوحاتها في المعرض المصري في لندن حيث كانت تدور لوحاتها حول مظاهرات الطلبة عام ١٩٤٩ ، ثم انتقلت لوحاتها لتعرض في « سان باولو » بالبرازيل عام ١٩٥٢ ، ثم توالت عروض لوحاتها في الخارج : فينسيا وبكين وموسكو وفي بلجيكا ...

التعاون والتنافس

ان تحية حليم وحامد عبدالله فنانان



زهور .. لوحة تعبر عن جمال الزهور وشاعريتها

كبيران ، وقد سادت علاقتهما روح التنافس أكثر من روح التعاون .. وهكذا كان من المتعذر أن يواصلا مسيرتهما المشتركة دون أن تطغى شخصية أحدهما على الآخر .. فكان لابد أن يستقل كل منهما بطريقه بعيداً عن الآخر .. وهكذا تم طلاقهما عام ١٩٥٧ في ايطاليا على يدي الدكتور ثروت عكاشة عندما كان سفيراً لمصر في روما ، كما شهد الطلاق الفنان صلاح كامل الذي كان يشغل منصب مدير الأكاديمية المصرية في روما ، وشق كل منهما طريقه كفنان ، هي في مصر وهو في النرويج ثم باريس .

وتحية حليم تعيش الآن في شقتها المطلة على النيل بالزمالك ، مع قططها التي ترعاها وكأنها أبناؤها فتقدمها على نفسها في كل شيء .. وهي تعيش في محراب الفن منذ عام ١٩٥٧ عندما برز أسلوبها الخاص ، فهي فنانة متمسكة بفنها ، وقد نجحت في التغلب على الأزمات والمشاكل التي اعترضت حياتها ، وكل ما يعنيها هو فنها فقط .

الجائزة العالمية

عزمت أن تشق طريقها فأقامت في حجرة على سطح منزل الأسرة بمصر الجديدة ، وفي عام ١٩٥٨ تقدمت باحدى لوحاتها لمسابقة جائزة « جو جنهايم » العالمية ضمن عدد من الفنانين المصريين ، وقررت لجنة التحكيم أن لوحتها « حنان » هي أفضل اللوحات المصرية المقدمة في هذه المسابقة ، ففازت بالجائزة ومقدارها ألف دولار .. ثم ما لبثت أن تلقت من متحف «جوجنهايم» في نيويورك خطاباً بطلب ضم هذه اللوحة الى مقتنياته ، ليعرضها بجانب أعمال لبيكاسو وسيزان وموديلياني وغيرهم ... فطلبت ألف دولار أخرى ثمناً للوحة .. ويواليها البريد بخطاب تقدير لأعمالها وطلب شراء نماذج أخرى من انتاجها ، وصلتها من أصحاب المجموعات الفنية وأصحاب قاعات عرض أعمال الفنانين ... وهكذا أثثت شقتها أو صومعتها الفنية بالزمالك بقيمة اللوحة الفائزة .. وبدأت تستقبل عدداً من ابناء العاملين في السلك الدبلوماسي والهواة الذين ينشدون تعلم الرسم .. لكنها عندما حصلت في عام ١٩٦٠ على منحة التفرغ للانتاج الفني ، توقفت عن التدريس وتفرغت تماماً لفنها .

وعندما قدمت أعمالها لمعرض صالون القاهرة في نفس العام حصلت على الميدالية الذهبية في فن التصوير الزيتي مع جائزة « علي لبيب جبر » .. وبدأ يتألق نجمها في الحياة الثقافية .

رحلة النوبة

وقد أتاح نظام التفرغ للفنانة أن تقوم برحلات في انحاء مصر ، وعندما سافرت الى النوبة لتتعرف على معالمها التقت هناك مصادفة بالدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة والارشاد القومي ـ في ذلك الوقت ـ فطلب منها تسجيل معالم النوبة ، لكنها اعتذرت بسبب قصر زمن الرحلة التي تقوم بها على نفقتها ..

في هذا اللقاء قرر الدكتور تنظيم رحلة الفنانة الشهيرة إلى النوبة التي سجلت معالمها قبل أن تغرقها مياه بحيرة ناصر .

تعتبر هذه الرحلة ذات أثر عميق لا يمحى على فن تحية حليم ، فنلاحظ بصماتها على انتاجها من ذلك التاريخ .. كانوا خمسة وعشرين من رجال الفن والفكر ، جمعتهم على المركب « الدكه » دعوة الدكتور ثروت عكاشة عام ١٩٦١ لزيارة بلاد النوبة والتعرف على معالمها .. بينهم المهندس والرسام والنحات والأديب والموسيقي وراقص الباليه .. واستمرت الرحلة لمدة شهر كامل متنقلين بين قرى النوبة مسجلين ما يرونه وما يسمعونه بينما كانت اقامتهم ومبيتهم على المركب .. وفي الليل كانوا ينزلون مع النوبيين ويشاركونهم الرقص والغناء ويتعرفون على تقاليدهم في الأفراح والمناسبات المختلفة .

ولقد رسمت الفنانة أهم لوحاتها من وحي النوبة ، أي من أثر هذه الرحلة التي لم تستمر سوى شهر واحد ولكنها طبعت فنها بقية العمر ...

كانت هذه الرحلة تضم الدكتور لويس عوض والفنانان سيف وأدهم وانلي وغيرهم .

وبعد عودة الفنانة واصلت الانتاج الفني متفرغة على نفقة الدولة لانتاجها ، لكنها اصيبت عام ١٩٦٣ « بروماتزم » في عينها ، فأمر الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بعلاجها على نفقة الدولة في لندن ، فسافرت لمدة عام كامل حيث رافقتها أختها لمدة ثلاثة شهور فقط .

وبعد فترة طلبت من طبيبها أن يأذن لها بالرسم وواجهتها مشكلة تدبير ثمن الخامات .. فأرسلت الى تلميذتها قبل أن تتفرغ للفن «روث آدم» بالنرويج تطلب منها إرسال مبلغ من المال لشراء أدوات الرسم على أن ترد اليها في مقابله بعض لوحاتها لتبيعها وتسترد نقودها وترسل الباقي للفنانة الراقدة في المستشفى بلندن ..

وتقول الفنانة إنها اشترت بهذه النقود ملابس وأدوات للرسم وقامت « روث آدم » بترويج لوحاتها في النرويج حيث رسمت وجوه المرضات بملابسهن الخضراء ..

وفي حفل رأس السنة عام ١٩٦٤ قامت بتزيين المستشفى بالزينات الورقية الملونة مستعيرة الأسلوب الياباني ، وعند إقامة الحفل كرموها باعتبارها المريضة التي أشاعت البهجة بألوانها ورسومها في جميع انحاء المستشفى ..

وعندما شفيت عينها عادت الى مصر لتقيم معرضاً للوحاتها في قاعة أتيليه القاهرة ، وقد دعي الناقد « جبريل بقطر » سفير السويد وزوجته لزيارة المعرض ، فأبديا اعجابهما باللوحات وطلبا من الفنانة الاستعداد لاقامة معرض لأعمالها في « استكهولم » عاصمة السويد مع دعوة



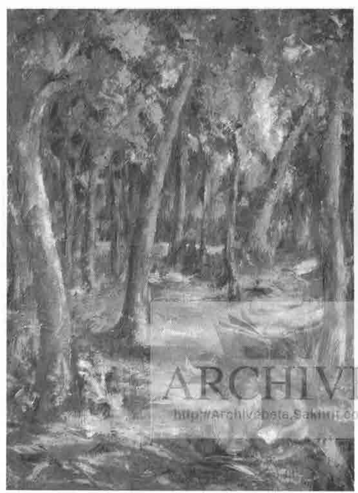
القدس .. زهرة المدائن التى يحاول الصهاينة طمس عروبتها

للإقامة مدة ثلاثة أشهر .. وكان سفير السويد في القاهرة في هذا الوقت ينتمي للأسرة المالكة في السويد ، فسافرت الفنانة معهما عند انتهاء مدة عمل السفير بالقاهرة عام ١٩٦٦ ، وعرضت أعمالها في متحف الفن الحديث الذي كان يعرض في نفس الوقت أعمال الفنان « مارك شاجال » .. ثلاث قاعات لشاجال والرابعة لتحية حليم . ونجح المعرض ، وكان الإقبال على مشاهدة اللوحات وطلب اقتنائها مؤشراً واضحاً ودليلا على تفوقها الفني وأنها استطاعت أن تخلق جمهوراً غفيراً يقدر موهبتها ..

لكن مكالمة تليفونية من القاهرة حملت اليها خبر موت قطها « بقلظ » جعلها تعتذر عن عدم البقاء في استكهولم وتقرر العودة فوراً الى القاهرة ..

كانت كل لوحات المعرض قد بيعت .. وطبعاً نشرت الصحف خبر سفرها المفاجئ لحزنها وانزعاجها على قطها المحبوب ، وخلق هذا التصرف المتسم بالرقة والحنان المبالغ فيهما تعاطفاً متزايداً مع الفنانة وأعمالها . وأصبحت تحية حليم فنانة مرموقة في السويد يتابع الجمهور أخبارها ويتوقع مجيئها من وقت لآخر .. وفي المتحف الأهلي بمدينة استكهولم توجد لوحتها « الانسان » التي يشار اليها من حين لآخر بفخر كلما نشرت أخبارها ..

وفي عام ١٩٦٧ أقامت معرضاً شاملاً لأعمالها بالقاهرة ، وكان فرصة سانحة للكتاب المصريين أن يقدموا الفنانة المتفوقة لقرائهم ، وأصبحت تحية حليم معروفة للجميع كفنانة متفرغة مولعة بجو النوبة والجوانب العريقة والأصيلة في مصر .. والنجاح يولد النجاح ...



حديقة الحيوان بالجيزة .. أحد المناظر الطبيعية التى تأثرت بها الفنانة

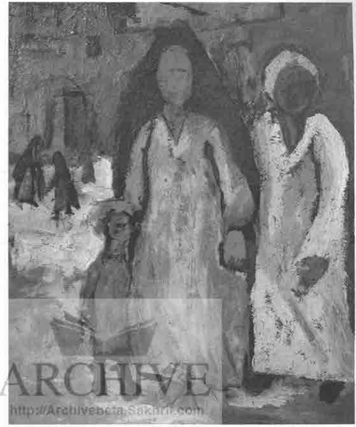
جائزة الدولة

تقدمت الفنانة عام ١٩٦٧ لجائزة الدولة التشجيعية ففازت بها في فن التصوير الزيتي عام ١٩٦٨ عن لوحتها « الخبز من الصخر » التي رسمتها عام ١٩٦٦ ، وقد فازت بالجائزة باجماع آراء اللجنة المخصصة لفحص الأعمال المقدمة ، كما حصلت على وسام العلوم والفنون بهذه المناسبة .

ويقول تقرير اللجنة التي منحتها الجائزة : « إن هذه اللوحة ، التي استوحتها الفنانة من النوبة تجمع خصائص فنها الذي يوائم بين مطالب فن التصوير الزيتي وبين التعبير الشاعري الوجداني ، هذا فضلاً عن قدرتها البارعة في صياغة نسيجها اللوني وفي اضفاء قيم تشكيلية على ملامح لوحاتها ، وفي قدرتها على استحضار الجو التصويري الذي تعبر عنه مع الاستحواذ عليه في عملها » .

وقد دعيت الفنانة عام ١٩٧١ لتقيم معرضاً لأعمالها في برلين الشرقية ، وكان الاحتفال بها شعبياً ورسمياً .. وكتبت عنها مجلتان و ٢١ جريدة .. وامتلأت جدران شوارع المدينة بالملصق الملون الذي يدعو الناس لزيارة معرضها ، وقد اقتنى متحف برلين لوحتها عن ٥ يونية ، ثم انتقل المعرض الى مدينة وارسو عاصمة بولندا واقتنى المتحف الأهلي احدى لوحاتها .

وبعد عودتها الى القاهرة سافرت مع



من وحى القرية

الفنانة «انجي افلاطون» لتقيما لمدة شهر في مدينة اخميم بصعيد مصر في دير الراهبات اللائي يشرفن على مدرسة لتعليم الفتيات النسيج اليدوي المرسوم والذي يتوارثه سكان تلك المدينة جيلا بعد جيل منذ أكثر من ١٥ قرناً .

هذا وقد انتهى تفرغها عام ١٩٧٥ وأصبحت تتقاضى معاشاً مثل الموظفين المتقاعدين ..

أما آخر معارضها فقد اقامته الفنانة عام ١٩٨١ بأمريكا حيث كانت في ضيافةابنة أختها المهاجرة هناك ، لقد ظلت ترسم ١٠ شهور متتالية على ورق البردي وورق الحرير الياباني ، وكانت تتأهب لعرض هذه الأعمال في واشنطن ، لكن الظروف حالت دون ذلك ، فعرضت لوحاتها في جامعة «وستكونستن» واهتمت أجهزة الاعلام بمعرضها ، إلا أنها بعد أيام من افتتاح المعرض فاجأتها أزمة قلبية جعلتها تلزم الفراش ثلاثة أشهر .

خصائص أسلوب الفنانة

تحتل الفنانة تحية حليم مكانة خاصة في حركة الفنون الجميلة المعاصرة بمصر ، كما ساهم اسلوبها في الرسم في تحديد ملامح جيل الفنانين الذي قدم عطاءه بعد الحرب العالمية الثانية .

وهي وإن كانت ترتكز على الفنون القديمة وتعبر عن الناس البسطاء في الريف وفي النوبة ، إلا أن هذا لم يجعلها تهمل البعد العالمي للفن أو تلغيه ، إنها تعتقد أن عالمية الفن لا تتحقق إلا بالفهم العميق للفنون القديمة بمصر ، وببعث تراث الأجداد القدامى من جديد ، وباعادة خلق الروابط التي تصل الماضي بالحاضر ، والتي تدفع الى النظر للمستقبل .

فالجذور الفنية لأعمال تحية نجدها كامنة في التراث القديم : الفرعوني ، والقبطي ، والاسلامي ، بالاضافة الى تمتعها بحس مرهف نحو روح الفن الشعبي وحبها العميق لنماذج هذا الفن . إن اسلوب الفنانة له طابع شديد التميز ، فلمحة واحدة تكفي للتعرف على لوحاتها وتحديدها بين ألف لوحة . وملامح فنها هي مزيج فريد من مؤثرات متباينة استطاعت الفنانة أن تعيد صياغتها من جديد ، وأن تبلورها في كل واحد .. فنحن نجد في لوحاتها روح التصوير الحائطي المصري القديم ، وهو أبرز ما يميز أعمالها ، فنجد المساحات المسطحة الواضحة التي يحيطها خط رئيسي .. وهي تراعي التجانس بين الخطوط . كما نلمس الاعتماد على معمارية التكوين ، والاهتمام بحيوية الهيكل الخارجي للأشكال .

لكن بجانب هذه الملامح المصرية القديمة نلمس أثراً واضح المميزات للمنسوجات القبطية القديمة بما عرف عنها من طريقة خاصة في خلق النماذج وتحريف الأشكال وتوزيعها في مواضعها ..

وفي الوقت نفسه نلمس روح الفن الاسلامي بعناصره الكثيفة ذات الايقاع المتجانس والمتميز بصفاء المساحات والاقتصاد في التفاصيل .

على أن هذا المزيج الفريد الذي يتكون منه فن تحية حليم ليس تجميعاً لمؤثرات خارجية ، لأن ما تحققه الفنانة هو قبل كل شئ عالمها الخاص المتميز بالحيوية والحضور ، وقد توصلت اليه عندما اكتشفت وهضمت الدلالة الخاصة التي تحملها فنون التراث .. وأصبحت قادرة على اكتشاف الصلة الوثيقة التي تربط هذه النماذج التي صنعتها حضارات قديمة بالعصر الحاضر .

إنها تسعى لخلق نوع من الاسطورة

المعاصرة ، فأحلامها تتلخص في محاولة خلق اسطورة خالدة .

إنها ترسم بتلقائية وفي اندفاع حسي ورغبة في التحرر والانطلاق اللامحدود ، وهي دائماً تخص كل هندسية صريحة رغم ان تكويناتها محسوبة بعناية ، فاللوحة عندها بناء متكامل على هيكل معماري راسخ . غير أن النبض الحي يسري في لوحاتها عندما تقوم بتحطيم الأطر الهندسية الجامدة .

والشخصيات التي يتناولها تصوير تحية حليم ، هي شخصيات تحمل صورة الماضي وتزخر في نفس الوقت بنبض الحاضر ، نفس الوجوه السمراء بلون طمي النيل ، وهي تطالعنا بنظرة مملوءة بالدهشة أو القلق أو التساؤل ، مع ابتسامة رقيقة غامضة في بعض الأحيان توحي ببراءة الطفولة .

حوار اللون

واللون عند تحية حليم يلعب دوراً هاماً وبارزاً ، وإن كان يبدو دائماً في وضع مساعد للخطوط التي تحدد المساحات المسطحة ، ولون الطينة المحروقة الذي تنشره في أنحاء لوحاتها يقوم بحوار حتى مع اللون الأخضر مما يحقق رموزاً بسيطة من هذا الحوار ..

ان هذين اللونين يلخصان عالم مصر بأكمله الذي نجده في صورة الشريط الأخضر الممتد امتداد الوادي المزروع وسط التلال الرملية الداكنة . فنحن إذن أمام عالم قد أعيد تكوينه بعد تكثيفه وتلخيصه في بساطة متناهية .

أما اللون الذهبي فهو نادراً ما يستخدمه الفنانون ، وهي ترى أنه لكي يتعايش مع بقية الألوان يجب أن يدخل ضمن النسيج اللوني كله ، لهذا تستخدمه عند تحضير لوحاتها للرسم وتغطيه خلال العمل حتى يختفي أو ينطفئ ، ثم تعيد إظهاره في أماكن متفرقة بكشط الطبقات التي تعلوه من الألوان في لسات متفرقة توحي بأن اللوحة يكسوها القدم .



نوبيتان بأزيائهما التقليدية ذات الألوان المميزة

وهكذا كانت الألوان عند تحية حية ومتألقة دون بهرجة ، فهي لا تستخدم لوناً صافياً ، ولا تعرف الدرجات اللونية الملتهبة ، فهناك دائماً غلالة شفافة من اللون تغطي أسطح الألوان الساطعة .. وهكذا يتحقق ما يسمى بالثراء في الملمس اللوني أو غنى النسيج في اللوحة ، وهو ما يعوض ما تفتقده من الصورة الواقعية التي تشمل الأبعاد والعمق .

أما لوحاتها المائية الصغيرة فنحن نلتقي فيها مع الطبيعة التي تتميز بغنائية وشاعرية مع المحافظة على الروح الشرقية الحالمة .

والفنانة لا تؤمن بالفن التجريدي ، وتؤكد أنها لم تحاول ولم تفكر في رسم لوحة تجريدية ، لأنها تعتقد أن طريقتها في الرسم لا تنتمي بشكل محدد الى أي مذهب فني معروف ، وقد استخلصت لنفسها طابعاً خاصاً بعد تجارب متعددة حققت لفنها مكانته العالية .. لهذا تقرر اصدار كتاب مصور عن أعمالها يضم صور أكبر مجموعة من لوحاتها مع تقديم لفنها وضعه المفكر المعروف الدكتور لويس عوض .

صبحي الشاروني

قالت نملة لقومها .. فهل فهم قومها ما قالت ؟
قالت نحلة لعشيرتها .. فهل فهمت عشيرتها ماقالت ؟



للطيور لغة وللقرود لغة

بقلم : الدكتور عز الدين فراج

نحن بني الانسان لنا وسائل متباينة للتخاطب غير وسيلة الكلام ، فاذا ذهلنا صحنا صيحة التعجب ، فيفهم الناس ما تحمله هذه الصيحة من معان ، واذا لم نهتم بامر من الامور هززنا اكتافنا ، فيفهم الناس ان موضوع الحديث لم ينل عنايتنا واهتمامنا . اما الحيوانات فلا تتخاطب بلغة الكلام ، من جمل وكلمات ، ولكنها تتخاطب بطرق اخرى . فبعضها يحدث ضجيجا يقابل عند الانسان ما يبديه من اصوات التعجب والدهشة ، كما يتخذ الرقص وسيلة للتخاطب ، ويتخذ النمل الرائحة وتطيم الطرق وسيلة للتخاطب .

لغة النمل

يعتمد النمل على قرون الاستشعار والزوج الأول من ارجلها كطريقة على عملية الاتصال والتفاهم . وتبدا النملة عادة بالتعرف على غيرها بملامسة جسمها اولا ، ومن ثم تعمل على لمس الراس وقرون الاستشعار لتحديد طبيعة الفرد الملموس من عاملة او جندي .. والملامسة هذه لا تكفي للتحديد .. وانما تلعب الرائحة دورا في اتمام عملية المعرفة هذه .

إن الاشارات الكيميائية يمكن ان تعرف إما عن بعد اي بطريقة الشم او الملامسة المباشرة ، كما يمكن ان تكتشف عند بعض الانواع عن طريق التذوق .

لقد تبين من خلال مراقبة ودراسة النمل ان لكل نوع افرازات معينة تعطيه بالتالي روائح خاصة ، ويعني ذلك ان لكل وكر من النمل رائحة خاصة ، ويعمل النمل على اعطاء نوعين من الآثار او العلامات التي يعلم بها الطريق . إن العلامات التي تتبعها افراد النمل ناتجة عن افرازات لغدة معينة ، عديدة الخلايا . موجودة بالراس او في الشرج .. وهناك افرازات غدة (دوفور) وهي غدة تفرز موادا قلوية تنفتح على قاعدة شوكة بطن الحشرة لتسجيل علامات على الطريق ، او لاثارة سلوك معين عند النمل في بعض الاحيان .

تعليم او تأشير الطريق

إن عاملة واحدة تخطط الطريق لمسافة اقل من خمسين سنتيمترا ثم تاخذ التعليم عاملة اخرى وهكذا .. اما كيف يتم هذا التاشير ؟ ! فالعاملات تعتمد لذلك طريقة افرازات غدة الدرفور تسيل على طول الأبرة الموجودة في نهاية البطن . هذه الأبرة تمس سطح الارض خلال مسيرة الحشرة في مسافات منتظمة ومحددة . وفي هذا المس يتم سقوط بعض الافرازات من الغدة السابقة والعديمة اللون . هذه الخطوط الصغيرة الناتجة عن مس الابرة سطح الأرض ، ما هي إلا مراكز لبث الرائحة . صحيح ان تركيز جزئيات الرائحة منخفض ولكنه كاف ومؤثر وبعد عدة مرات من مرور العاملات فان تخطيط الطريق يتاكد . لان النمل يستمر في افراز هذه المركبات المعطية .

لقد قضى استاذ النحل (فون فرتش) في جامعة ميونخ ، اكثر من عشرين سنة في دراسة طباع النحل وعاداته ، وخلص الى نتائج طريفة ضمنها كتابا جاء فيه :

ينتخب النحل من بينه افراداً تقوم بمهمة الكشف .. فتخرج في الصباح الباكر باحثة عن الأزهار المتفتحة ، مستعينة بعيونها الحادة التي ترى الاشعاعات فوق البنفسجية التي لا تراها العين البشرية .

وعندما تحط النحلة على الزهرة تذوق رحيقها وتحدد نوعه ونسبة السكر فيه بحاسة الذوق وهي لا تعني بجمع الرحيق من الازهار التي لا تزيد نسبة السكر فيها على ٥ ٪ لان رحيقها يفسد قبل ان يركز ويحول الى عسل . ولكن النحلة تقنع برحيق نسبة السكر فيه ٢٠٪

وتاخذ النحلة الكاشفة (عينة) من الرحيق ، ثم تعود الى الخلية لتذيع الانباء السارة لزميلاتها .

ويمكن مشاهدة ذلك بسهولة عندما نستعمل خلية صنعت من الواح زجاجية: فاذا وضعنا مثلا محلولا سكريا على بعد ٢٠ مترا من الخلية ، وامسكنا نحلة عند استعدادها للطيران ثم وضعناها على المحلول السكري ، بعد وشمها على صدرها بلون ظاهر كاللون الاحمر ، فعند رجوع هذه النحلة لخليتها اذا امكننا مشاهدتها على القرص الشمعي نشاهد على طرف خرطومها قطرة من المحلول السكري لتعرف الشغالات القريبة منها نوع الطعام ورائحته ، ولتنبئهم عن موقعه وبعده عن الخلية فانها تجري على هيئة دوائر يمينا ويساراً في مواقع متنقلة على القرص ، وتسمى هذه الحركات بالرقصة الدائرية ، فاذا شاهد جيرانها تلك الحركة ينشطن معها ويلامسنها بقرون الاستشعار ، ليعرفن رائحة الطعام ومصدره ، ويسارع النحل بعد ذلك بالخروج نحو مصدر الطعام ، ويقوم النحل بالرقصة الدائرية اذا كان بعد مصدر الطعام اقل من مائة متر ، فاذا زادت المسافة على ذلك فان النحلة تقوم برقصة اخرى ، تسمى الرقصة الاهتزازية على شكل انصاف الدوائر ، تقل في الحجم والعدد كلما بعد مصدر الغذاء ، ويستعمل النحل الشمس لتحديد اتجاه موضع الطعام من الخلية ، فاذا كان موضع الطعام شمال الخلية ادت النحلة رقصتها وراسها متجه نحو قمة القرص ،واذا كان مصدر الغذاء جنوب الخلية ادت النحلة رقصتها وراسها نحو قاعدة القرص ، وكذلك تتخذ من الشمس بوصلة تحدد بها الزاوية بين مصدر الغذاء والشمس والخلية .

ولايشك فون فريتش في ان رائحة الزهرة ، وليس رحيقها ، هي التي تجذب النحل ،فالرائحة تعلق باجسامها ، وبذا يمكن لافراد النحل الاخرى ان تشم تلك الرائحة وان تتعرف عليها ، من هذا كانت لغة النحل لغة روائح . ومن التجارب التي اجراها هذا

الباحث نفسه ، انه كان يغذي النحل من اكواب زجاجية ، بها قليل من زيت القرنفل ، فكان يتبع بالطبع حدوث الرقص العادي في الخلية ، ثم الهجوم العنيف الذي يشنه الاتباع للبحث عن الطعام ، وقد لوحظ ان هذا النحل الخارج من الخلية ذهب الى الاكواب المحتوية على زيت القرنفل ، والى اي شيء يحمل اثر هذا الزيت ، وليس الى الازهار وحدها .

وقد اثبتت هذه الأبحاث ان لغة النحل قوامها الغريزة ، ولا تكتسب اكتسابا .

وتساءل الناس ايضا هل اصوات الطير تكتسب بالتقليد ، او هي من دوافع الغريزة ؟

وقد اجاب (منروفوكس) ، استاذ علم الحيوان بجامعة برمنغهام ، على هذا السؤال فقال :

فقست مائتان من الكتاكيت في جهاز التفريخ ، فاخذ نصفها ووضع في عزلة تامة ، وعزل النصف الآخر في مكان يتيح له فيه ان يسمع الديكة والدجاجات تصيح بالقرب منه .

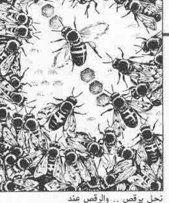
وعندما كبرت هذه الكتاكيت ، وبلغت مبلغ الدجاج ، لاحظ المراقبون انها قادرة على أن تحدث اصواتا مختلفة كتلك التي تحدثها الديكة والدجاجات ، ولا فرق في ذلك بين المجموعتين .. يتضح من هذه التجربة ان هذه الأصوات هي وسيلة التخاطب عند الدجاج ، وانها غريزة تولد معها ولا تكتسب بالتعليم والتقليد .

والدجاجة اذا ارادت ان تنذر صغارها بخطر مفاجيء تقوقيء قوقاة مزعجة ، فتنكمش الصغار في مكانها ، وتظل بلا حركة حتى تصدر الأم صوتا يخالف صوتها السابق ، وكان الصوت الأول صفارة خطر والثاني صفارة امان . والطيور المهاجرة في اثناء الليل تحدث اصواتاً عالية تعمل على تجمعها ، فاذا ما ضل طير من الطيور المهاجرة الطريق ، استطاع لدى سماعه هذه الأصوات العالية ان يتعرف على سربه ، ويرجع اليه .

وتساءل العالمان الدكتور نيقولاس كوليس الاختصاصي في علم الحيوان بجامعة كورنيل ، ومارتن جوز الاستاذ بقسم الأبحاث بجامعة وسكونس بامريكا قائلين :

هل للدجاج لغة خاصة يتفاهم بها ؟ ! وهل ترمز أصواته التي يحدثها الى معان معينة ؟ !

ولكي يجيب هذان العالمان على هذين السؤالين ، حلل الباحثان هذه الاصوات ، وسجلاها بواسطة آلة تحول الاصوات الى خطوط متموجة ترسمها على الورق ، فبينت تلك الخطوط تماثل التموجات التي تسجل المعاني المتشابهة ، في عواطف أو أحوال نفسية ، وقد تعهد الاستاذ جوز بعملية



نحل يرقص .. والرقص عند النحل لغة !

جمع كبير من النمل يهاجم ثعباناً مريضاً لنزع جلده !



نحلتان عادتا إلى خليتهما بعد أن جمعتا قدراً من رحيق الأزهار .. إنهما تخزنان هذا الرحيق فى عيون الخلية

التسجيل ، بينما قدم الدكتور كوليس ما توصلا اليه من شروح وتفسيرات الى الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم .

وقال : يمكن الاستدلال من الخطوط المتموجة على حال الدجاجة من سرور او حزن ، لعزلتها او جوعها او شعورها بالبرد او الالم ، ولكن يختلف التوقيت الزمني لتلك الاصوات باختلاف المعاني المختلفة : فيمكن للدجاجة الام ان تنادي افراخها لتتبعها اينما سارت باصدار صوت معين ... مرتين في الثانية ، وتسرع تلك الأصوات الى اربعة في الثانية اذا اكتشفت الدجاجة طعاما فتدعو افراخها اليه ، واذا ما جن الليل فانها تردد صوتا يستغرق حوالي ثانية ونصف ثانية في المرة الواحدة ، تنادي افراخها لتجمعها تحت اجنحتها ، واذا ظهر في الجو طير جارح احدثت صوتا مرتفعا اجش ينذر افراخها بالخطر ، فتفر بسرعة لتحتمي وتختفي عن الانظار .

وللكلاب ضغاء اذا جاعت ، ووقوقة اذا خافت ، وهرير اذا انكرت شيئا او كرهته .

وهي كما قال بروفسور (منروفكس) : تعرف نغمة الصوت التي يعبر عنها الصوت ... فاذا قلت لكلب في لهجة المنشرح المبتهج : إني ضاربك يبصبص بذنبه ... واذا قلت بلهجة المكتئب : ساحضر لك قطعة عظم ... وضع ذيله بين ساقيه .

وقد امكن تدريب الكلاب على ان تاتي اعمالا معينة استجابة لأوامر منطوقة وبلغ بالكلاب الذكية ان تطيع الأوامر الصادرة لها وتستجيب لها ، حتى اذا لم تستطع رؤية الفرد الآمر نفسه .

والحصان قد يصهل صهيلا ، وقد يضرب الأرض بحافره . فتسمع بقية الخيل هذا الصهيل وترى حركة هذا الحافر ... فتفهم من ذلك ما يعنيه هذا الصهيل وما تدل عليه هذه الحركة .

وللقردة اصوات مختلفة ولها ايماءات كثيرة بحركات وجهها ، تبديها بشكل خاص وطابع معين كلما حل بها الضيق ، وكلما عضها الجوع او غمرها الفرح ، فاذا اخذت ثمرة من ثمار الموز من يد قرد الشمبانزي ، فان هذا القرد يستطيع ان يبدو غاضبا عابسا .

فاذا رغب هذا الشمبانزي في واحدة من هذه الثمار ، فهو يستطيع أن يبدو امامنا جائعا .

وسواء اكانت حركات هذا الشمبانزي مصقولة ام غير مصقولة ، فهي تعطي صورة عن حالته النفسية ، اغاضب هو ام جائع ام قرير العين مسرور ؟

وقد تتساءل وتقول :

هل يعرف القرد بوحي من غريزته كيف يحدث هذه الاصوات والحركات ، ام هي نتيجة من نتائج تعليمه وتدريبه ؟

وقد اجاب على هذا السؤال احد الباحثين الفرنسيين بتجربة قام بها ، فاخذ قردا في يوم مولده ، وابعده عن بيئته مدة خمس سنوات لا يرى فيها قردا ولا يسمع صوتا ، وعرف هذا الباحث ان هذا القرد يستطيع التعبير عن حاجته بلغة القردة ، كما يعبر بها اي قرد اخر لم يعزل عن عشيرته ـ ومن ذلك استنتج أن منشأ اصوات القردة وحركاتها من وحي الغريزة ، كما هو الحال في الطيور والحشرات .

خيول عربية : جزء من لوحة مائية رسمها هارينجتون بيرد





أحبّه العرب وتغنّى به الشعراء.. وحافظ على أصالته منذ أقدم العصور!

بقلم: حسني شحادة

لم تكن العرب تصون شيئا من أموالها ، ولا تكرمه صيانتها الخيل ، وإكرامها ، لما كان لهم فيها من العز ، والجمال ، والمنعة والقوة(١) ، حتى كان الرجل العربي ، ليبيت طاوياً ، ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده ، فيسقيه المحض ويشربون الماء القراح (٢) ، ويعير بعضهم بعضاً باذالة الخيل وهزالها وسوء صيانتها ، وينكرون ذلك في أشعارهم ، فيقول الشاعر الجاهلي (عنترة العبسي) :

أبني زبيبة ما لمهركم
متهوشاً وبطونكم عجر

(ويقول عمرو بن مالك) :

وسابح كعقاب الدجن اجمله
دون العيال له الايثار واللطف

أول من ركب الخيل

يحدثنا «ابن الكلبي» «هشام بن المنذر» في كتابه «أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام» :

أول من ركب الخيل «اسماعيل بن ابراهيم» عليهما السلام (٣) ، وأول من تكلم بالعربية الحنيفية التي أنزل الله سبحانه وتعالى ، قرآنه على رسوله بها .» فقد كانت الخيل وحوشاً لا تركب ، فأول من ركبها اسماعيل عليه السلام ، فلذلك سميت «عرابا» ،

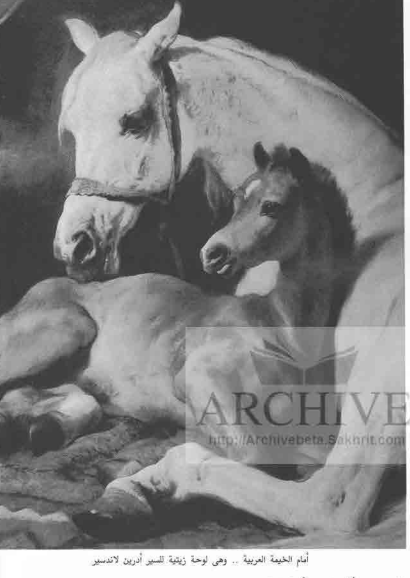
ولخص ابن عبد ربه ، في «عقده الفريد» ، قصة عن ابن الكلبي تقول : (٤) إن أول ماانتشر في العرب من تلك الخيل ، أن قوماً من «الأزد» من أهل «عمان» ،

قدموا على «سليمان بن داود» عليه السلام ، بعد تزوجه «بلقيس» ملكة سبأ ، فسألوه عما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ، حتى قضوا من ذلك ما أرادوا ، وهموا بالانصراف ، فقالوا :

«يانبي الله ، إن بلدنا شاسع ، وقد أنفضنا من الزاد ، مر لنا بزاد يبلغنا إلى بلادنا» .

فدفع اليهم سليمان عليه السلام ، فرسا من خيله ، وقال . «هذا زادكم ، فإذا نزلتم ، فاحملوا عليه رجلا ، واعطوه مطردا . وأوروا ناركم ، فانكم لن تجمعوا حطبكم ، وتوروا ناركم ، حتى يأتيكم بالصيد» .

فجعل القوم لا ينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلا ، بيده مطردا ، واحتطبوا وأوروا نارهم ، فلا يلبث أن يأتيهم بصيد ، فيكون معهم منه ما يكفيهم ويشبعهم ، ويفضل إلى المنزل الآخر ، فقالوا . «ما لفرسنا هذا اسم إلا «زاد الراكب» ، فكان ذلك أول فرس انتشر في العرب من تلك الخيل



أمام الخيمة العربية .. وهي لوحة زيتية للسير أدرين لاندسير

أساطير حول الجياد

نسجت الجاهلية اساطيرها حول الجياد العربية ، فهذه أسطورة عن أهل الخيل تقول(٥) :

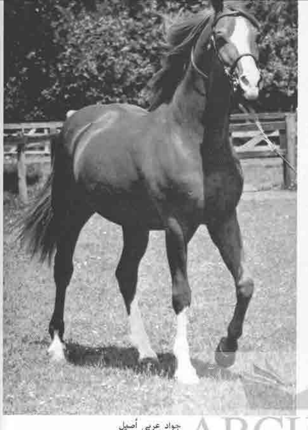
لما وقع «سيل العرم» ، فرت الخيل مع الوحوش الى القفر ، ولم يلبث أن ظهرت خمس من كرائمها في بلاد نجد ، فخرج خمسة من الأعراب في طلبها ، فراقبوها ، حتى رأوها ترد العين الوحيدة في تلك المنطقة ، فجاؤوا بخشبة طويلة شكوا بها الأرض قرب العين ، فجفلت الجياد من الخشبة . فاشتد عليها العطش فرجعت الى العين وشربت ، وسرحت ، وفي اليوم التالي جاءوا بخشبة ثانية وثالثة ورابعة ، حتى قامت دائرة خشبية حول العين ، وأبقوا فيها فرجة للدخول والخروج ، وقد ألفت الجياد رؤية الخشب ، وعند ورود الجياد العين ، أسرع الرجال وسدوا عليها الفرجة ، وحبسوها في الدائرة المسورة بالخشب ، وأبقوها حتى أنهكها الجوع ، وصاروا أثناء ذلك يروحون ويجيئون ، ويحومون حولها ، يقدمون لها الكلأ ، حتى تعودت على رؤيتهم ، وأنست لهم ، وتمكنوا من امتطاء ظهورها ، وخرجوا بها يطلبون مضاربهم .

وفي الطريق نفد زادهم ، وخر بهم الجوع ، فاتفقوا على السباق ، ومن قصر عن الركب ذبحت فرسه وأكلوها ، وجعلوا لصاحبها حظاً من الجياد الأربع الباقية ، وتسابقوا ، فتأخرت واحدة من الخمس ، فعزموا على ذبحها ، ولكن فارسها رفض ، مصراً على وجوب إعادة السباق ، فأعادوه ، وتأخرت الثانية ، فأبى فارسها ، وطلب اعادة السباق أسوة بالأول .. وهكذا تكرر السباق وتأخرت الثالثة فالرابعة فالخامسة ، وأبى أي فارس أن تذبح فرسه ، وبينا هم على هذا الحال ، لاح لهم قطيع من الغزلان ، فطاردوه ، وظفر كل واحد بغزال فأكله ، وسلمت الأفراس .

وسمى هؤلاء الرجال الفرس السابقة الأولى . «الصقلاوية»لصقالة شعرها ، وكان



تمثال برونزي لجواد عربي وهو للمثال «باميلا دوبولاي»



جواد عربي أصيل

اسم صاحبها «جدران» ، فعرفت «بصقلاوية الجدران» .

وسموا الفرس الثانية «أم عرقوب» ، لالتواء عرقوبها ، وكان اسم صاحبها «شويه» ، فعرفت «بأم عرقوب شويه» .

وسموا الثالثة شويمة ، لشامات بها ، وكان اسم صاحبها «سباح» ، فقالوا لها «شويمة السباح» .

وسموا الرابعة «كحيلة» لكحل في عينيها ، وكان اسم صاحبها العجوز ، فاشتهرت باسم «كحيلة العجوز» .

وسموا الخامسة «عبية» ، لأنها عندما جرى السباق ، وقعت عباءة فارسها على ذيلها ، فأبقت ذيلها مرفوعاً ، والعباءة عالقة به إلى آخر الشوط ، وكان اسم صاحبها شراك ، فقيل لها «عبية شراك» .

الخيل في الإسلام

لم تزل العرب على ذلك ، من تمييز الخيل ، والرغبة في اتجارها وصيانتها والصبر على مقاساة مؤونتها مع جدوبة بلادهم ، وشدة حالهم في معاشهم ، حتى جاء الإسلام ، فأمر الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، باتخاذها ، وارتباطها لجهاد عدوه ، فقال تعالى :

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» .

فاتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحض المسلمين على ارتباطها ، فكان من أرغب الناس فيها ، وأصونهم لها ، وأشدهم إكراما لها ، وحبا وإعجابا بها ، حتى أنه كان يسر بصهيل يسمعه ، وكان يسبق بها ، ويعطي على ذلك السبق ، ويمسح وجه فرسه بثوبه ، وأسهم صلوات الله وسلامه عليه للفرسين سهمين ، وللرجل سهما واحدا في المغانم .

التحفة الكنز

أما كتاب الجواد العربي التحفة الكنز ، فهو آخر ماكتب المؤرخ الأستاذ «ابراهيم يزبك» . فقد كانت التحفة الكنز هي هديته الأخيرة ، ووصيته الأخيرة الى أبناء العربية ، وإلى الباحثين عن الجواد العربي في كل مكان .

يقع الكتاب التحفة في نيف ومائتي صفحة من القطع الكبير . موشى بلوحات فوتوغرافية ملونة وناطقة عن الجواد العربي ، وفي آخر كل فصل ، ثبت بالمراجع والكتب التي عاد اليها المؤلف كمراجع لأبحاثه .

إذا جاز لنا أن نقسم كتاب الجواد العربي التحفة الكنز أبوابا ، فيمكن تقسيمه الى أبواب ثلاثة :

أولا : أجناس الخيل العربية وأصولها .
ثانيا : أوصاف الجواد العربي .
ثالثا : أقوال عن الجواد العربي .

أصول الخيل العربية

اعتمد المؤلف في أجناس الخيل العربية



صيد الأسود : هكذا كان الفرسان يصطادون الأسود وهم يمتطون الخيول

على صاحب كتاب «الصناعية في البيطرة والزرطقة» «لأبي بكر بن بدر الدين البيطار» ، حيث قسم أنسابها إلى عشرة : الحجازي أشرفها ، والنجدي أيمنها ، واليماني أحيرها ، والشامي ألونها ، والجزيري أحسنها ، والبرقي أخشنها ، والمصري أفرهها وأخفها ، والخفاجي أيصلها ، والمغربي أنسلها ، والافرنجي أفشلها .

ووصف «محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري» في كتابه «عقد الاجياد في الصافنات الجياد» هذه الأنساب .

وذكر «ابن الكلبي (٧)» في كتابه «أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام» خيول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أنها خمسة هي : لزار ، ولحاف ، والمرتجز ، والسكب ، واليعسوب ، وكلها معدودة من خيل بني هاشم ، في حين ذكر صاحب «التحفة الكنز» أسماء تسعة عشر فرسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي :

«السكب» ، وهو أول فرس ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ابتاعه من اعرابي من بني فزارة ، وكان اسمه عند صاحبه «الفدس» ، وغزا عليه صلوات الله وسلامه في موقعة أحد ، فكان كفيض الماء وانسكابه ، فسماه «السكب» ، ثم أخذ يقتني الصافنات الجياد ، وهي :

الأبلق ، والأدهم ، والبحر ، وذو العقال ، وذو اللمة ، والسبحة ، والسجل ، والسرحان ، والظرب ، واللحيف أو اللحاف (لطول ذيله ، فكان يلحف الأرض بذيله ويغطيها) ، واللزار والمرتجز ، والمرتجل ، والمراوح ، وملاوح ، والورد ، واليعبوب ، واليعسوب .

أما أسماء فحول الخيل وجيادها في الجاهلية والإسلام ، فقد نقل مؤلف الجواد العربي «التحفة الكنز» هذا الفصل ، كما جاء في أنساب الخيل لابن الكلبي ، والذي حققه شيخ العروبة العلامة الحجة المغفور له أحمد زكي باشا ، مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وقد نظم العلامة الشيخ نصيف اليازجي أربعة أبيات في اشهر أفراس العرب فقال :

أشهر خيل العرب المشهر
ثم النعامة التي لا تنكر
وداحس منهن والغبراء
كذلك الحظار والحنفاء
وأعوج ولاحق سكاب
كذلك العبيد والعقاب
كذا العصا وأمها العصية
وكم لهم أما وكم بنية

أوصاف الجواد العربي

كتب في هذا الموضوع جميع الذين ألفوا عن الخيل ، وجاء كتاب التحفة الكنز ، ليجمع ويحقق ويصنف ما جمعوا ، فبدأ بهيكل الجواد ، فوصفه عضوا عضوا ، ثم انتقل الى وصف أصوات الخيل ومنه الصهيل ، والصهال ، والحمحمة ،

اجتياز ١٢٠ مترا ، أما معدل سرعة الخبب فهو ٢٤٠ مترا في الدقيقة ، والخبب طبيعي في الفرس ، وتجريه الخيل في البرية بدون تعليم ، وللفارس أثر في سرعة الفرس .

وألوان الخيل كثيرة ، ولكن للناس أذواقا ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يتيمن بالخيل الأشقر ، فيقول عليه الصلاة والسلام «يمن الخيل أشقرها» ، «وخير الخيل الأشقر ، فأدهم أغر ، محجل ثلاث ، طليق اليمنى» ، «اللهم بارك في الشقر» ، فأدهم أغر ، طليق اليماني » ، «اللهم بارك في الشقر» ، «ولو أن خيل العرب جمعت في صعيد واحد ، ما سبقها إلا الأشقر» .

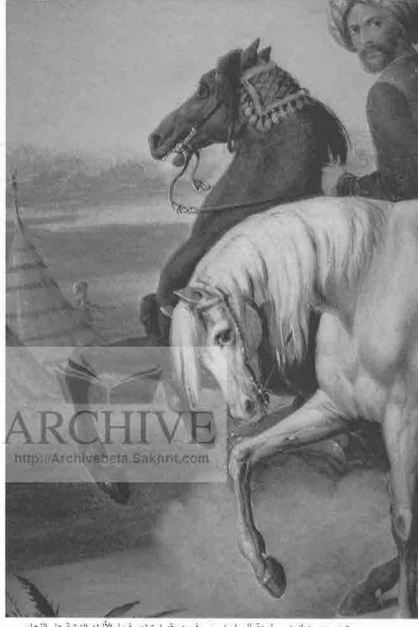
يتباين اللون الأشقر أنواعاً ، فهو ذهبي ، وعسلي ، ومحرق ، ووردي ، وأشقر شائب (ذيله أبيض) .

ومن ألوان الخيل «الأجوأ» وهو ما كان لونه أحمر يضرب الى السواد ، ومنها الأدهم الغيهب ، والأدهم الأحم ، والأدهم الجوني ، والأدهم الأكهب ، والكمته ، وهي أحب الألوان الى العرب ، قال الأصمعي «يقال لكل من الذكر والأنثى كميت» .

أما الجواد الأدهم ، الأسود الثوب ، فهو مستحب ونادر عند العرب ، وقيل : «إذا أردت الغزو ، فاشتر فرساً أدهماً محجلاً ، مطلق اليمني ، فانك تغنم وتسهم»

أما الجواد الأشهب ، فهو أبيض الشعر ، وأما الأزرق النميري ، فهو ما يشبه لون النمر ، ويستحب الأزرق والأشهب عند ملوك العرب وأمرائهم وعند كبار القوم ، فقد اقتنى سلاطين الدولة العثمانية الجياد الشهب ، وكذلك الخلفاء في الأندلس ، وكان جواد نابليون دائما أشهبَ .

إن للخيولة الأصيلة لغة وذكاء وشخصية ،كما أن لها مزاجا تكتسبه



عربي مع جوادين .. لوحة للرسام (ح . بفور) وقد استخدم فيها الألوان الزيتية على النحاس

واللجب ، والصلصلة ، والجلجلة ، مستشهدا بأقوال الشعراء ، كعنترة العبسي حيث يقول :

فازْوَرَّ من وقع القنا فزجرته
فشكـا إليَّ بعبرةٍ وتحمحـم

أما صفة مشي الخيل ، فقد جمعها المؤلف عن الأصمعي ، وأبي عبيدة ، والجزائري وخوري ولاروس، فأول المشي العنق ، ثم التوقض فالدألان ، فالخبب ، والتقريب ، والتجلية ، والرديان ، والدهو ، والقران ، والضير ، والهبلجة ، والألهوب ، والكردحة ، والهربذة .

ومعدل سرعة سير الجواد في الدقيقة ١١٥ متراً ، وإذا ضمر الحصان استطاع

بالترويض ، فتفهم المخاطبة ، وتمثل الأمر والنهي .

ويقول الجزائري في عقد الأجياد : «إن الخيل أقرب مزاجا إلى الإنسان ، لأن الغالب في مزاجها الحرارة والرطوبة ومزاج الهوى» . وعن «سيار» قال : إن أصح الحيوانات مزاجا الخيل ، لذلك تؤثر فيها الرياضة . ومن أخلاق بعضها الدالة على شرف نفسها ، معرفة صاحبها ، فلا تمكن أحدا من امتطائها ، ولا تأكل بقية علف غيرها .

أقوال عن الجواد العربي

ما أكثر ما قيل في الجواد العربي ، حتى تجري هذه الأقوال مجرى الأمثال تارة ، والحكم أخرى ، ولا يسعنا في هذا المقام إلا ان نورد شذرات منها .

لقد تفنن الشعراء في أوصاف خيولهم في جميع حالاتها ، وقد أجمعوا على اعطاء تلك الصورة . عند خوض المعامع والوقائع والحروب ، فهذا مزرد بن ضرار الديباني يفخر بشجاعته واعتماده على جواده الأصيل وفرسه التي أعدها ليوم الروع ، فيقول : (٨)

وعندي اذا الحرب العوان تلقحت
وأبدت هواديها الخطوب الزلازل
طوال الفرا قد كان يذهب كاهلاً
جواد المدى والعقب والخلق كامل
أجش صريحي كأن صهيله
مزامير شرب جاوبتها جلاجل
متى ير مركوباً يقل باز قانص
وفي مشيه عند القياد تساتل
... كميت عبناه السراة نمى بها
الى نسب الجيل الصريح وجافل
تقول إذا ابصرته وهو صائم
خباء على نشز أو السيد ماثل

ويصف عنترة بن شداد لحبيبته جواده إبان الحرب فيقول :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة سابح
نهد . تعاوره الكماة مكلم
طوراً يحرد للطعان وتارة
يأوي الى حصد القسي عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعة انني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

والخيل تقتحم الخبار عوابس
من بين شيظمة وأجرد شيظم

ومن روائع أبي الطيب المتنبي ، ما قاله في مهر فرسه «الجهامة» ، وكان يطلق عليه الطخرور ، عندما أقام الثلج على أرض انطاكية وتعذر المرعى على المهر (١٠) :

ما للمروج الخضر والحدائق



الخيل في مخطوطة اسلامية من القرن الرابع عشر



فارس مملوكي يمتطي حصانه .. اللوحة في مخطوطة مملوكية بعنوان : « نهاية السؤال والأمنية في علم الفروسية

يشكو خلالها كثرة العوائق
يعقد فيها الثلج كالمرافق
باق على البوغاء والشقائق
.. كأنما الطخرور باغي آبق
يأكل من نبت قصير لاصق
.. بمطلق اليمنى طويل الفائق
عبل الشوى مقارب المرافق
.. محجل نهد كميت زاهق
شادخة غرته كالشارق
.. بين عتاق الخيل والعتائق
فعنقه يربي على البواسق
.. وحلقه يمكن فتر الخانق
أعده للطعن في الفيالق

كما أفرد صاحب كتاب الجواد العربي « التحفة الكنز » فضلاً عن « أمثال عن الخيل والفرسان (١١) » اعتمد نقلها عن العلامة الميداني في كتابه مجمع الأمثال ، نورد منها :

« ثلاث من سعادة الانسان : امرأة حسناء ، ودار قوراء ، وفرس مربوط بالفناء .

« تركته على مثل خد الفرس
اي تركته على طريق واضح مستو

« مثل وقصة :
تسبى الكحيلة ولا يردها بليق .

فقد كان لبدوي فرس كريمة أسمها « الكحيلة » ، مشهورة بين القبائل ، فبعث زعيم إحدى القبائل لصاً ليسرقها ، وأخذ يترقب الفرصة ، الى أن رأى الكحيلة طليقة ، فاسرع إليها ، وامتطى ظهرها ، وراح يسابق بها الريح .

شاهده بعض الرعاة ، فأخبروا صاحبها ، فركب أسرع أفراس قبيلته ، وامتطى ابنه كديشا اسمه « بليق » ، اشتهر بسرعته ، ومسابقته أكرم الخيول . طال الطرد ، فاقترب الابن من السارق وكاد يدركه .. ويطعنه في ظهره .

لما رأى الوالد صاحب « الكحيلة » ذلك ، فضل أن ينجو السارق بالفرس ، على أن يسترجعها الكديش ، لتقول العرب : إن الكديش لحق الأصيلة كحيلة واسترجعها ، فصاح بأعلى صوته ــ وقد اقترب السارق من أرض موحلة ــ قائلا : دونك الغبيط .. فسر فيه وإلا فضحت الكحيلة داركها « بليق » الكدش . وعمل اللص بذلك . وتابعت الكحيلة جريها وأراد الابن الجري في الغبيط (الأرض الموحلة) ، فعصاه الكديش ، وفر السارق بالكحيلة .

استهجن الابن فعل أبيه أمام قبيلته ، فقال الأب : « تسبى الكحيلة ولا يردها بليق » .

كلمة أخيرة

ذلك هو الجواد العربي ، الذي استهوى العرب قديماً وحديثاً ، فأسر القلوب بمحاسنه وجماله ، فاصبح الصديق في السلم والحرب ، واللهو والجد ، والصيد والطرد ، وفيه من خصال الشرف والمنافع ، والغناء في السفر والحضر ، وفي الزينة والبهاء ، وفي العدة والعتاد .

وقد انتقل ذلك الى البلاد الأجنبية ، فافتتنوا به أيضاً ، واتبعوا الأصول العلمية في توثيق أصوله ، وكيفية تربيته وتدريبه ، وتوالده وتكاثره ، واجراء المسابقات العالمية ، وحسبنا إعجاب شاعر فرنسا الكبير « لا مارتين » بقوله :

« إن عيون الجياد العربية هي لغة بكاملها ، فالجواد العربي ، يعبر بعينه الساحرة عن كل شئ ، وبها يفهم كل شئ وتنفجر في مجراها حدقة من نار ، وسط بياض مبقع بالدم » .

وأملنا أن تبقى بلاد العرب الوطن الدائم للجواد العربي ، بعد أن حاول الأجنبي أن ينقل هذا الموطن .

حسني شحادة

الهوامش والمراجع :

(١)كتاب الخيل لأبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هجرية ص ٢ .
(٢) عقد الأجياد في الصفات الجياد لمحمد بن الأمير عبدالقادر الجزائري ص ١٣
(٣) أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٢٢
(٤)العقد الفريد ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩
(٥) الجواد العربي ليوسف ابراهيم يزبك ص ١٣
(٦) أنساب الخيل لابن الكلبي ص ١٠ ــ ١١
(٧) عقد الاجياد للجزائري ص ٢٦٢
(٨) انساب الخيل لابن الكلبي ص ١٩
(٩)وصف الخيل في الشعر الجاهلي للدكتور كامل سلامة الدقس ص ١٤٥
(١٠) كتاب الخيل ص ٤٠
(١١) الجواد العربي ص ١٥٦
(١٢) كتاب الجواد العربي ص ١٧٨

الطَّبَرِيُّ
وكتاب تاريخ الأمم والملوك

بقلم : أحمد العناني

يستأهل ابن جرير الطبري بلا ريب أن نفرد له فصلاً خاصاً في استعراضنا هذا لتاريخ علم التاريخ والمؤرخين ، كما يستأهل كتابه عن الأمم والملوك أن نتوقف معه وقفة تحليلية حيث هو أعظم منجزاتنا الكلاسيكية في التاريخ .

فمن هو ابن جرير الطبري ؟ وما الذي يحدونا أن نوليه هذه العناية الخاصة ؟

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، يكتسب اسمه من اقليم طبرستان الجبلي الوعر المطل على بحر قزوين ، والذي يشمل أودية ومواقع لها من سحر الجمال ما يفوق الوصف ، وفي موقع من أطرافها غنى أبو الطيب المتنبي واحدة من أحلى فرائده الخالدة في وصف شعب بوّان ... المهم أن ذكاء المبرزين من أبناء الجبال عادة ما يكون خارقاً لكل ما هو مألوف .

إن السواد الأغلب من أصحاب المواهب والآثار البارزة في تاريخ الحضارة الاسلامية ينتمون الى مناطق جبلية لا جرم عاشوا فيها حياة معاناة وشدائد فأعطاهم ذلك عزماً واقتداراً على الكفاح ، وتضيق بنا مساحة هذا المقال لو أردنا أن نعد حتى فئة من أبرز نماذج هؤلاء الرجال من أفغانستان حتى جبال البيرانيز .. ولو راجعنا كتب الأعلام والمعاجم لوجدنا مثلاً أن عبارة « هروي » نسبة إلى « هراة » من أفغانستان تشير إلى عشرات من أفذاذ الرجال في مختلف العلوم النظرية والدنيوية .. وها نحن اليوم نرى معظم مذيعينا يحارون ، وهم يقرأون اسم مدينة هراة باللاتينية ، كيف يلفظونها .

وما يقال في سيرة الطبري صغيراً هو نفس ما يقال عن الغزالي وغيره من أهل الأصقاع الشرقية الجبلية ، حفظ القرآن بسن السابعة ، وأدرك الكثير من الحديث وتخريجه في التاسعة ، وكان تبكير نبوغه آية في الاقتدار . لكن والد الطبري ، على خلاف آباء الكثيرين من لداته وأقرانه ، كان رجلا غنياً فأراد أن يوسع ادراك ولده فهيأ له زيارة مراكز العلم والحضارة كمدن الري وبغداد والبصرة والكوفة ... وكان وصوله بغداد إثر وفاة الامام أحمد بن حنبل الذي قيل أنه – أي الطبري – إنما جاء الى بغداد ليأخذ العلم عنه .

لذلك تحول محمد بن جرير من بغداد الى الكوفة والبصرة ثم عاد إلى بغداد فقضى فيها فترة من العمر تحول بعدها إلى مصر . وتتراوح الروايات في توقيت وجوده بمصر بين عام ٨٦٩ للميلاد وعام ٨٧٢ م .

وبعد فترة من الاقامة هناك تحول ثانية إلى بغداد حيث واصل الاقامة فيها إلى أن وافاه الأجل عام ٩٢٣ للميلاد وزار خلال ذلك منشأه في طبرستان مرة ، وقيل مرتين .

موضوعية الطبري

يقف الطبري بحق وجدارة في صف البخاري من ناحية الموضوعية العلمية والتفرغ الصادق للمعرفة ، فقد وهب العمر كله لطلب العلم ورفض سائر المناصب ، وأشاح بوجهه عن كل اغراءات المكاسب المادية ، واكتفى بحياة الستر التي كان يضمنها له ايراده من ميراث أبيه .

كذلك تجلت في هذا الرجل الفذ سمات العالم المسلم الشجاع فقد كان من جملة دراساته المستفيضة التفسير والفقه والحديث وهي علوم الاسلام التقليدية ، وقد وجد نفسه جديرا بأعظم الاكبار لابن حنبل كمحدث ، ولكنه لم يستطع أن يقتنع به كفقيه ، وصرح برأيه مفصلاً لكن الحنابلة لم يعجبهم الأمر فثاروا عليه

ثورة لم ينج منها الا بتدخل الشرطة ، كما صب عليه سيل من الاشاعات والاكاذيب لكنه ظل متمسكاً بحقيقة ما يعتقد .

ويعتبر الطبري من أهل العبقرية المركبة فإن تفسيره للقرآن المسمى « جامع البيان » قد ضم وجهات نظر المفسرين الذين سبقوه مع آرائه هو التي كان يعتمد فيها على تفوقه اللغوي البارز في النحو والبلاغة .

وأما في الفقه فحسبك أنه يعتبر إماماً فيه وأن المذهب الطبري كان ذات يوم حقيقة واقعة قبل أن يعصف به غضب جماهير الحنابلة المتشددين .

لكن اهتمامنا الأساسي بالطبري منصب على تاريخه ، وانه لشئ معجب جداً أن يجد ذلك الرجل الفذ من الشهية والوقت والقدرة ما يجعله يضع مؤلفه الضخم الموسوم بتاريخ الأمم والملوك ، والمسمى أيضا تاريخ الرسل والملوك . والكتاب في حقيقته موسوعة تاريخية ضخمة ، ولا تعتبر طبعة ليدن على كبرها إلا طبعة لموجز عنه ، والكتاب محاولة فذة من الطبري لربط ماضي الانسانية بحاضرها ، وهو تعبير عظيم عن النزعة الانسانية الاسلامية التي تؤمن بمساواة البشر نتيجة أبوتهم وأمومتهم المتماثلتين من آدم وحواء ، ويذهلك تماماً من ذلك الرجل العلامة دماغه الذي كان أشبه بجهاز استقبال هائل للمعلومات يأخذها من كل مظانها وينسقها ويستدعيها عند الضرورة .. فالطبري على سعة علومه في الفقه والحديث والتفسير والنحو والبلاغة وغيرها يثبت في تاريخه أنه إنسان طُلَعَة جمع فأوعى .

فلديه سائر اخبار الأمم الغابرة عن رسلها وتواريخها ولهذا فهو يسير مع الانسانية في ازدهارها وتعثرها على ضوء قصص رسلها والنهضات العقلية والمادية التي أحدثوها الى أن يصل بتاريخ الشرق الأدنى للعصر الفارسي الساساني ومنه إلى ظهور الاسلام وسقوط الساسانيين وضمور البيزنطيين وقيام دولة الاسلام الأولى في يثرب ثم في دمشق فبغداد عصري الأمويين والعباسيين على التتابع الى نهاية عهد المأمون وبداية عهد المعتصم لكن تلاميذه ومنهم أبو محمد الفرغاني وأبو الحسن الهمذاني مدوا حوليات استاذهم ليصلوا بها إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أو بداية القرن الخامس للهجرة ...

إن أهمية هذا السفر العظيم تتجلى في الحقائق الأساسية التالية :

أولاً : إن الطبري كان يعتمد على الاتصال المباشر والتدوين وحسن الحفظ فيسجل سائر الحوادث التي يحققها ويسأل عنها ويراجع فيها أهل العلم بها .

ثانياً : ان الرجل كان يحصر سائر مؤلفات أسلافه ومعاصريه ثم يتوفر عليها توفراً عجيباً فيصطفي منها ما يعتقد بصحته وينقي كل رواية ضعيفة ولهذا فقد اختار أفضل جهود سابقيه وأدخلها في مؤلفه دون أن يتخلى عن خلق العالم في نسبة كل معلومة إلى مصدرها .

ثالثاً : إن الرجل كان فتى عصره ثقافة واخصاباً في المعرفة وتنوع المواهب وقوة الحفظ والذاكرة وسرعة استرجاع المعلومات وقت الحاجة لها وتشمل مصادره سائر مؤلفات العرب والفرس ومترجمات بيت الحكمة . وأروع ما عنده أمانته الفذة في ذكر الأسانيد والروايات دون أن يتدخل في الطعن أو التجريح .

وحيث أن جانباً هاماً من تاريخ الطبري يشمل فترات حساسة جداً من تاريخ الاسلام فان تقديمه الحقائق بأسانيدها مجردة من تعليقاته أو مداخلاته يعتبر إنجازاً تاريخياً عظيماً .

رابعاً : لقد كان كتاب الطبري هذا ، وبعض كتبه التاريخية الأخرى مثل تاريخ الرجال مصدراً لسائر المؤرخين الكبار الذين أعقبوه مثل ابن الأثير وابن مسكويه ، كما ترجم كتابه إلى اللغات القومية لشعوب المسلمين كالفارسية والتركية وظهرت مختصرات له في نواح عديدة وما زال يعد المصدر الكلاسيكي الأول في أسفارنا التاريخية .

ولا شك أن الطبري يملك بعض مواصفات المؤرخ العالم بالمعنى الحديث لكنه لا يمتلك ناصيتها جميعاً ، وذلك أمر لا يعيبه في شئ أبدا ، فان تطور أساليب المؤرخين ، ووسائل النقد التاريخي الحديث لم تكن لتكتمل على صورتها اليوم الا بمرور أجيال عديدة .

ويثني كاتب مادة « تاريخ المؤرخين الاسلاميين » في دائرة المعارف البريطانية ثناء عاطراً على الروح العلمية العظيمة للامام الطبري بكل ما تنطوي عليه من أمانة واحساس بمسئولية الكلمة أمام الله تعالى .

ويرى نفس الكاتب أن المؤرخين الاسلاميين عموماً يستحقون تقديراً عالياً لاهتمامهم الخاص بأخبار العلماء والأتقياء والأولياء ، وايلائهم عناية أكبر من عنايتهم بالحكام والأحداث السياسية والحربية .

شرائح من تاريخ الأمم والملوك

ولما كنت أفكر في شبابنا أكثر من سواهم ، وأستهدفهم بهذه المقالات قبل غيرهم ، ولما كنت أعلم انهم يضيقون ذرعاً بالوسائل القديمة والأساليب العتيقة لقدامى علمائنا ، فانني أرجو أن أعرفهم بشريحة من تاريخ الطبري لكي يتعرفوا على الرجل وأسلوبه لأن الناس أعداء ما جهلوا ، وليس في ميراثنا الفكري القديم ما فيه تأميل لدارس متعجل ، أو زاهد في التعب والجهد .

وأختار من طبعة ليدن من المجلد الثامن ــ المجلد (١) من القسم الثاني :

«وفي هذه السنة ـ سأعني سنة ٤٠ ـ للهجرة بويع للحسن بن علي ، عليه السلام ، بالخلافة ، وقيل أن أول من بايعه قيس بن سعد قال له أبسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين فقال له الحسن رضى الله عنه ، على كتاب الله وسنة نبيه فان ذلك يأتي من وراء كل شرط ، فبايعه وسكت ، وبايعه الناس .

وحدثني عبدالله بن أحمد بن شبويه المروزي قال حدثنا أبي قال حدثنا سليمان حدثنا عبدالله عن يونس عن الزهري قال : جعل علي عم قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق الى قبل اذربيجان وعلى أرضها ، وشرطة الخميس التي ابتدعتها العرب ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً عليه السلام على الموت ، ولم يزل قيس يدارىء ذلك البعث حتى قتل علي عليه السلام واستخلف أهل العراق الحسن ابن علي عليه السلام على الخلافة ، وكان الحسن لا يرى القتال ، ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة ، وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه ، فنزعه ، وأمر عبدالله ابن عباس ، فلما علم عبدالله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه كتب الى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها فشرط ذلك له معاوية .

وحدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي قال حدثنا عثمان بن عبد الحميد أو ابن عبد الرحمن الحراني الخزاعي ، أبو عبد الرحمن ، قال حدثنا اسماعيل بن راشد قال بايع الناس الحسن بن علي عليه السلام بالخلافة ثم خرج بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثنى عشر ألفا ، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل «مسكن» ، فبينما الحسن في المدائن اذ نادى مناد في العسكر «ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا !» فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام حتى نازعوه بساطا كان تحته ، وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن ، وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملا على المدائن وكان اسمه سعد بن مسعود ، فقال له المختار وهو غلام شاب «هل لك في الغنى والشرف» قال «وما ذاك» قال «توثق الحسن وتصير به الى معاوية !» فقال له سعد «عليك لعنة الله ، أأثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ؟ بئس الرجل أنت» ... انتهى (١)

في هذه الشريحة التي أخذناها اعتباطاً من أحد مجلدات تاريخ الطبري تتبين لنا بوضوح صارخ الحقائق التالية :

أولا : نزاهة الطبري في ايراد ما للحسن وما عليه وما لعلي من قبل وما عليه بالرغم من أنه لا يخفي باضافة عبارة عليه السلام حبه آل البيت ، وايثاره إياهم .

وثانيا : أن الطبري يستطيع أن يحصر نفسه في الموضوع سائراً مع التسلسل التاريخي إلا حيث يضطر لتعريف عارض بأحد رجالات قصة ما فيعود قليلا الى ماضيه .

وثالثا : تتبدى عظمة الرجل الذي يحفظ حتى أسانيد روايات في كلام عادي .

ورابعاً : نراه خلال النص لا يتبرع بشيء من عنده .

واذا ما قيل أن الطبري متشيع ، فان هذه الوثيقة تكشف كيف أنه لم يدخر كلمة الحق لا في حق المختار بن عبيد ولا سواه عندما كان الموقف يقتضي كلمة الحق .

رضي الله عن الامام الطبري وأرضاه .

أحمد العناني

من الصفحة الأولى فى كتاب تاريخ الأمم والملوك

هامـــش

١ ـ انظر كذلك تاريخ الطبرى ـ الجزء الخامس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ طبعة دار المعارف ـ مصر



قصة بقلم: عبد الله عيسى

فجأة توقف راشد الحمدى عن المشى ..
وفجأة توقف نبيل عبد الصمد عن المشى ..

وكلاهما لا يعرف من يتبع من ، من هو فى الأمام ومن هو فى الخلف ، وبالضبط كيف تكونت هذه الملاحقة ومن بدأها .. والوقت ليل والساعة من الساعات الشتوية الطويلة الباردة . والناس بدأت تأوى الى منازلها .

توقف راشد الحمدى ، وتوقف نبيل عبد الصمد ، تسمرا فى مكانيهما . تفصلهما أمتار قليلة . راشد الحمدى عمره أربعون عاماً ، ونبيل عبد الصمد عمره ثمانية وثلاثون عاماً ملتحى الوجه ، كلاهما عركته الحياة . ومتزوجان ولديهما أطفال .

قال راشد الحمدى : لم يلاحقنى هذا الرجل ، وقفت أنا ووقف هو ؟!

وقال نبيل عبد الصمد الذى لم يستطع أن يزدرد ريقه :

ــ وقف .. ها هو ذا يحملق فى ؟!

وقال راشد الحمدى :

ــ يجب أن أهرب .. وبسرعة !

وقال نبيل عبد الصمد والغضب يكاد يخنقه : لا يريدون أن يتركونى وشأنى ، مازالوا يرتابون فى !

وقال راشد الحمدى وعيناه تبحثان عن مكان يلجأ اليه : أزحف نحو خريف العمر ، وهاهم يتبعون خطاى مرة أخرى ؟! مازالا واقفين فى مكانيهما كتمثالين من الشمع ، يشك كل فى الآخر ، من يتبع من ؟ وفكرة واحدة تجذرت فى ذاكرتيهما وهى الخلاص ، الهرب من هذا المأزق ، الذى لم يخطر على بالهما البتة ، الهرب وبأقصى سرعة ، الخوف شرنقهما ، جعل جبهة راشد الحمدى تتفصد بالعرق ، وجعل راحة يد نبيل عبد الصمد تعرق ، وهما فى عز الشتاء .

وفكر راشد الحمدى وقال : سأهرب وليحصل بعد ذلك ما يحصل .. وشيئاً فشيئاً صارت خطواته تكبر .. وفى خطواته لم يلتفت قط وانطرحت فى ذاكرته فكرة إذ قال : سأترصد له بين الأزقة . وصل الى الزقاق والتفت فلم يجد من يتبعه ، ومد نظره الى وجوه المارة يبحث عنه . فلم ير له أى أثر وقال : أين ذهب هذا الشيطان ؟! وللاطمئنان أخذ يلتفت هنا وهناك .. ثم وبسرعة حيوان خائف توارى داخل الأزقة ماسحاً العرق من جبهته . لكن الوسواس الخناس جعله يتوقف ويلبد ويطل الى كل صوب وزاوية وبيت وحتى النوافذ نظر فيها ، فربما لايزال يقتفى أثره ، وربما هناك آخرون يتعقبونه ويطلون عليه .. والمشى السريع كالهرولة جعل صدره يعلو ويهبط ، وعيناه موصوبتان من زاوية الى زاوية ، ومن جدار الى جدار ، موصوبتان بتسديدة مركزة .. وبعد هذه الطمأنينة واليقظة الحذرة .. قال مردداً بشفتيه :

ــ الحمد لله .. ضللته .

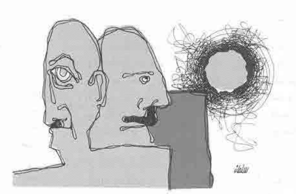
* * * *

اما نبيل عبد الصمد ، فكأنه ينتظر أن تسنح له الفرصة للهرب ، عندما استدار راشد الحمدى ليخطو .. هرب هو .. لكن لم يكمل هروبه ، فقد تسلل مثل النمر ولبد بزاوية الجدار ، شاخصاً فى راشد الحمدى حتى اختفى ، لكنه لم يتحرك من مكانه كما أنه لم ير أى كائن يمشى ، الريبة تنهشه من الداخل وبرودة الجو تلسعه من الخارج ، وبهذه الوقفة والهيئة كأنه حارس ليلى ، وبين الفينة والأخرى يقول : طريقى الوحيد الى البيت يمر بين هذه الأزقة ، وقد يكون هذا الشخص ينتظرنى هو وآخرون .

ووقف ربع ساعة ، ونصف ساعة ، وأطل ولم ير أحداً ووطد النفس وسار بخطوات بطيئة حتى وصل رأس الزقاق ، وهنا ايضاً لم ير احداً ، لكن الخوف أوقفه فى مكانه ، الخوف رسم فى ذهنه أوهاماً ، انتابه شعور بأن ثمة شخص أو أشخاص متلبدون بين زوايا الجدران يريدون قتله أو القبض عليه . والساعة تجاوزت التاسعة ليلا والزقاق هادىء من المارة . ومن عادته اليومية أن يكون داخل جدران البيت بين زوجته وأولاده ، الساعة السابعة والنصف . هذه الليلة تأخر عنهم وربما سارة أم الاولاد جالسة تنتظره قلقة .

ــ الى متى الوقوف هكذا ؟

قالها نبيل عبد الصمد ، ودخل الزقاق بخطى مسرعة . الخوف كامن فى أوصاله ، وعيناه الزائغتان تحدقان يميناً وشمالاً ، وبعد عدة خطوات ، كان يقف لثوان



معدودات ويلتفت الى الجهات الأربع والى سطوح المنازل والى بعض العتمات المسدلة فى زوايا المنازل . وبهذه الوقفة وفى مثل هذا الوقت من الشتاء ، وهذا الخوف . وكأنه وحيد بين هذه الأزقة ، وهذه المنازل خالية من السكان .. وخطا مسرعاً وتضاءل حجمه واختنق بين ظلمات الأزقة .

••••

تعشى راشد الحمدى ودخن سيجارة وهو يفكر بذاك الشخص الغريب . أكل قليلا ، هذا ما لاحظته زوجته نورة ، وكادت تسأله لكنها فضلت السكوت . الوقت لم يحن وايضا لاحظته فى هذه الليلة ، وهذا يحدث له لأول مرة ، سيماء وجهه متغضنة ، يبدو عليه أنه خرج من شجار كبير أو من وجه له شتيمة . وهمت أن تسأله لكنها لم تفعل .. قام بعد طعامه وهو يفكر ، وبدل ثيابه وهو يفكر ، وجلس أمام التليفزيون وهو يفكر . وسطع على وجهه هم . وفى رواحه ومجيئه سأل زوجته :

ــ هل سأل الأولاد عنى ؟

ــ انتظروك ، لكن تأخرك هذه الليلة جعلهم ينامون ، وسألوا عن شريط فيديو الرسوم المتحركة .

ــ اوه .. لقد نسيت ، ذهب عن بالى .

ــ لكنك كتبته فى مفكرةالجيب . أعتقد أنك لم تخرجها من جيبك ؟

وسؤال الزوجة الأخير فى مكانه مئة فى المئة ، فزوجها راشد لم يخرج من جيبه المفكرة التى يسجل بها طلبات البيت ، وها هو ذا الآن يذهب ويخرجها من جيب ثوبه المعلق فوق المشجب ليتأكد هل كتب الملاحظة أم لا . وقرأ فوجد أنه كتبها : شريط فيديو الرسوم المتحركة للأطفال . ونظر للتاريخ ودهش . كان تاريخ اليوم الفائت ،والملاحظة فى أعلى السطر واضحة ، وأغلق المفكرة ووضعها فى جيب الثوب . وحملق فى وجه زوجته بعينين حائرتين وقال :

ــ فعلا لقد نسيت أن أخرجها من جيبى .

ونسيت أو نسيتها ، كلمة لاتمحى من فلك الإنسان مادام حياً . زادت الريبة فى قلب الزوجة نورة ، وكادت الكلمات تخرج من حلقها سؤالا وراء سؤال ، لكنها صمتت لأنه لم يحن الآوان بعد . فقط طرحت عليه هذا السؤال :

ــ ليس من عادتك أن تنساها ؟

وأجاب الزوج :

ــ جل من لا يسهو ، وكلمة الانسان والنسيان مترادفتان تقريباً فى المعنى .

والزوجة نورة لم تقتنع بهذه الأجابة ، دخلت من الأذن اليمنى وخرجت من اليسرى ، وتيقنت من علامة وجهه وأكله القليل ونسيانه الشريط والمماراة فى الإجابة أنه يخفى شيئاً أعظم من هذا .. وها هو ذا التليفزيون يعلن ختام السهرة ، وها هما يخرجان من الصالة ويأويان الى حجرة منامهما ، ويستلقيان فى السرير . والزوجة تلتفت فتراه يحملق فى السقف يفكر . وعند هذا الحد طفح الكيل عند الزوجة ، فنادت عليه قائلة :

ــ راشد .

وراشد جسده فى السرير وعقله ساهم شارد يفكر فى الرجل الغريب . ووقفتهما فى الزمهرير ، وهذا السكوت وهذا السرحان ، جعل الزوجة تتعجب فتنادى عليه بصوت أعلى :

ــ راشد :

ووعى راشد الى رشده وقال :

ــ ماذا حدث ؟

ــ فيم تفكر ؟

ــ مجرد أفكار مبهمة .

ــ راشد منذ أن وطئت البيت الساعة وحتى الآن ، وأنت على غير حالك . أليس كذلك ؟

ــ نعم .. لقد ابتليت بمشكلة وأنا فى طريقى الى البيت .

ــ وما هى هذه المشكلة ؟

وشرح لها القصة من أولها الى آخرها ، لم يزد حرفاً أو ينقص حرفاً .. وحينما انتهى .. قالت الزوجة :

ــ لكن ساحتك برئت ؟

ــ العلم عند الله !

وصمتا صمتا ثقيلا يسمعان فى ثناياه دقات قلبيهما ، ويفكران ماذا تخبىء لهما

الصُدفة

الأيام . وانتاب الزوجة خوف لا على نفسها بل على والد الأولاد الخمسة إذا غاب عنهم مدة طويلة . والأولاد يغيب عنهم والدهم الساعة أو يتأخر ، تراهم يسألون ويلحون فى الأسئلة : أين بابا ؟ وأين ذهب ؟ وهكذا دواليك والزوجة نورة قطعت الصمت قائلة :

ــ ألم تتبين ملامحه بشكل واضح ؟

ــ بالضبط لا ، على وجهه لحية . لكن إذا رأيته من قريب أعرفه فى الحال ، فهو فى نفس قامتى وحجمى .

وصمت هو ..

وصمتت هى ..

وقال هو : نامى والصباح رباح .

وقالت هى : خائفة عليك .

نظر اليها وقال :

ــ اطمئني ، فيد العدالة تعرف من البرىء ومن المذنب .

وقالت هى :

ــ فى هذا الزمن لايثق الانسان بأخيه الانسان ، ولا الأخ بأخيه .

وقال هو :

ــ كلامك معقول ، فى طياته يحمل حكمة .

وناما ..

••••

نبيل عبد الصمد وصل بيته ، خطوة واحدة ويفتح باب الحوش ، لكنه وقف وبالضبط فوق عتبة الباب واستدار ، وبسرعة البرق جالت عيناه فى العتمة والنور والزوايا .. فربما يلمح أحداً يتعقبه ، وبعد أن اطمئن وتأكد ، فتح باب الحوش ، ودخل وأقفله بالمفتاح ، وحركة المفتاح فى ثقب الباب نبهت زوجته سارة الجالسة تنتظر مجيئه قلقة عليه . ولفت نظرها أن زوجها لا يبدو على بعضه فى حركاته وتصرفاته . وكانا داخل حجرة النوم .. قالت له :

ــ كنت شديدة القلق على تأخرك (وبعد وقفة) لماذا تأخرت ؟

ــ كنت مع أحد الأصدقاء .

ــ الأولاد قبل أن يخلدوا الى النوم سألوا عنك وعن شريط الفيديو .

ــ شريط الفيديو ؟

ــ نبيل .. دع عنك التناسى . ماذا دهاك فى هذه الليلة ؟

ودمدم نبيل قائلا :

ــ بلى .. بلى .. تذكرت .. تذكرت .

وبغتة صمت نبيل ، كأن أحداً أخرسه عن أن يكمل كلامه ، رحلت به ذاكرته الى سلسلة ما أصابه فى هذه الليلة السوداء من خوف وارتباك ما زالا يسريان فى جوانحه . وذاك الشخص الغريب ووقفته وما تكبده من جهد فى المشى بين متحنيات الأزقة ومن المطاردة الوهمية ، ونهنه وتنهد وفرك شعر رأسه بسأم .. وسارة الزوجة تحدجه متعجبة مما قام به من حركات وألفاظ لا يستطيع القيام بها الا ممثلو المسارح والسينما .. ووعته قائلة :

ــ نبيل تذكرت ماذا ؟

ــ وتريدين الصدق .. نسيته .

ــ لكننى رأيت وسمعت صالحاً يقول لك : بابا أريد منك شريط فيديو (لتوم وجيرى) وأنت كتبته فى مفكرتك .

ــ أأنت متأكدة من ذلك ؟

ــ قم .. انظر فيها .

وقام نبيل متباطئا ، وعلى محياه الاندهاش . كيف نسى المفكرة وهى فى جيبه ، تخرج من جيب هذا الثوب وتدخل فى آخر ، وبالذات فى هذه الليلة .. أخرجها من جيب ثوبه ونظر فيها . كلام الزوجة كان صحيحاً . كان قد كتبها مختصراً الكلمة الأولى والثانية شريط (ش) وفيديو (ف) . وتناهى الى أذنه صوت الزوجة تقول :

ــ أوجدته مكتوباً ؟

أومأ برأسه علامة الايجاب .. وأضافت الزوجة :

ــ هل أعد لك العشاء ؟

ــ ليست لدى شهية للأكل .

وجوابه هذا لم يقنع الزوجة . وقد تكون المرة الأولى منذ تزوجا .. تسمع نبيل ليست لديه رغبة للأكل ووجبة العشاء بالنسبة اليه هى الأولى والمفضلة . وامتناعه أدخل الشك فى عقل وقلب الزوجة ، فكرت وسألت نفسها وهى تحملق فيه بخلسة : ما به ؟! وبعد فترة صمت قصيرة .. قالت له :

ــ انك لا تعجبنى هذه الليلة ؟

ــ لماذا ؟

ــ لفتت نظرى حركاتك وتصرفاتك ونسيانك المفكرة ، وقسمات وجهك بأن ثمة شىء ؟

والزوجة وخاصة الذكية منهن تعرف حق المعرفة ما يضمره بعلها من مظاهر ومخفى .. ولا حيلة له الآن ولا لف ولا دوران .. وحكى لها سلسلة ما حدث له من ألفها الى يائها .. وبعدما انتهى قالت له :

ــ لم تثبت ادانتك ؟ فأطلقوا سراحك .

ــ هذا الذى يحيرنى لماذا أرسلوا ورائى من يتعقبنى ؟

ــ ذاك الرجل ، هل رأيته فى مكان ما ؟

ــ حلكة الظلام أعاقتنى عن رؤيته بوضوح .. لكن اذا وقعت عيناى عليه أميزه .

ووصف لها هيئة ذاك الرجل طولا وعرضاً وعمراً .. وأضاف قائلا :

ــ فى حياتنا هذه انقشعت المحبة والثقة من قلوبنا ، والسبب ما يجرى بين ظهرانينا .

قالت الزوجة :

ــ اكتنفني الخوف .

ــ إبعدى عنك شبح الخوف ، والأيام خير دليل .

••••

انقضت أيام وأتت أيام ..

وراشد الحمدى ونبيل عبد الصمد كل فى بيته ، كل فى رواحه وغدوه ، كل فى

يومياته الحياتية ، أصابتهما القلقلة والأرق والتفكير المضنى المستمر ، الواحد منهما دائماً يفكر بالغد وما يخبئه ويقولان فى نفسيهما : اليوم لا ، لكن غداً مع الفجر سيقع القبض ، حتى فى ذهابهما من البيت الى العمل ومن العمل الى البيت ، يقف الواحد منهما ويلتفت الى كل ركن ووجه ،ويخطو ويلتفت ، وبعد ان يطمئن يستقيم فى مشيته .. وقلقهما هذا زحف الى زوجتيهما . نورة فى بيتها بين أولادها ، وسارة فى بيتها وبين أولادها . ولا تطمئن أحداهما قبل أن ترى عيناها زوجها وهو يدلف من باب الحوش بسلام وعافية ..

وذات مساء والساعة السابعة أحس راشد الحمدى بالجوع يطبل فى بطنه فدخل المطعم .. وبعده بثلث ساعة دخل نفس المطعم نبيل عبد الصمد وكل منهما لا يعلم بالآخر البتة ، كل جلس بزاوية . والمطعم به زبائن متحلقون حول طاولات نظيفة .. والمطعم من النوع الهادىء تكلله بالرؤيا شاعرية الألوان ، الأحمر ، والأزرق ، والبرتقالى ، وعلى كل طاولة شرشف أبيض وفوقها شمعة مضيئة تتراقص جذوتها وموسيقى هادئة تندغم فى جو المطعم .

أكل راشد الحمدى حتى شبع وحمد ربه ، وطلب من النادل قهوة تركية سادة ، ودخن سيجارة ، وبعد النفس الأول التفت تلقائياً وفوجىء بالذى ليس فى حياته بتاتاً ، رأى بأم عينيه نبيل عبد الصمد جالساً يأكل ، وضوء الشمعة يتراقص على جانب من وجهه .. قال راشد الحمدى فى ذات نفسه وعيناه مركزتان فى وجه نبيل عبد الصمد والخوف بدأ يدغدغه وأول كلمتين خرجتا من فمه تحملان علامة التعجب : إنه هو! من أين أتى؟ وكيف

دخل ولم أره ؟ وطيلة تلك المدة كان يتبعنى دون أن أدرى ؟ وهو جالس هنا وربما هناك آخرون مختبئون فى الخارج ينتظرون اقتناصى ؟ ما هذه الليلة وما هذه المتاعب التى أخذت تلف نفسها حولى وأنا برىء ، صفحتى بيضاء لم يثبت على شىء ..

وسكت وألقى نظرة أخيرة ، نظرة رسم من خلالها تفاصيل وجه نبيل عبد الصمد . والتفت وانطلقت من فمه هذه الكلمات : لكننى رأيت هذا الوجه ! لا أدرى .. وأخذ يفكر .

ومثل ما حدث لـ .. راشد الحمدى حدث لنبيل عبد الصمد الذى ما أن أبصرت عيناه وجه راشد الحمدى حتى سأل نفسه : إنه هو ! وبعد هاتين الكلمتين جأر الخوف فى جسده ، خوف حقيقى يفوق خوف راشد الحمدى ، حيث شحب لونه وجف ريقه وجعل يردد الكلمتين مرتين :

إنه هو ! إنه هو ! ويجب أن أدفع فاتورة الحساب وأخرج فى الحال ولكنه فكر قائلا :

إن خرجت فربما آخرون هناك يترصدوننى . يتعقبونني فى الخفاء لماذا؟ ليأتوا إلى البيت هم يعرفون طريقه ويقبضون على بدلا من هذا الاستفزاز النفسى . تبعنى ليلا وها نحن نلتقى ليلا وفى مكان واحد (وحواره الذاتى جعل خوفه يضمحل ويواصل كلامه) . تعال قم أقبض على .



وبعد كلمة (على) الأخيرة توقف لسانه عن الكلام وكأنما وضع على فمه منديل لكن عينيه مازالتا تحدقان فى وجه راشد الحمدى ومن النظرات والحوار الذاتى استنتج نتيجة واحدة ومنها تبادر الى ذهنه هذا السؤال قال : رأيت هذا الانسان؟! والتفت عنه .

وبعد بضع دقائق التفت نبيل عبد الصمد ناحية راشد الحمدى . وفوجىء اذ لم يجده جالساً . قال : ينتظرنى هو وجماعته بالخارج ؟!

المرء بداخل مطعم أو سينما أو ما شابه ذلك لا يستطيع المكوث جالساً ،وفى الخارج يعرف ما ينتظره .. ونبيل عبد الصمد دفع فاتورة الحساب ، ودلف خارجاً غير مبال بشىء .. وفجأة وبعد أن خطا عدة خطوات سمع صوتاً يناديه :

ــ أنت أيها الرجل !

وقف نبيل ولف رأسه وحواسه الخمس صوب النداء متوقعاً النهاية لهذه المتابعة ، فرأى راشد الحمدى يشق الظلام . يقترب منه ويقفان وجهاً لوجه صامتين متسمرين . العيون الأربع لم تحد يميناً أو شمالا .. وفجأة ابتسم راشد الحمدى وقال :

ــ نبيل ؟!

ويجيب نبيل مبتسماً :

ــ راشد ؟!

ويقول راشد :

ــ ألست نبيل عبد الصمد الذى كان معى سجيناً بزنزانة واحدة؟ لم أعرفك بهذه اللحية ؟

ــ نعم أنا هو .

ــ وأنت كنت ليلتئذ تتبعنى .. ظننتك ..

قاطعه نبيل وقال :

ــ أنت تتبعنى لا أنا .. ظننتك .

وقهقه راشد الحمدى وقال :

ــ لا أنا ولا أنت . لكن كيف لم أعرفك تلك الليلة وهذه الليلة ونحن بداخل المطعم ؟

وتعانقا عناقاً حاراً وابتسما وسارا معاً يداً بيد تتبعهما نجمة متلألئة فى قبة السماء .

عبد الله عيسى

صالح جودت بين الذكرى والنقد

بقلم: كمال النجمي

هل من كلمة تقال عن الشاعر صالح جودت ــ رحمه الله ــ وقد مضى على مفارقته الدنيا أكثر من تسع سنوات ، فتوارى اسمه ، وهدأت الرياح التي أثارها طوال حياته في وجوه شانئيه ومحبيه جميعاً ، وأقصر عن الكلام فيه من كان يراه شاعراً لا يشق له غبار ، وانصرف عن ذكره من كان يراه شاعرا كثير الإغارة ، يأخذ من هذا الشاعر ومن ذاك ثم يدعي على الشعراء الزعامة والإمارة ، بدون جدارة ! ..

كان صالح جودت طفلاً كبيراً ، اجتمعت فيه براءة الأطفال وعنفهم وطيشهم وحبهم لأنفسهم ، عاش حياة مفعمة شعراً ، لم ينقض يوم منها بدون أن ينظم شعراً ، أو يحياه ، أو يصحب واحداً من أهله أو واحدة . وكان في كل أحواله لا يفارق طفولته بريئاً عنيفاً طياشاً ، وإن كان من أكثر الناس معرفة بالجانب العملي من الحياة ، فهو في هذا الجانب خراج ولاج لا يضيع من يده شيْ ! ..

وكان إذا اتخذ موقفاً عنيفاً من أحد ، طلب إليك ــ إذا كنت صديقه ــ أن تؤيده في موقفه ذاك .. فان لم تفعل ، أحقده ذلك عليك ، وربما نالك من عنفه ما ينال خصومه أو أشد .

إلا أنه لم يثبت قط على خصومة ، مع أنه ثبت على صداقات كثيرة ، أشهرها صداقته للشاعر أحمد رامي ، بالرغم مما وضعه رامي من عراقيل وحواجز تمنع شعراء عصره من تقديم أشعارهم إلى أم كلثوم رجاء أن تغنيها كما تغني شعر رامي ، وكان من هؤلاء الشعراء المتعطشين الى سماع أشعارهم بصوت أم كلثوم . أصدق أصدقاء رامي وأكثرهم دفاعاً عنه صالح جودت !

فكان صالح دائم الشكاة من موقف صديقه هذا ، ويقول بلا مداراة : « إن رامي يغار مني كلما قدمت إلى أم كلثوم قصيدة أو زجلا ، وقد حرضها على ألا تغني من شعري لأنه مستشارها الذي لا تصدر إلا عن رأيه » ! ..

ولم تكن غيرة صالح ممن يعتبرهم « منافسين » له في الشعر أقل حدة من غيرة رامي ممن يحاولون ــ من وراء ظهره ــ تقديم أشعارهم الى أم كلثوم ، إلا أن رامي كان يغار فيما يخص أم كلثوم فقط ، ثم يفتح صدره على مصراعيه لجميع الشعراء بعيداً عن هذا « الصرح الفني » الذي يتولى سدانته ! ..

أما صالح فكان لا يطيق أن يقال إن شاعراً يتفوق عليه أو يباريه أو يساويه ، ولعل هذا سبب خصومته في أخريات حياته للشاعر نزار قباني وشعراء آخرين من عارفيه وأصدقائه ! ..

يذكرني هذا بأول مرة رأيت فيها صالح جودت ، وكنت قبلها أقرأ شعره في الصحف منذ سنة ١٩٣٥ ، بل أذكر أول قصيدة قرأتها من شعره في مجلة « أبو الهول » عن العيون الزرق والشعر الذهبي ، وقد لبث عمره كله مفتوناً بهذا اللون من الجمال ..

رأيت صالح جودت أول مرة سنة ١٩٤٨ ، وكان أستاذنا أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام ، قد توفي فجأة ، فنظمت قصيدة في رثائه فقد كان هذا الباشا الأديب النبيل ، كثير العطف والحدب على شخصي الضعيف ، حفياً بما أنظمه من الشعر وأنا يومئذ في بداية العشرينيات من عمري ، فكان ينشر كل ما أرسله إليه من شعر ولو بلغ ثمانين بيتاً .. وقد نشر إحدى قصائدي ــ وكانت عن فلسطين ــ في يسار الصفحة الأولى الذي كان مخصصاً منذ عهد سلفه داود بركات لنشر قصائد شوقي وحافظ .. ثم صار هذا الركن البارز من الصحيفة ، وقفاً على أشهر الشعراء بعد رحيل حافظ وشوقي أمثال علي محمود طه وعلى الجارم وبشارة الخوري ومحمد الأسمر ..

وأتذكر الآن أنني عجزت عن نشر مرثيتي تلك في الأهرام بعد أن تولاه الاستاذان عزيز ميرزا ومحمد زكي عبد القادر ، وكلاهما بعيد عن الشعر ، فضلاً عن أنني ــ فيما بدا لي بعد التفكير في هذا الأمر ــ لم أكن أتكلف التقرب إلى أحد في الأهرام أيام أنطون الجميل باشا ، فأبعدني هذا عن عطف خلفائه ! ..

ثم إن نادياً لا أتذكر اسمه الآن أعلن عن إقامة حفل تأبين لأنطون الجميل ، فقصدت النادي مع صديقنا عبدالعزيز عرابي ــ نجل عرابي باشا ــ الذي قال لي : إن صديقه الشاعر صالح جودت يشرف على الحفل ويقدم الشعراء لإلقاء قصائدهم ..

فلما صرنا وسط المحتفلين تقدم عبدالعزيز عرابي ــ رحمه الله ــ فاستأذن لي صالح جودت في إلقاء قصيدتي ، فاذا به يغضب وينتفض وسط الحفل قائلاً بصوت



صالح جودت





احمد شوقي

ابراهيم ناجي

احمد رامي



نزار قباني



أم كلثوم

حانق : « هذا حفل يقيمه أعضاء النادي ، ولا يسمح فيه بالكلام لغيرهم . خصوصاً من لم يكن مدعواً إلى الحفل » ! ..

انصرفت بقصيدتي من الحفل وقد أذهلني غضبه وزعيقه وحدة كلماته ، فقد كان بوسعه إفهامنا ما يريده هامساً بلطف ، معتذراً أو غير معتذر ..

هكذا كان صالح جودت الشاعر الحالم ، غضوباً عصوفاً ، لكنه حين يتقمص طفولته ينقلب عطوفاً شفيفاً يهمس بالحديث همساً ، كأنه يخشى أن يدمي بنان من يتحدث إليه ! ..

وكان في كل حال يحب التعلم ولا يستنكف أن يصحح له أحد خطأ في اللغة أو الوزن ـ وقلما كان يخطئ فيهما ـ أو يلفت نظره إلى النطق الصحيح أو الإعراب المتفق وقواعد النحو ..

أذكر أنه كتب مرة في بعض شعره كلمة « الحكايا » ـ يقصد جمع حكاية ـ فقلت له : هذه غلطة يقع فيها الشعراء الشبان وبخاصة التفعيليين ، وإنما تجمع « حكاية » على « حكايات » ..

فطفق يقرأ جميع قصائده الجديدة ليصحح فيها هذا الخطأ ، ويتجشم في ذلك تغيير الأوزان وتغيير المعنى والمبنى أحياناً ..

وسألني مرة : « أعندك ديوان زهير بن أبي سلمى ؟ » .. ونطق السين مفتوحة في « سلمى » .. فقلت له : « بل عندي ديوان ابن أبي سلمى » .. بضم السين .. فدهش وقال بتواضع وبراءة : « يا للعجب .. لقد عشت الى سن الستين أنطق اسم هذا الشاعر المشهور بفتح السين ! .. وصدق من قال إن المرء يتعلم من المهد الى اللحد » ! ..

الذكريات عن صالح جودت كثيرة ، لكن المهم أن نتكلم عن شعره بما ينصفه ولا يسلكه في الخاملين والعاجزين ، بعد أن عاش حياته كلها شاعراً مرموقاً ، على اختلاف الناس في النظر الى شعره وشاعريته ! ..

ربما جنى عليه أنه انحاز الى فكر اجتماعي أو سياسي أو أدبي لم تكن تنحاز إليه غالبية نقاد الشعر والأدب في مصر خلال الخمسينيات والستينيات ، فضلاً عن السبعينيات التي عاش صالح جودت الى ما بعد منتصفها لساناً من الألسنة الرسمية ، يضرب في جميع الاتجاهات ، ويصيب عارفيه وغير عارفيه على السواء ، كأنه كان يحاول الثأر ممن تجاهلوه طويلا وأقاموا لشعره ميزاناً اجتماعيا وسياسياً خدش جوهر شاعريته ـ وهو في رأينا جوهر صحيح ـ وتحيف فنه الشعري الرقيق المنغوم المتميز .

ولم يكن يقبل هدنة في هذا المجال .. أذكر أنه كتب عدة مقالات ضد كاتب معروف ، فأكثر في مقالاته من كلمة « عملاق » وكلمة « قزم » .. وكأنه يقابل بينهما .. فقلت له يوماً بين السخرية والدعابة : « أراك تفخر بطول قامتك ، ولا فخر » ! ..

فغضب أشد الغضب وقاطعني أشهراً وأمر فأنقصوا المساحة المخصصة لمقالي في مجلة المصور ـ وكان رئيساً لتحريرها ـ من

صالح جودت بين الذكرى والنقد

صفحتين الى نصف صفحة ولم تتعد مقالتي بعد ذلك نصف صفحة طوال رياسته للتحرير .. يرحمه الله ! ..

أما عن شعره وشاعريته فما من سبب يدعوني الى التهويل في شأنهما ، ولكنا نعرف أن النقد الحديث في أوربا وغيرها ، يحاول الآن ألا يدين الشاعر أو الكاتب أو الفنان بموقفه الفكري أو الاجتماعي ، وألا يجعل تقييمه أو تقويمه رهناً بهذا الموقف جهة اليمين أو اليسار أو الوسط ، فان الدنيا قد أظهرت لأهلها في الزمن الأخير أنها أشد تعقيداً وتنوعاً من هذا التبسيط ..

وقد نسمع الآن من يقول إن فلاناً يميني في التفكير أو في الموقف الاجتماعي أو السياسي ، ولكنه روائي موهوب .. ونسمع من يقول : هذا الرسام أو النحات يساري الفكر لكن فنه ذو أبهة كلاسيكية ، ولا أثر فيه للدعاية الجوفاء ! ..

فالأدب الحق والفن الصراح ، يوجدان على يمينك وعلى يسارك وأمام ناظريك ، وفي كل اتجاه ، لأن الدنيا واسعة يا صديقي وقد ضمت الى مساحتها شطراً من الفضاء ، فلم تعد ذات جهات أصلية وفرعية فقط ، بل صارت ذات جهات يعييك حصرها ! ..

وقد كسب الأدب والفن قيمة مستقلة ، وإن كان استقلالاً ذاتياً ، أي متعلقا بذات صاحبه ووجدانياته ومدركاته ولمساته الخاصة وشطحاته ..

والحق أن الأدب والفن كانا كذلك منذ أول الدهر برغم كل اختلاف بين العصور والأجيال .. وقد يلتفت الناس إليك دهشة وذهولاً ، إذا حدثتهم عن المواقف الاجتماعية والسياسية لهوميروس وشيكسبير وبيتهوفن والمتنبي وشوقي وأم كلثوم وسيد درويش ! ..

صحيح أنهم جميعاً كانوا ذوي مواقف ، بحسب أزمانهم ، ولكن ماذا بقي منها للناس ؟! ..

وأنا كثير الإلمام بالأماكن الأثرية في القاهرة ، فاذا مررت بجامع السلطان حسن ـ التحفة المعمارية المملوكية في القاهرة ـ أقول في نفسي : « ليت أحداً يخبرنا كيف كان الموقف الفكري أو السياسي للمهندسين العباقرة الذين شادوا هذا الجامع الرائع » ..

وفي ظل الأفكار والنظم جميعها ، من عصر العبودية الأولى الى الأقطاع ، الى عصرنا هذا بأنظمته الرئيسية الثلاثة : الرأسمالية والاشتراكية والنامية ، شيد أناس مجهولو المواقف أهرام الجيزة وآثار الهند والصين وبابل وآشور واليمن والإغريق والرومان وناطحات السحاب وسفن الفضاء ..

لكن المرء لا يفلت من موقفه في حياته ، ولا يصح في الذهن أن يقف أحد موقفا لا حساب عليه ، خيراً كان أو شراً .. وهذا ما حدث لصالح جودت ، فقد أضاعه عند نقاد عصره .. مواقفه التي أوجزنا الإشارة اليها ، وغلبه النقاد وأهملوه وشوهوا صورته .. وكانت بضاعته الفكرية متواضعة مع أنه كان يقرأ بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، فلم يثبت وسط المعمعة وخلال زحام « المدارس » التي استولت على ساحة الأدب والشعر .. وحاول برغم ذلك أن يعد نفسه في الثوريين وأن يقيم الأدلة على ثوريته ، لكن خصومه نزعوا عنه هذا النقاب بقسوة بالغة ! ..

والمفارقة في هذا ، أن صالح جودت هو حفيد ثائر تركي شديد المراس اسمه اسماعيل جودت بك ، نجل جودت باشا .. كان من أحرار العثمانيين .. أديباً خطيباً مفوهاً ، ينظم الشعر بالتركية والفرنسية .. اضطهده سلاطين آل عثمان فلجأ الى مصر وشارك في الثورة العرابية فقبض عليه الانجليز وأخرجوه منها ! ..

وتاريخ صالح جودت الشعري بدأ في مسارح عماد الدين وروض الفرج بالقاهرة ، ولهذا ظل « الفن » يلازمه الى آخر حياته ..

وبسبب علاقاته الحميمة بالوسط الفني ، أخرجته الحكومة من وظيفته بالإذاعة سنة ١٩٥٣ كما أخرجت صديقه الشاعر ابراهيم ناجي من وظيفته في وزارة الأوقاف .

واذا كان صالح قد بدأ حياته شاعراً رومانسياً أقرب الى تهافت التعبير منه الى جزالته ، فانه اتسع بعد ذلك في الاطلاع على الشعر العربي واللغة العربية ، فطرأ على شعره الكثير من الرصانة ، وداخلته مائية الشعر الكلاسيكي الحديث كما نراها في شعر شوقي .. وقد تعلق صالح جودت بشوقي ، فجرى في آثاره ، وافتتن بأسلوبه ، حتى اختلطت الأنغام الرومانسية في شعره بالأنغام الكلاسيكية وصار أعرب لغة مما كان في نشأته ، ولكن جوهر شعره بقي رومانسيا حالماً مشبوباً ، يستمد الجاذبية من صدق تجاربه في الحب ، وما أكثرها ..

والشعر الرومانسي المصري لا تكتمل صورته إذا استبعدنا منها الخطوط المتميزة الزاهية الألوان التي أضافها صالح جودت الى هذه الصورة ، وأودعها دواوينه الستة التي أصدرها بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٧٥ .

وكلمتنا هذه مجرد إشارة الى ذكراه ، وإيماءة بالتحية الى شعره وشاعريته .. وعسى أن يتاح لنا أن نكتب عنه يوماً ما نضع به حقه في نصابه ، فلا يضيع بين الذاكرين والناكرين .. ولا يضيع صوته واسمه بعد أن غنى للناس ما غنى طوال خمسين عاماً ، كما ضاع اسم المطرب « كثير » .. مطرب خمارويه الخاص الذي وضع لحن « قطر الندى » منذ ألف سنة ! ..

وبين المطرب « كثير » ملحن أغاني قطر الندى ، وبين صالح جودت مشابه كثيرة .. والكلام ذو شجون ، ولنا عودة ، وقد أدركنا الصباح ، ولابد لنا من السكوت عن الكلام المباح ! ..

كمال النجمي



قصة اللغة العربية في انجلترا

بقلم : برنارد لويس
ترجمة: عبد الوهاب الأمين

كان رأي الباحثين مجمعاً منذ مدة على أن أولى الاتصالات الثقافية المهمة بين الاسلام والفرنك كانت نتيجة للحروب الصليبية وفي الحق أن الحروب الصليبية هي الفرصة الأولى التي اجتمع فيها الشرق العربي بالغرب المسيحي اجتماعاً قريباً ، وحصلت من جراء ذلك مبادلات ثقافية ، غير أن الدراسات التاريخية المتأخرة أبانت أن هذه المبادلات كانت محدودة من ناحيتي المجال والمفعول ، وهو أمر يجب أن يكون منتظراً بسبب سيطرة الناحية العسكرية في ذلك الدور . ولقد وصل الفكر العربي عن طريق آخر إلى الغرب بصورة عامة ، وإلى انجلترا بصورة خاصة .

لقد دخل العرب المنتصرون إلى أوربا بعد غزوهم شمال أفريقية ، واستعمروا منطقتين في حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة هما : أسبانيا وصقلية ، وأنشأوا لهم مدنية بالغة في التقدم ما لم يكن يوازيه أي تقدم آخر في الأراضي المسيحية في ذلك الحين . ذلك التقدم الذي لم يعجز عن التأثير على معاصريهم من المسيحيين ، حتى أنه بعد أن استعاد المسيحيون تلك البلاد ظلت التعاليم العربية مزدهرة مدة طويلة . وكان الملوك المسيحيون يتكلمون العربية ، ويؤازرون العلماء العرب ، وبقيت الثقافة العربية العالية نافذة في بلاد الفرنك ، وأصبح المسيحيون الذين يتكلمون العربية في أسبانيا واسطة مهمة لبسط ذلك النفوذ ، كما أن اليهود الذين ينطقون بالعربية في أسبانيا وصقلية ـ والذين كانت لهم لغة عامة هي العبرية ـ مع مشاركيهم في الدين من الفرنك ، كانت لهم يد طولى في نشر الثقافة العربية في الغرب . وينبغي أن نشير في هذا المقام بصفة خاصة إلى الفيلسوف الأسباني « ابراهام بن عزرا » من مدينة طليطلة الذي زار لندن في سنتي ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، واشتغل بالتعليم هناك مدة ، كما أن الانجليزي « توماس براون » ولي القضاء في صقلية ، ويذكره العرب في كتاباتهم باسم « القائد برون » . وفي القرن الثاني عشر أخذ العلماء يفدون

قصة اللغة العربية في إنجلترا

من الشمال ، وعلى الأخص من انجلترا ، لزيارة الجامعات العربية في أسبانيا في سبيل تحصيل العلم ، وكان أول كبير من هؤلاء هو الانجليزي « أديلارد » من مدينة (باث) أحد رواد الثقافة العربية في الغرب .

وقد ساح « أديلارد » في الربع الأول من القرن الثاني عشر في أسبانيا وسورية ودرس اللغة والعلوم العربية ، وترجم كثيراً من الكتب العربية إلى اللاتينية لفائدة معاصريه من المسيحيين ، واشتغل في عودته ترجماناً للملك هنري الثاني ــ ولم يصر بعد ملكاً ــ وكان قد أهدى إليه أحد كتبه أيضاً . ويتألف أهم كتبه وهو « القضايا الطبيعية » من حوار بينه وبين قريب له درس في الجامعات الفرنكية بينما درس « أديلارد » بين العرب . وعلى ذلك فان الجدل الذي يقوم بين الاثنين يتطرق إلى المقابلة بين الدراستين ، وقد قال في مقدمة كتابه هذا : « إني سأدافع عن قضية العرب ، لا عن قضيتي » وشدد في نهاية كتابه على تفوق الطريقة العربية كما ساعد بنفوذه على نشرها في الغرب ، فترجم عدداً من الكتب العربية في علم الهيئة والرياضيات وبذلك مد في نشر هذه العلوم في أوربا .

وقد اقتفى أثر « أديلارد » كثيرون من الانجليز . فقد درس « روبرت » ــ وهو من أهالي جستر ــ في القرن الثاني عشر أيضاً ، الرياضيات وترجم الكتب العربية . وهناك شخصية طريفة هي شخصية « دانيل مورلي » الذي يحدثنا عن نفسه أنه كان بَرِماً بالجامعات الفرنكية فذهب إلى اسبانيا « في طلب أحكم الفلاسفة على وجه الأرض » على حد تعبيره ، وقد عاد إلى انجلترا بمجموعة كبيرة من الكتب التي لقيت جمهرة كبيرة من القراء . « وميخائيل سكوت » الذي درس ــ في القرن الثالث عشر ــ في صقلية وأتقن اللغتين العربية والعبرية ، وترجم كتب أرسطاليس من اللغة العربية ، وكان كثير منها قد تلقاه الغرب لأول مرة ، كما انه ترجم التعقيبات العربية على فلسفة ارسطاليس ، وألف عدة كتب في علم التنجيم والكيمياء .

ولقد كان عمل هؤلاء وغيرهم من الانجليز المغامرين الذين زاروا بلاد العرب كبير الفائدة من الناحية الثقافية ، فبفضل أعمالهم ذاعت آثار العرب الفلسفية والعلمية العظيمة في انجلترا والغرب ، وتقدمت الثقافة الأوربية خطوة كبيرة الى الأمام . وكان التأثير الذي تركته كتبهم للترجمة والموضوعة عظيماً . وفي وسعنا أن نضع الفيلسوف الانجليزي العظيم « روجر باكون » في عداد الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالثقافة العربية ، وكذلك الشاعران « شوصر » و « ليد كيت » . ومن المهم ذكره في هذا المجال أن أول كتاب طبع في انجلترا وهو كتاب « أمالي وأقوال الفلاسفة » (سنة ١٤٧٧) وقد وضع على أساس كتاب عربي هو كتاب : « مختار الحكم ومحاسن الكلم » الذي صنفه في سنة ١٠٥٣ الأمير المصري « مبشر بن فاتك » ، ولم يطبع النص العربي ، ولكن هناك نسخة خطية منه لا تزال موجودة في هولاندة ، وهو مجموعة أمثال وأقوال حكمية ، وكان كثير الشيوع مدة من الزمن في الشرق وقد ترجم الى عدة لغات أوربية .

إن الدين الذي تدين به أوربا في العصور الوسطى لمعاصريها من العرب ومترجميهم لهو دين مضاعف ، ففي الدرجة الأولى كان العرب هم الذين نشروا القسم الأكبر من ميراث الفكر والعلم الاغريقي الذي كان الغرب قد أضاعه ، واحتفظ به العرب وأذاعوه ، وفي الدرجة الثانية أن أوربا قد تعلمت من العرب طريقة جديدة في الدراسة ، تلك الطريقة التي وضعت العقل فوق السلطة ، ودافعت عن البحث العلمي الحر ، وقد كان هذان الدرسان هما اللذين لعبا أكبر دور في إعطاء نهاية للعصور الوسطى ، وبعث النهضة « الرينسانس » وولادة أوربا الجديدة ، كما أن العلماء الانجليز ساهموا بدور كبير في نقل هذه الدروس . وإن من مآسي التاريخ الآن أن العرب ينسون في هذا الوقت الأشياء التي فعلوها هم لأوربا ، وأن يقوموا بدراستها مرة أخرى بعد مضي عدة عصور .

ونود أن نختم هذا الفصل بالرجوع إلى أقوال « إديلارد » نفسه في حديثه مع قريبه عن الطريقة التي تعلمها في أسبانيا ، ورأيه هذا قد سجل منذ ثمانمائة سنة :

« إنني ، والعقل دليلي ، قد تعلمت أمراً واحداً من أساتذتي العرب . أما أنت فعلى خلاف ذلك قد تلجمت بلجام من المظهر الخارجي للسلطة ــ وبماذا نصف السلطة إلا بأنها لجام ؟ ــ على شاكلة الحيوانات المتوحشة ، فانها تساق إلى حيث يشاء المرء بدون أن ترى لماذا والى أين تساق ، بل تتبع المقود الذي توقف به ، وكذلك الكثير منكم قد ربطوا بقيود وسلاسل من التسليم المنحط ، وسيقوا إلى الخطر بسطوة بالغة .... لقد منح العقل للأفراد لكي يكون هو الحكم الرئيسي للتفريق بين الحق والباطل ... فيجب أن نسعى بداءة ذي بدء إلى البحث عن العقل . فمتى وجد قبلت حينئذ السلطة إذا أريد إضافتها إليه ، فان السلطة في حد ذاتها لا يمكن أن توحي بالثقة إلى الحكيم ، ولا ينبغي لها أن تستعمل لهذه الغاية » .

والذين يعرفون كتابات العرب سيؤيدون رأي « إديلارد » هذا على الفور ، أما الذين يعرفون علم الغرب فسيدركون مغزاه حالاً .

عبدالوهاب الأمين
١٩٤٢

عاشق اللغة العربية

احتفل الرجل الجليل الأب أنستاس ماري الكرملي في ٥ آب بعيد ميلاده السادس والسبعين ، في صومعته الهادئة ، منصرفاً الى العمل الذي وقف عليه حياته .

إن سيرة الأب الكرملي مثال حي للفكرة التي تتسلط على ذهن الإنسان فتعلق بشغاف قلبه ، وتغدو جزءاً من أجزاء نفسه ، وأية فكرة هذه التي ملكت لب الأب وهيمنت على جوارحه منذ حداثة عهده ؟

هي اللغة العربية ، وأكبر بها فكرةً ينزع اليها العقل ، وتروى عنها النفس ، تراءت له وهو فتى لم يكد يبلغ أشده ، فبهره منها الحسن والسناء ، وقطع لها راضياً عهد المودة والوفاء . وها هو ذا بعد ستين سنة أو تزيد لا يزال وفياً بالعهد ، متحمساً للغة الضاد حماسة الشباب الفوار ، مخلصاً لها إخلاص الشيخوخة المحنكة الحكيمة .

كانت اللغة العربية مذ وجدت — ولن تزال — وسيلة للخطاب والتفاهم ، تحمل الأفكار من ذهن إلى ذهن ، وتنقل الأخبار من جيل إلى جيل ، حتى قربت بين الناس ، ووصلت بين الأزمنة الغابرة والحاضرة . وإذ أصبحت بعد تهذيب أطرافها وتنميق أسبابها أداة الآداب الرفيعة ، لم تخرج عن كونها وسيلة لا غناء فيها إلا بما اتخذت له من غاية الإفصاح والتبيان . لكن لكلماتها وتراكيبها — مع ذلك — جرساً في الأذن ، ورسماً على القرطاس حببها أحياناً إلى النفوس ، وقربها من الأذهان بصرف النظر عن مدلولها ومؤداها .

ولقد أشار إلى ذلك أناتول فرانس في كتابه : « الحياة الأدبية » عند الكلام على معجم جديد ظهر في اللغة الفرنسية ، فقال ان بودلير كان يقرأ معجمات اللغة ويبتهج بقراءتها ، وأن تئوفيل غوتييه كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً ، وأن جوزه ماريادي هريديا كان يجهر بأن مطالعة المعجم تستثيره وتدخل على نفسه من اللذة والسرور مالا تدخله قراءة رواية « الفرسان الثلاثة » . وأضاف أناتول فرانس قائلاً بأسلوبه الساحر : « أما أنا فلا أجد عادة للكلمات معنى يفوق المعنى الذي تجعله لها المصطلحات ، فقد كنت في أغلب الأوقات أهيم في معاجم كبيرة كأنها الرياض الملتفة . وسبب ذلك أني أرى أن الألفاظ إنما هي صور . وما المعجم اللغوي سوى عالم قد رتب بحسب ترتيب حروف الهجاء . وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة صادقة فاننا نجد أن معجم اللغة إنما هو الكتاب الذي لا يفوقه كتاب ، فانه يشتمل على التصانيف بأجمعها ، فما عليك إلا أن تستدرجها منه ... واني لأشعر في قلبي بحنو عظيم ازاء كل كلمات اللغة . إني أشعر برأفة كبيرة أمام طائفة التعابير البسيطة والفخمة . إني أحبها كلها ، فهي تستميلني وتستفزني ، واني لأمس الكتاب الذي يضمها مساً شديداً ينم على مبلغ تأثري وارتياحي » .

غير أن هذه الوسيلة التي يستعملها الناس في خطابهم ، ويستعين بها الأدباء في أداء رسالتهم ، قد أصبحت غاية في حد ذاتها للعلماء الذين انقطعوا إلى دراستها ، ووقفوا حياتهم على استجلاء غوامضها .

فلا عجب أن نهج لغوينا العربي نهج من سبقه من علماء اللغة الأعلام ، من أبي منصور الأزهري صاحب التهذيب ، وأبي نصر الجوهري صاحب الصحاح ، ومجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس ، إلى البستاني ، والشدياق ، والشرتوني ، وسواهم من المحدثين ، وأن ترسم خطى من سلف من أمة التدقيق والتحقيق من أمثال جونسن وويبستر ، وأميل لتره ، فاتخذ من اللغة غاية ما بعدها غاية ، يكب على نقد مفرداتها نقد الصيرفي .

وما أشبه لغوينا من بعض الوجوه بزميله الانكليزي صموئيل جونسن الذي سبقه بنيف وخمسين ومائة سنة ! فغيرة الأب على اللغة العربية تشبه غيرة جونسن على لغته الانكليزية ، وأسلوب الأب المتين اللاذع يعدل أسلوب جونسن (وان يكن هذا الانكليزي الصميم لم يرض قط أن يدخل ميدان المساجلات والمناظرات بالرغم عن الحملات التي كثيراً ما حملت عليه) . ومجلس الأب شبيه بالمنتدى الأدبي الذي أنشأه الدكتور جونسن وصحبه وحضره مؤرخه بوزول ، فسجل مباحثاته ومداولاته .

ومقام لغوينا العراقي بين أقطاب العربية معروف مرموق ، وجهاده في سبيل الفصحى مرئي مسموع ، ورأيه في التمسك بأهدابها مقبول متبوع . ولنا عليه أن يكلل مساعيه الموفقة في خدمة اللغة الشريفة باخراج معجمه الكبير الذي وسمه « بالمساعد » ، فيتفرغ لانجازه وتنقيحه وتبييضه ، فهو عصارة سعيه وخلاصة جهده .

مير بصري

١٩٤٢



الوهم



بقلم: إبراهيم عبد القادر المازني

أكثر ما يقعد بالانسان عن الطلب ، أو يصده عن السعي أو يصرفه عن الاقدام ، وهم لا حقيقة ، وقل أن يقدم الذى يطول تفكيره ومشاورته لنفسه ، ويندر أن يفوز بالطيبات في هذه الدنيا إلا الجسور أو « الفاتك اللهج » كما يقول بشار ، أى الذى لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص في الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات .

تكون مع المرأة التى تحبها ، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد ، أو على الأقل أن تثنى على جمالها أو ذوقها في اختيار ثيابها . فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول في نفسها وأن تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها ، فتحجم ، وتمتعض هى ، لأنك خيبت أملها فيك ورجاءها عندك . وقد لا تحب المرأة الرجل ، ولكنه لايسوءها منه أن تعرف أنه يحبها ، ولا يثقل عليها أن يثنى بما يعلم وما يتخيل أيضاً ، والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وكثيراً ما تقرأ لى الفتيات ما يكتبن أو ينشدنني ما ينظمن ، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع في نفسى من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن ، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق ، وشفاههن وهى تتحرك وتلتقى وتفترق ، وتختلج من فرط التأثر بالمعانى المصورة في الكلام ، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة ، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن ، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب ، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر ، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى ، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن ولأهرب من إبداء الرأى في كلام لا أرى له قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه ، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب ، ونحن نسح بالكلام ، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات ، وأبقى أنا أو أذهب ، ولا أكون قد رددت نفسى على مكروهها .

وقد جربت الناس فلم أجد ما يريح مثل الاجتراء عليهم . كنت في بعض ما مر بى مضطراً إلى الاتصال في عملى برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأى فلا راحة لانسان معه ، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت : أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللياقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو . فكان يفطن إلى حيلتى في بعض الطريق فينبو في الزمام ، فخطر لى أن المنطق والحجة لعلهما أجدى ، فصرت أجادله بالتى هى أحسن ولكن بالبرهان والبينة ، فكان يتملل ويتأفف ولا يكتم ضجره منى وكراهته للجاجتى ، فضاق صدرى يوماً وخرجت معه عن طورى - على ندرة ذلك جداً - ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فأسمعته من رأيى فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته ، فما راعنى إلا استخذاؤه والا أنه أذعن وراح بعد ذلك يتقى أن يثيرغضبى ويخشى بادرتى أشد الخوف . فاسترحت .

وقد يظن القارىء أنى أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم ، وما أريد شيئاً

من هذا ، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفى أو يمنع أن تحترم نفسك ، ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً ، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب ، فأنك تستطيع أن تذهب فى الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب . ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة ، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره .

وقد قص على بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة ، فهو لا يفعل إلا ما تأمر ، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إن أذنت له ، وقيل لى إنها هى التى تنتقى له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك . وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادى ذاك ، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً ، فعجبت ! وسألت محدثى : وماذا يخيفه منها ؟ أهو يخشى أن تأكله إذا اعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان ؟ فهز محدثى رأسه ولم يستطع أن يذكر لى شيئاً معقولا . وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتقض زوجها على هذا الاستعباد؟ هى وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه فى نفسه . وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة ، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت ، بل لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى . وما أظن امرأة تكبر رجلا يكون عنانه فى كفها الرخص ، ولاشك أنها لا تنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدرى ، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ما تريد فيلين ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح ويجعلها بذلك ألين فى يده من ناحية أخرى .

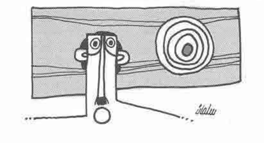
وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة ، ولعلها أشبه شىء بالحرب التى تشنها العصابات المتحصنة فى رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة . وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما . ولكن المرأة لا تقر لهما الاقرار التام ولا تزال تختبىء وتطلق قذيفتها . وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصاً كافية لاصابة الهدف ، فتسكن نفسها وترضى عن حالها . وإلا التمرد الصريح . ولكنه ينبغى أن يكون له وجود وكرامة ، وإلا خسر احترامها له واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هى أنه لا خير فى محاولة إخضاعه لها .

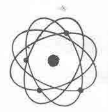
وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أنى احتجت يوماً أن أعاقب تلميذاً ، ولو تمردوا على لما وسعنى شىء فأنى واحد وهم كثر ، ولو انتقضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه ، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة ، ويرهب ما يتوهم ، ويطول عهده بذلك فيتقرر فى نفسه . وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذى بأن سلطان المدرس خيالى ولا حقيقة له ، وأنهم لو شاءوا لتناولونى وقذفوا بى من النافذة ، وقذفوا بالمدرسين جميعاً وبالناظر أيضاً ورائى ، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون منى ، ثم يعودون إلى ما ألفت منهم من حسن الاصغاء وشدة الحرص على النظام .

وكبر ابنى وصار أطول منى قامة ، وأنا الآن كهل وهو شاب ، وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً ، وأن أجعله يشعر باستقلاله ، ومع ذلك لا أراه يجترىء الاجتراء الذى أتوقعه وأريده ويسرنى أن أراه منه ، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على اكبارى والاقرار له منذ الصغر . فهو لا يزال طفلا بالقياس إلى فيما أرى ، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة ، أو سلطانها ، أو لا أدرى ماذا ، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير ، ولا عيب فيه ، ولا خوف من الزجر عليه . وأنا أيضاً كنت طفلا - كما لا أحتاج أن أقول - وكان هذا شأنى ، لأن للعادة سلطانها .

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه ، لا وجود له ، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلا ، وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود ، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جباناً أو ذليلا ، ولا من سوئه أن يكون عارفاً بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً فى سعيه وصريحاً فى قوله ، أى مخلصاً لنفسه .

ابراهيم عبد القادر المازنى
نوفمبر ١٩٣٦





تقديم : لبنى الريدي

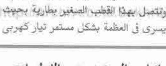
الجبيرة الكهربية

تستغرق عملية التئام الكسور وقتاً طويلا خاصة اذا كانت الاصابة فى عظام يصعب ترميمها مثل عظمة الساق أو عظام الكف. ولذلك فكر الباحثون فى استخدام أجهزة كهربية للاسراع بترسيب الكالسيوم فى العظمة المكسورة مما يكسبها صلابة ويساعد على سرعة التئام الكسر.

وكان الأطباء يعلمون من عشرات السنين أن النبضات الكهربية تساعد على التئام الكسور، ولكن لم يتم استغلال هذه الظاهرة لتصميم جهاز لهذا الغرض الا مؤخراً. ولقد صمم الباحثون نوعين من هذه الأجهزة، النوع الأول يثبت على المنطقة المصابة من الخارج قبل الجبيرة بينما يتم زرع النوع الثانى تحت الجلد.

ويتكون النوع الأول من وحدتين : وحدة بطاريات قابلة للشحن موضوعة فى حافظة صغيرة تعلق فى الكتف، ومحول للطاقة يرسل نبضات كهرومغناطيسية ذات طاقة منخفضة لا يشعر بها المصاب، ويتم انتاج أحجام مختلفة من هذه الوحدة لتناسب مناطق الاصابة فى الجسم. ويمكن وضع الجهاز مباشرة على الجلد أو فى غطاء يشبه الجبيرة كما توضح الصورة.

ويرتدى المصاب هذا الجهاز لمدة ثمانى ساعات يومياً، لفترة تتراوح بين أربعة وستة شهور، وهو مزود بشاشة صغيرة تبين مدة استخدام الجهاز خلال اليوم، كما يظهر عليها تنبيه عندما تبدأ طاقة البطاريات تضعف. ويحاول الباحثون حالياً دمج الوحدتين فى وحدة واحدة.



أما النوع الثانى من هذه الأجهزة فيزرع تحت الجلد، ويلامس القطب الكهربى العظمة المكسورة، ويوصل بها بإحكام، ويتصل بهذا القطب الصغير بطارية بحيث يسرى فى العظمة بشكل مستمر تيار كهربى ضعيف، ويتم نزع البطارية بعد التئام الكسر فى حين يظل القطب الكهربى مثبتاً فى العظمة. ويتطلب تركيب هذا الجهاز إجراء جراحتين واحدة لزرعه وأخرى لنزعه بعد اكتمال الشفاء.

ويؤكد الأطباء أن هذه الأجهزة الكهربية تساعد على شفاء إصابات الأربطة والأوتار، خاصة أوتار الكاحل.

انتاج البروتين من الفطريات

بعد عشرين عاماً من الأبحاث والتجارب نجحت إحدى شركات الأغذية البريطانية فى إنتاج مواد غذائية بروتينية من الفطريات، وتكلف هذا المشروع الطموح حوالى أربعة ملايين جنيه استرلينى.

ويتميز هذا الطعام الفطرى بأنه يشبه فى مذاقه وشكله أنواع الغذاء الطبيعى على عكس الأغذية التى حاول الباحثون إنتاجها من فول الصويا ولم تلق رواجاً، وينتج المصنع من هذا البروتين لحماً يصعب تمييزه من حيث الشكل والمذاق عن اللحم الطبيعى.

ويتم تصنيع هذا البروتين من فطر ينتمى لعائلة « المشروم » أو عش الغراب. وتمر العملية الصناعية بعدة مراحل تبدأ بالتخمر حيث يتضاعف وزن الفطر كل خمس ساعات عند تغذيته على شراب الجلوكوز فى درجة حرارة ٣٠ درجة مئوية. وبالتحكم فى نسبة الماء أثناء عمليتى التخمر والترشيح التى تليها يتم الحصول على ألياف فطرية متشابكة لا رائحة لها ولا لون أو نكهة. وملمسها يشبه ملمس جلد الشمواه.

وعند إدخال هذه الألياف البروتينية الفطرية فى آلة معينة لاعادة ترتيب أليافها نحصل على بروتين قابل للمضغ، وباضافة نكهات ولون وقليل من زلال البيض أمكن تحويل ألياف البروتين الى فطائر دجاج وبسكوت بالشكولاتة..

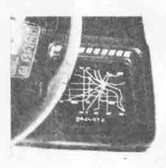
أما من الناحية الغذائية فتحتوى هذه الألياف الفطرية على ٤٤٪ بروتين مقابل ٥٧٪ فى حالة شرائح لحم العجول الصغيرة، ولكنها تحتوى نصف نسبة الدهون الموجودة فى مثل هذا النوع من اللحوم وبها نسبة ألياف مساوية لما فى الخبز الأسمر.

ويتميز هذا النوع من البروتين بأنه لا يحتوى على أى نسبة من الكولستيرول، ومن ثم فهو يمثل غذاء صحياً.

الأقمار الصناعية تحدد مسار السيارات

بدأت العديد من شركات السيارات الأمريكية واليابانية فى تزويد سياراتها الجديدة بنظام ملاحة متطور يعمل بالكمبيوتر ويستقبل إشارات من الأقمار الصناعية المحلقة بعيداً فى الفضاء، وتستخدم هذه الاشارات لتحديد مسار السيارة وموقعها على شاشة تليفزيونية مثبتة أمام السائق فى لوحة السيارة.

ويتكون هذا النظام المتطور للملاحة من جهاز استقبال للاشارات اللاسلكية المرسلة من الأقمار الصناعية وجهاز ميكروكمبيوتر وشاشة تلفزيونية. ويتم تخزين مجموعة كبيرة من الخرائط لجميع الطرق فى مدينة أو بلد ما فى اسطوانات فيديو تعمل بأشعة الليزر أو مجموعة من أشرطة الفيديو بحيث يستطيع قائد السيارة عرض الخريطة المطلوبة على شاشة أمامه بمجرد الضغط على أحد الأزرار. وبالتالى يمكنه تحديد أقصر





الطرق وأيسرها للوصول الى المكان الذى يقصده. ويضمن هذا النظام ألا يضل أى سائق طريقه فهو يستقبل الإشارات من ثلاثة أقمار صناعية. ويقوم الميكروكمبيوتر بتحديد موقع السيارة على الخريطة بناء على المعلومات التى تم استقبالها.

كما ستضم بعض السيارات فى المستقبل القريب نظام ملاحة يمكنه إرسال واستقبال الاشارات، وسوف يستخدم هذا النظام المزدوج فى تسيير قوافل الشاحنات وسيارات الأجهزة وسيارات الاسعاف الخ.. ويمكن بفضل هذا النظام المزدوج اكتشاف السيارات المسروقة ومنعها من الحركة بوقف تزويدها بالوقود بواسطة جهاز للتحكم من بعد. كما يستطيع السائق ارسال رسالة استغاثة أو طلب للمعونة من المركز الرئيسى، ويمكن أيضاً استخدام هذا النظام لتنبيه الشاحنات على الطرق السريعة لأى أخطار أو احتمالات تصادم فى طريقها.

ولكن تظل تكلفة هذا النظام الباهظة عائقاً أمام إنتشاره، فهو يكلف حوالى مائة ألف دولار، وإن كانت شركات السيارات تتوقع أن تتوفر نظم الملاحة الالكترونية بما لا يزيد عن خمسمائة دولار وذلك فى منتصف التسعينات!

الهاتف الطائر



ينعزل ركاب الطائرات عن العالم انعزالا شبه كلى مما قد يثير ضيق بعضهم خاصة رجال الأعمال. ولذلك فكرت إحدى الشركات الأمريكية المتخصصة فى مجال الاتصالات اللاسلكية فى تزويد الطائرات بنسخة جوية للهاتف الأرضى. ويتيح هذا الهاتف الطائر الاتصال بجميع أنحاء الولايات المتحدة بما فى ذلك ألاسكا وهاواى أثناء التحليق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم.

ولقد تعاقدت هذه الشركة على إدخال نظام الهاتف الطائر مع تسع شركات طيران، على أن يبدأ عمله فى بداية عام ١٩٨٥. ويتم الاتصال الهاتفى من الطائرة من خلال موجات لاسلكية خاصة تستقبلها محطات أرضية لتقوم بدورها بنقلها الى خطوط الهاتف المحلية، ويتولى الكمبيوتر على متن الطائرة انتقاء المحطة الأرضية المناسبة من بين ٣٧ محطة وذلك لضمان وصول أقوى إشارة لاسلكية وبأقل تكلفة.

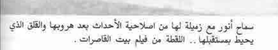
وعندما يريد الراكب اجراء مكالمة هاتفية يتوجه الى أحد أجهزة الهاتف المثبتة فى جدار كابينة الطائرة ويضع فى فتحة خاصة بطاقة الدفع، وينتظر الى أن يتم التحقق من رقم البطاقة ثم يأخذ الهاتف الى مقعده ليطلب الرقم ويتكلم بحرية.

وتتكلف المكالمة ٧,٥ دولار لأول ثلاث دقائق، ثم ١,٢٥ دولار لكل دقيقة اضافية، والحد الأقصى للمكالمة أربعون دقيقة. ويتم خصم قيمة المكالمات اتوماتيكياً من بطاقة الدفع الخاصة بالراكب.

وتؤكد التجارب الأولية أن المكالمة التى تتم من الطائرة لا تقل وضوحاً عن المكالمات الأرضية.

وسوف يتمكن ركاب الخطوط الجوية الأمريكية من إجراء مكالمات دولية من الطائرة مع نهاية عام ١٩٨٥.

نور الشريف في لقطة في نهاية فيلم «آخر الرجال المحترمين» وبعد أن انتصر بجهده الخاص في العثور على الطفلة الضائعة .. وهو ينظر إلى المدينة الكبيرة التي كادت أن تبتلعه.



سماح أنور مع زميلة لها من اصلاحية الأحداث بعد هروبها والقلق الذي يحيط بمستقبلها .. اللقطة من فيلم بيت القاصرات.

سينما

بقلم: رءوف توفيق

السينما المصرية تناقش بجرأة:

الإنسان.. في مواجهة التطبيق الحرفي للقانون!



بوسي في دور المرأة التي أصابها مرض نفسي بعد حادث غرق إبنتها في حمام السباحة ، وحاولت تعويض عاطفة الأمومة باختطاف طفلة صغيرة .

إذا كانت مصر قد شهدت أول حكومة في التاريخ .. منذ أيام القدماء .. فإن ميراث البيروقراطية ، أو التعقيدات المكتبية من خلال درجات الموظفين ، وحدود سلطاتهم ، هو بالتأكيد ميراث متراكم متجدد .

ورغم كل المحاولات المبذولة في مصر ، لكسر سطوة التفكير المكتبي .. إلا أن عشرات القوانين القديمة ، والمعدلة ، والمتناقضة .. جعلت صغار الموظفين أسرى اللوائح والاجراءات المكتوبة .. ينأون بأنفسهم عن حرية التصرف ، خوفا من المسئولية !

ومع ازدياد عدد السكان ، وتضخم عدد الموظفين .. تشابكت الصورة أكثر !

وبنظرة متأملة .. نجد أن البيروقراطية ، هي إحدى سمات العالم الثالث .. مهما اختلفت المواقع على الخريطة الجغرافية .

وربما يذكر الذين يتابعون الأعمال الأدبية والفنية .. أن العديد من النماذج عالجت هذا الموضوع ، في الروايات ، أو المسرحيات ، أو الأفلام .. سواء في المنطقة العربية .. أو في افريقيا عموما .. أو في بعض البلدان الآسيوية !



ولا أستطيع أن أنسى شخصيا ، ذلك الفيلم القصير (٣٥ دقيقة) الذي قدمته السنغال ـ عام ٨٣ ـ بعنوان «شهادة فقر» يحكي في إيجاز وقوة ، مأساة امرأة فقيرة تحمل على ذراعيها طفلها المريض بالحمى .. ضائعة في شوارع «داكار» العاصمة .. تبحث عن مكان لطفلها في إحدى المستشفيات الحكومية .. فتواجه بمختلف أنواع التعقيدات واللامبالاة .. وتنتقل من مستشفى الى آخر .. والأبواب موصدة في وجهها .. بينما يدخلها بسهولة أصحاب السيارات ؟

وتتسلل في غفلة من الحراس .. إلى داخل إحدى المستشفيات .. فتفاجأ بمدى الاهمال من المرضين أو الذين يعدون الطعام .. حيث تراهم يقتسمون لأنفسهم ، النصيب الأكبر والألذ من اللحوم والفواكه ! وعندما يكتشفون وجودها بينهم .. يطردونها فوراً ..

وتشتد الحمى على الطفل .. وتعود الأم لتجوب الشوارع .. بحثا عن أي مستشفى وعندما يرق لها قلب طبيب ، ويكشف على طفلها .. يقرر ضرورة إدخاله بسرعة الى المستشفى لخطورة حالته .. ولكن عليها أولا أن تسدد الرسوم المطلوبة .. وهي لا تملك شيئا .. والوقت يجري .. وينصحها أحد الموظفين بأن تحضر «شهادة فقر» حتى يمكن إدخال طفلها مجانا ..

وتبدأ من جديد رحلة البحث عن المكتب المختص لاستخراج مثل هذه الشهادة .. لتفاجأ بنماذج من الموظفين .. يتهربون من العمل .. أو يضيعون الوقت .. ومنهم من طلب منها استكمال الأوراق اللازمة حتى يمكن استخراج «شهادة الفقر» .. وعندما تتوسل إليه المرأة بطفلها المريض .. يأمر بطردها من المكتب !

وتخرج المرأة مهزومة .. مطرودة .. ويموت طفلها على ذراعيها !

وقد كان هذا الفيلم الجريء ، والذي كتبه واخرجه الفنان السنغالي «موسى يورو باثيلي» بأقل الإمكانات ، وبأكبر قدر من الصدق .. هو تعبير احتجاج ضد التخلف وسطوة البيروقراطية .

الاقتراب من الواقع

وفي السينما العربية أخيرا .. ومع عودة الوعي ، بعد موجة الأفلام التجارية الهابطة .. نتعرف على فيلمين من أحدث ماأنتجته الإستوديوهات المصرية .. يناقشان موقف الإنسان البسيط عندما يصطدم بحائط البيروقراطية .

ومن المثير .. أن الفيلمين يعرضان في نفس الوقت .. وبلا ترتيب مسبق .. وكأنما هناك إحساس ضمني ، عند بعض السينمائيين في مصر .. بضرورة الاقتراب من الواقع والتعبير عنه .

الفيلم الأول : من إنتاج وتمثيل «نور الشريف» وإخراج سمير سيف وعنوانه «آخر الرجال المحترمين» .

والفيلم الثاني من إنتاج وإخراج «أحمد فؤاد» وبطولة الوجه الجديد سماح أنور مع محمود عبد العزيز .. وعنوانه «بيت القاصرات» .

آخر الرجال المحترمين

يبدأ الفيلم بداية خادعة .. فنحن أمام مدرس شاب في إحدى مدارس الأطفال بصعيد مصر ..

والمدرس «نور الشريف» ، يقدمه الفيلم ، مخلصا في عمله ، محبا للأطفال .. مهتما بالقراءة والثقافة التي يعتبرها نوعا من الحماية له ، ولكيانه الإنساني ، في وسط الاهتمامات المادية المتزايدة .

وهو راض بمكانه في الريف .. بعيدا عن ضجيج العاصمة .. حدد عالمه داخل مدرسته ، وبيته ، ومكتبته المليئة بالكتب ، والتي يحصل عليها من خلال احد المسافرين دوما الى العاصمة لقضاء مصالح بعض أهالي القرية ، وشراء ما يحتاجونه منها .

وهذا المدرس بتكوينه المثالي الواعي بما يحدث حوله .. يحاول أن يزرع في تلاميذه الصغار .. الحب والأخلاق والفضيلة .. والتزود دائما بالثقافة .. وأشد ما يخشاه ، تأثير التليفزيون على نقائهم وبراءتهم !

ولهذا تكون صدمته شديدة ، عندما يقف في الفصل ليسأل تلاميذه عن اسم الشاعر الذي قال : «وما نيل المطالب بالتمني .. ولكن تؤخذ الدنيا غلابا»

ويرتبك التلاميذ الصغار ، لثوان .. ويحاول أن يساعدهم بحب .. يقول لهم إن الاسم الأول لهذا الشاعر هو «أحمد» فمن يستكمل الاسم ؟!

وتقف طفلة صغيرة لتقول في ثقة : إنه «أحمد عدوية» ! !

ويشعر المدرس بالفجيعة .. وهو يصحح لها الاسم .. إنه «أحمد شوقي» .

والفرق هائل بين الاسمين .. ولكنه تأثير المناخ الثقافي العام .

ومن هذه المشاهد الذكية والساخرة ، التي يبدأ بها الفيلم يتأكد لنا الاحساس ، بأننا أمام فيلم يقوم على علاقة هذا المدرس بتلاميذه الصغار ، خصوصا ، وأنه قد وقع



المدرس (نور الشريف) في إحدى محاولاته للبحث عن الطفلة الضائعة ، مع علي الشريف المتخصص في سرقة الأموال فقط ، وسناء يونس المشرفة على خدمة الرحلة المدرسية .

عليه الاختيار ليشرف على رحلة مدرسية لزيارة معالم القاهرة.

ونتوقع مزيدا من التنويعات على هذا الموضوع .. فرحلة داخل العاصمة التي تموج بالحركة والتناقضات، ومع هذا المدرس، وهؤلاء الأطفال، لابد أن تتفجر بالعديد من المواجهات الساخرة، والتي تكشف عن جانبي الصورة.

ولكن هذا التوقع لايتحقق .. وكما قلت ان بداية الفيلم خادعة .. ففجأة يتحول الموضوع الى شيء آخر ..

حادث اختطاف !

في أول زيارة لهذه الرحلة المدرسية إلى حديقة الحيوان .. تتسلل إحدى طفلات المدرسة بين زوايا الحديقة، لتلتقطها امرأة أنيقة تغريها بالحلوى واللعب .. وتقوم باختطافها !

وهذه المرأة «يوسي» نكتشف أنها تعيش حالة نفسية خاصة، بعد أن فقدت ابنتها الصغيرة في حادث بحمام السباحة .. ولهذا تسعى لتعويض أمومتها، باختطاف هذه الطفلة .. وقد كانت لها سابقة مماثلة !

وهكذا ندخل في موضوع جديد .. هو الموضوع الأساسي للفيلم.

هل القانون بلا قلب ؟

وهذا المدرس الشاب بإحساسه الهائل بالمسئولية، يشعر بفداحة ما حدث .. ففقدان طفلة بريئة وسط تروس عجلة الحياة الهادرة في العاصمة .. هو أمر لايمكن تصوره .. ومن هنا تبدأ رحلته هو شخصيا للبحث عنها.

وفي هذه الرحلة نكتشف من خلال نظرته المثالية الأخلاقية .. مدى اللامبالاة والسلبية عند البعض .. ومدى سمك القشرة الخارجية التي تختفي بداخلها روح القوانين، لتتحول إلى نصوص جافة غليظة .. يطبقها البعض بحذافيرها وبحركة آلية !

فهو عندما يهرع إلى أقرب نقطة شرطة



إنه لايصدق ماحدث .. لايصدق أن الفتاة البريئة تحولت إلى ضحية محطمة .. اللقطة هي نهاية فيلم بيت القاصرات.

.. يفاجأ بأن عليه أن ينتظر لليوم التالي، حتى يمكنه كتابة محضر عن فقد الطفلة .. لماذا ..؟! .. لأن القانون في مثل هذه الحالات، لا يعترف بالبلاغ عن المفقودين من الأشخاص إلا بعد مرور ٢٤ ساعة من وقوع الحالة !

لماذا ! .. لا إجابة هذه المرة .. ولكنه القانون ! .. ويكاد المدرس يفقد صوابه .. كيف ينتظر لليوم التالي، وهو لايدري ما الذي أصاب الطفلة ؟ .. ولا أين ستقضي ليلتها .. جائعة مريضة باكية مذعورة ..؟!

إذا كان القانون بلا قلب .. فهو ليس كذلك .. وبكل بساطته ونقائه، وحماسه .. يمسك بدليل التليفون .. ليبحث عن رقم تليفون وزير الداخلية ليتصل به.

وفي واحد من أجمل مشاهد الفيلم وأكثرها جرأة وذكاء .. يصوغ كاتب السيناريو «وحيد حامد» هذه المواجهة عبر أسلاك التليفون بين مواطن بسيط .. ومن يمثل أعلى سلطة للأمن في البلد.

المدرس بكل لهفته وجزعه، يقول إن المسألة خطيرة جدا .. وسكرتير وزير الداخلية الذي يرد على التليفون، تسترعيه تلك العبارة .. ويبدأ في الإنصات باهتمام .. ويكرر المدرس مدى ضرورة التحرك السريع لإنقاذ الموقف .. ويظن سكرتير الوزير أن الأمر يتعلق بأمن الدولة .. ولكن المدرس يرد ببساطة مذهلة .. إن الأمر يتعلق بحياة طفلة صغيرة ضائعة !

وهنا .. يرد سكرتير الوزير على المدرس، شارحا له كيف أن هذا الأمر لايستدعي هذا الاتصال.

ويحاول المدرس أن يتكلم، وهو يجفف عرقه .. ويشرح مدى جسامة الموضوع بالنسبة للطفلة الضائعة .. وبالنسبة له.

ولكن سكرتير الوزير يقول له: إن هناك عشرات الحالات المماثلة التي تقع في المدينة كل يوم.

ولا يستسلم المدرس بسهولة .. ولا يترك المكالمة تنتهي قبل أن يضمن أن يجد من يستمع إليه. وينصحه سكرتير الوزير بأن يذهب إلى مديرية أمن الجيزة .. فهي الدائرة المختصة التي وقعت فيها الحالة .. وهو سيبلغهم هناك باستقباله والاستماع إليه.

وفي المشهد التالي نرى المدرس وهو يصعد درجات سلم مديرية أمن الجيزة، واثقا من نفسه .. ومن قضيته .. ليدخل ليقابل أحد كبار الضباط، قائلا إنه قادم بناء على المكالمة التليفونية مع مكتب وزير الداخلية !

ويقابله الضابط متسائلا: هل يحتاج الموضوع الى كل هذه الضجة ؟ .. ويرد المدرس بحماس واقتناع .. إنه إذا كانت الشرطة تتحرك سريعا عند أي بلاغ بسرقة نقود أو منقولات .. فإنه من باب أولى أن تتحرك الشرطة بخطى أسرع عند الابلاغ بفقد إنسان .. لأن هنا المسألة تختلف ..


طابور الرحلة المدرسية أمام مدخل حديقة الحيوان .. والمدرس نور الشريف يعطي تعليماته ، ويتأكد من عدد التلاميذ ، وهو لايدري ماالذي سيحدث له بعد قليل



وحياة إنسان هي الأهم .!

ويسوق المدرس كل الأدلة التي تؤكد منطقه .

ولكن الضابط يقول له أن هناك عشرات الأطفال الذين يضيعون وسط المدينة نتيجة اهمال المسئولين عنهم ، ولهذا فالبحث يحتاج إلى وقت وإلى عدة اجراءات .

وإنهاء للموقف .. يطلب الضابط منه أن يقدم بلاغا بأوصاف الطفلة المفقودة .. ويتساءل المدرس بدهشة .. وماذا بعد ذلك .؟ ويشرح له الضابط بهدوء سلسلة الإجراءات القانونية التي سيتحرك من خلالها هذا البلاغ .

وهنا يشعر المدرس بأنه يضيع وقته .. ويرفض الخضوع لهذه الاجراءات .. فكل دقيقة تمر تحمل علامة استفهام جديدة بالنسبة للطفلة المفقودة .. ويقرر أن يبحث عنها بنفسه .

ولعل هذا الجزء من الفيلم .. هو أهم أجزائه .

لتتوالى بعد ذلك سلسلة من الأحداث التي يخوضها هذا المدرس في رحلته للبحث عن الطفلة .. بين أوكار اللصوص ، ونماذجهم وتخصصاتهم .. وبين جامعي القمامة في محاولة للعثور على أي دليل من ملابس الطفلة يقود إلى مكانها !

وينتهي الفيلم بالعثور على الطفلة بين يدي تلك المرأة المصابة نفسيا .. والمدرس يعيد الطفلة إلى أهلها الحقيقيين .. وهو ينفض حذاءه من تراب المدينة الكبيرة !

والفيلم في مجموعه يعتبر من الأفلام الجادة ، التي تدعو إلى التفكير والمناقشة .. ولايعيبه إلا الوقوع في تفصيلات فرعية كموضوع الثأر بين العائلات في صعيد مصر .. وتفصيلات علاقات اللصوص ببعضهم .. وتقديم بعض الشخصيات بطريقة كاريكاتيرية زاعقة لا تتفق مع نسيج الفيلم ككل .

ولكن ما يحسب للمخرج «سمير سيف» أنه استطاع أن يقدم فيلما مثيرا .. ومن خلال كاميرا المصور الفنان «محمود عبد السميع» انتقلنا من سطح القاهرة الى العالم السفلي «وقدم الممثل «أحمد راتب» دورا جيدا .. ويظل «نور الشريف» هو جوهرة الفيلم بأدائه التميز .

بيت القاصرات

في هذا الفيلم .. يعثر المخرج أحمد فؤاد على الصيغة المناسبة والتي افتقدها طوال سنوات مضت ، أهدر خلالها جهده في أفلام ، بعضها لايرتقي الى مستوى النقد .

هنا .. في «بيت القاصرات» ، ومن خلال قصة رءوف حلمي وسيناريو محكم للكاتب «أحمد عبد الوهاب» ندخل مباشرة الى قلب الموضوع المطروح : الإنسان في مواجهة القانون الجامد ، واللوائح التى ينفذها البعض بشراسة .. وأحيانا بغباء !

فهذه الفتاة الفقيرة (سماح أنور) التي تبيع أكياس اللب والفول السوداني ، على محطات الأتوبيس في أحد ميادين القاهرة .. تتعرض لمضايقات من بعض زملائها الباعة الجائلين في المنطقة ، وكلهم من الصبية المراهقين الذين تشغلهم مسألة : من الشخص الذي تحبه تلك الفتاة ؟ وهل هي حقا فتاة شريفة .. أم أنها تتظاهر بذلك ؟

ويتفقون على مطاردتها وملاحقتها ، بينما هي عائدة ذات ليلة الى بيتها .. وتقاومهم الفتاة بكل قوتها .. وتصرخ فزعا .. ويأتي على صوت صراخها بعض أفراد الشرطة المكلفون بالحراسة الليلية في هذه المنطقة .. وما أن يلمحهم المراهقون ، حتى ينطلقون هربا ، وتبقى الفتاة ملقاة على الأرض ، تلتقط أنفاسها ، وتلملم ملابسها .

وتقبض عليها الشرطة .. وتخضع للاجراءات الروتينية في قسم الشرطة .. ثم ترحل للنيابة في اليوم التالي .. ليصدر القرار بتحويلها الى إصلاحية الأحداث حماية لها !

فقد اعتبرها القانون من المتشردين الذين يجب تقويمهم !

فهي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها .. يتيمة الأبوين .. وبلا مهنة مستقرة .. وبلا عائل .. وهذه المواصفات تنطبق تماما مع ما حدده القانون في نظرته للأحداث المشردين .

وتحاول الفتاة أن تثبت براءتها .. وتؤكد على نزاهتها وشرفها .. ولكن صوت صراخها يتلاشى مع انطلاق عربة الشرطة التي تنقلها إلى أصلاحية الأحداث !

الدائرة الرهيبة

منذ اللحظة الأولى لدخول الإصلاحية .. نستشعر هذا الجو الصارم ، المحكوم بالعنف .. فهي كوافدة جديدة عليها أن تخضع للكشف الصحي .. والنتيجة مقررة سلفا .. فمادامت وصلت الى هنا .. فهي بالتأكيد فتاة غير شريفة .. وتصرخ في احتجاج ، ولكن من يستمع الى صراخها ؟ .. ومن يصدقها؟!

وداخل غرف الاصلاحية .. تواجه عالما غريبا ، أبشع ألف مرة من الواقع الذي كانت تعيشه .. فمجموعة الفتيات زميلاتها ـ وأغلبهن لهن سوابق في الجريمة ـ يشكلن فريقين يتصارعان على الزعامة ، وفرض الأوامر على الطرف الآخر .

وتحاول النجاة من هذه المصيدة . ولكن أين المفر ؟

مديرة الإصلاحية «محسنة توفيق» وجهها جامد .. إبتسامتها متحجرة .. عقلها محفور بالقوانين التي تنفذها حرفيا .. فهي تعتقد أن تنفيذها للوائح بهذه الطريقة .. هو الضمان الوحيد لبقائها في منصبها !

ونعرف لهذه الفتاة ، صديقا شاباً يعمل سائق تاكسي (محمود عبد العزيز) يحبها ولكنه يرهب خطوة الزواج .. وما إن يسمع بخبر ترحيلها إلى إصلاحية الأحداث ، حتي يسرع إليها .. ولكن الأبواب توصد في وجهه .. فالزيارة ممنوعة إلا لأقارب الدرجة الأولى ..

ويسعى للحصول على تصريح ، فيواجه بالإجراءات الورقية .. ويستسلم لها جميعا .. ولكن مديرة الإصلاحية تطارده .. وتمنع اللقاء بشتى الطرق ..

ويتقدم الشاب بطلب الزواج من فتاته .. ولكن هل تتم المسائل بهذه البساطة ؟!

دائرة مغلقة ورهيبة ، من اللوائح والاجراءات الروتينية .

والشاب يحاول بكل المنطق والحب أن يصل الى فتاته .. ويحاول أيضا بكل المكر والحيلة .. وفي كل الحالات يصطدم بالمتاريس .. ولكنه لا ييأس ..

والمديرة أيضا لاتيأس .. بل تتلذذ بزرع العراقيل معتمدة على خبرتها في نصوص اللوائح .

أما الفتاة فهي تتحمل كل الضغوط وتعاني .. على أمل أن يتحقق لها حلم الخروج الى الحياة .. وممارسة حقها الطبيعي في الحب والزواج .

ويبرع كاتب السيناريو «أحمد عبد الوهاب» في تقديم هذه الأحداث في مباراة تبدو بلا نهاية .. بين الذين يفكرون للحياة .. والذين يطبقون نصوص القوانين الجامدة .

ويجسد المخرج «أحمد فؤاد» هذه المباراة في قالب كوميدي مأساوي .. حتى يصل الى ذروة الفيلم عندما يتم القبض على الفتاة بعد هروبها للزواج من حبيبها .. وتقتادها عربة الشرطة بفستان الزفاف الى داخل الاصلاحية .. لتخضع لعقاب المديرة .. الإهانة .. وقص شعرها .. وانهاكها في الأعمال اليدوية الشاقة .. وتستسلم الفتاة في يأس قاتل ثم تنفجر في ثورة عارمة لتحطم كل شيء حولها .. وكأنها تنتقم من كل الذين أفسدوا حياتها .

ولكنها ثورة محكوم عليها بالفشل .

وكان لابد أن ينتهي الفيلم ، بتحطيم شخصية هذه الفتاة لتصبح ضحية التطبيق الغبي للقانون .. وقد اختار الفيلم أن يكون أسلوب التحطيم من خلال هروب الفتاة من الاصلاحية ووقوعها في براثن بيت سيىء السمعة .. ومن خلال امرأة محترفة باعتها لوحش آدمي ..

وكنت أفضل أن تأتي النهاية عن طريق آخر يتصاعد بالمأساة ولا يسلبها قوتها .. خصوصا أن حكايات البيوت السيئة السمعة .. أصبحت عبئا ثقيلا وسخيفا على الأفلام المصرية .

ولكن بالرغم من هذا العيب .. إلا أن الفيلم ينطلق من فكرة جريئة .. ويستمر بها في محاورة ذكية .. وبين مجموعة من الممثلين أجادوا أدوارهم : سماح أنور في أول بطولة لها ـ محمود عبد العزيز ـ محسنة توفيق ـ احمد راتب ـ محمد رضا .. مع مجموعة من الوجوه الجديدة ، إختارها وقادها المخرج أحمد فؤاد بمهارة وكانوا مفاجأة الفيلم .

• •

وهكذا تجد السينما العربية نفسها .. وتعثر على النغمة المفقودة .. من خلال اقترابها من المشاكل الواقعية .. بعقل مفتوح .. ورغبة في المشاركة والارتقاء الى مستوى الفن الذي يخاطب الحياة الأفضل .

رءوف توفيق

محمود عبد العزيز .. سائق التاكسي .. يدافع عن فتاته «سماح أنور» أمام المحقق محاولا إنقاذها .

.. و الفلسطيني في القلب


معين بسيسو

شعر: سماح عبد الله

«إلى معين بسيسو .. من كراسة فلسطين»

سنة ، سنة .. يا فلسطين شالك في القلب .. ثم
ارتحل
سنة ، سنة ،
وتصيرين جرحاً ، وموتاً بطيء الخطى واغتراب
كان يرحل في الوطن العربي
يحط الفرات على أول النيل

يمزج .. بعد المحبين في شوق مصر
والحزن بالحزن
والنار .. بالنار
والثأر بالوجع العربي

وكان المدى يتكور قدامه مرة .. برتقالة
فيخبؤها في يديه
وحين ينام الورى
يحفر الأرض
يزرع فيها المدى
ويهيل التراب
ثم يرحل في الوطن العربي
تفوح من الجسم رائحة البرتقال المعتق
رائحة للحنين المعبأ في
ردهات الحشا
وتفوح من الجسم رائحة النار والرؤية ..
المستحيلة
يرحل ،

والروح في القدس قاعدة لا تروح
وان كان في المغرب العربي
وان كان بين الحدود ، وبين الحدود يطيل
الغياب
آه .. يا وطناً يتباعد .. والجسم مسكنه
يتعارك
والنار سكنه
يتحرق .. لكنه لا يموت
راجع
راجع ياوطن
راجع وزرعتك في الوطن العربي
كورت هذا المدى .. مرة برتقالة
ثم خبأتها في الفرات وفي النيل
والمتوسط
راجع في الزمان الإياب
سنة ،سنة يا فلسطين شالك في القلب
ثم ارتحل
ثم كور عينيك بين يديه .. وألقاك قنبلة
وتهاوى
...
...
يا فلسطين .. والدم صار الطريق
والذي يسكن الصدر .. صار الرصاص
وصار الحريق .

شـاعرات في أبيـات..
وشاعر في بيت واحد

بقلم : عبد الله الشيتي

جميل شعر الغزل ، وشهي مستساغ ، قديماً وحديثاً .وأجمل منه وأشهى ، إذا جرى الغزل على لسان المرأة شعراً ، حيية تكون ، ومترددة « مخفورة »كبرياء واستحياء طيبين ! فقد اتفق بعض النقاد والظرفاء ، على أن « المرأة » خلقت ليقال فيها الشعر ، لا لتقول الشعر !

لكن إن قالته ، ابدعت على نحو متميز بصدق العواطف ودفء المشاعر ، فما يجاريها الا بدوي الجبل ، شاعر عصره بلا منازع رحمه الله ، اقرأه في بيت واحد من الشعر ، يختصر « ديوان غزل » كاملاً ، خلل استعارة بلاغية لم يسبقه اليها أحد من قبل ، وهو قوله :

وسدتك اليمنى لعلي في غد ...

وإذا كان شعر الغزل ، أو غزل المرأة شعراً ينساب على لسانها انسياباً ، ويتفجر كما النبع من بين صخور « العادات »التي تجعل المرأة الشاعرة ــ مهما تجرأت واقتحمت الميدان ، تحسب حساباً ــ كـامـرأة شـرقـيـة ، لاعتبارات اجتماعيةوأسرية موروثة لامندوحة عنها ، الا في النادر من الحالات أو « الأبيات » الشعرية المعبرة عن رؤية خاصة أو معاناة ذاتية ، أو حتى مجرد « صورة جمالية » تنبض بالحس والنقاوة والوجدان ، كما في مقولة شاعرة شابة (سحر كيلاني) لمع اسمها يوماً في دمشق فجأة ، وانطفأ كما الشهاب الأبيض ، هي ذي هنا في بعض بوحها الجميل .. المتردد ارتباك مشاعر أنثوية شعرية بالغة الرقة والجزالة و « حتمية » التعبير :

كيف ارتحلت وأضلعي غرثى
أبداً تصيح كأنها حادي ..
لولا الحياء وإنني أنثى
لهرعت أسعى نحو ميعادي

● أما الشاعرة الدكتورة طلعت الرفاعي ، فما أكثر ما حفل شعرها العذب في بدايتها الشعرية المقتدرة ، قبل سنين طويلة ، با لكثير من هذا البوح ، عبر قصائد لم تنشر أو لم تنتشر ، وهي التي اشتهرت بالشاعرة القومية ، والسياسية الملتزمة الخط البياني لأمتها في مواجهة مصائرها بالعزم والاصرار ، وهي صاحبة أشهر قصيدة قيلت في القائد الراحل عبدالناصر ومنها بيتها الذي ما زال في الذاكرة إبان إعلان وحدة مصر وسورية :

أنا أخت هاتيك الألى
أنا أخت عبدالناصر !

وها نحن نقرؤها في « رقة » متناهية تسربلت بروح الاعتراف الحسي للوجدان ، من بين ثنايا الكلام صريحة ولذيذة كأنها قطع الحلوى في فم الجوعان الى شيء غير الطعام .. الى كلمة حانية حلوة مع رفق الربيع أخضر مقطراً في القلوب العاشقة للحياة والحب المترفع على الشوائب والأدران :

لهفي أيوجد من يعاني
حرقة الأشواق مثلي ؟
أنا ما عرفت الحب قبلك
هل عرفت الحب قبلي ؟
هبني بظلك غفوة ..
فأريك كيف أمد ظلي
وأكون طفلتك التي
ترعى الهوى وتكون طفلي ...

وإذا كان (البين ــ الفراق) تناثر ذكره ألما وتفجعاً ورحيلاً بين مئات قصائد الشعراء « القدامى » ، فها ان الكلمة تعبيراً وتجسيداً (للنوى) ــ ذات المعنى والمقصد ــ تجيء في قولة طلعت الرفاعي ، يوم كانت (مخاطرة) ــ بوح شاعرة حتى لذاتها ، في مجتمع ما زال محافظاً حتى على وحدة « التقاليد » قبل وحدة القصيدة :

في غد ألقاك ، أم بعد غد
يا له عهداً طويل الأمد
حينما صافحتني يوم (النوى)
خلسة أحسست قلبي في يدي !

ولماذا نذهب بعيدا ؟ وهذه شاعرتنا الوطنية الكبيرة فدوى طوقان شاعرة الأرض المحتلة ــ وهل يخلو القلب من مشاعر الحب مزيجة هي بالأرض والانسان ــ مواصلة عطاء وتواصل روح ووجدان أصفى من البللور ، واذا ببوح فدوى يفيض ذات يوم مضى في القليل النادر من غزل يصح فيه أن يكون التأويل .. وطناً سجيناً « يروم الخلاص » نقرأ هنا :

نادني من آخر الدنيا ألبي ...
كل درب اليك يفضي هو دربي ...
يا حبيبي (!) أنت تحيا لتنادي ...
يا حبيبي أنا أحيا لألبي ...
صوت حبي ،
أنت حبي .. انت دنيا ملء قلبي !

وعوداً على بدء ! ذلك الشاعر العربي القديم ، الم يكن في تردده وحيائه العفوي وتقاليده الفطرية ــ المتوارثة ، هو نفسه مجسداً في مقولة سحر كيلاني(لولا الحياء وأنني أنثى ... لهرعت أسعى نحو ميعادي !) .. هو ذا شاعرنا القديم متجدد(العقلية) السائدة في بوح المشاعر وذوب القلوب و (لولا ...) هذه :

لولا (الحياء) لهاجني استعبار ..
لـزرت قبرك والحبيب يزار !





دوحة القراء

إشـــراف
سـنان المسـلمـاني

ملاحظات هامة :

(١) اذكر على غـــلاف الرسالة اسم المسابقة ورقم العدد .

(٢) المسابقة العامـــة تتضمن (من – اين – مـا) والاجابة الصحيحة .

(٣) لايجوز الاشتراك فى اكثر من مسابقة فى العدد الواحد حتى لا يـــلغى الخطاب .

(٤) ترسل الاجابات على العنوان التالى : مجـــلة الدوحة – ص . ب ٢٣٢٤ – الدوحة – قطر .

● لا تقبل الحلول التى لا يصاحبها كوبون المسابقات المنشور على صفحة ١٤٣ .



حاول أن تعرف



الصورة الأولى : أحد الأماكن الأثرية الشهيرة التي تقع في واحدة من أعرق العواصم الأوربية القديمة ، ما إسم هذا المبنى والمدينة التي يطل عليها ؟

• • •



الصورة الثانية : من عباقرة الفن في عصر النهضة الإيطالي ، كان مصورا ونحاتا ومهندسا معماريا ، ولد عام ١٤٧٥ م وتوفي عام ١٥٦٤ . ومن أهم أعماله اللوحات التي رسمها في الفاتيكان .. من هو ؟

حل مسابقة حاول أن تعرف وأسماء الفائزين للعدد ١٠٥



الصورة الأولى : مسجد نمرة بجبل عرفات
الفائزة : سحر محمود جاهين – مصر
الفائز : عبد الرحيم عبد القوى – قطر



الصورة الثانية : الامام الشافعى
الفائز ابراهيم عبد الرحيم عابد السعودية
الفائز : اخلاص أحمد حسن – السودان

عش سعيدا

هناك على منحدر جبل عال في أمريكا ، توجد بقايا شجرة ضخمة يقول علماء النبات أنها عاشت نحو أربعمائة عام تعرضت فيها للصواعق والزوابع والأعاصير فلم تتأثر بها وقاومتها جميعاً .

وقد حدث في السنوات الأخيرة أن هجم على هذه الشجرة حشد من الخنافس وراح يشق طريقه إلى قلبها فما لبثت قليلا حتى انهارت أمام الهجمات المتوالية لتلك الخنافس الصغيرة والتي يستطيع طفل صغير أن يسحقها تحت قدميه .

ألسنا جميعاً مثل هذه الشجرة الضخمة ؟؟

نحن في كثير من الأحوال نقاوم الزوابع الشديدة والأعاصير الثائرة ، ثم ندع قلوبنا فريسة سهلة (لخنافس) الهموم كي تأكلها وتحطمها ! فعليك أن تحطم الهم قبل أن يحطمك . واحرص على عدم الغضب والضيق في أي أية أزمة تواجهك . وتذكر دائماً أن الحياة أقصر من أن يعنى المرء فيها بتوافه الأمور .

سلمى عصمت ــ دمشق ــ سوريا

أقوال مأثورة

ــ يزداد الحب مقاماً وعمقاً ما عظمت النفس الإنسانية . ليوناردو دافنشي

ــ رذائل الأغنياء والعظماء مجرد أخطاء في نظر المجتمع ، أما رذائل الفقراء والضعفاء فهي جرائم يعاقب عليها القانون .

كونتيسه بلنجتون

ــ يشعر الرجل بقوته فيغدق عطفه على المرأة وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل .

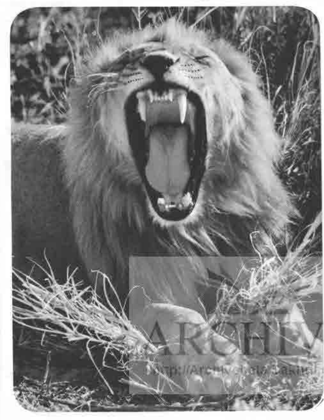
برنارد شو

ــ إن للحب فنوناً من الجنون وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الدهر .

باخوش محمد

أيت ملوك ــ المغرب

لقطة الشهر



اذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم

فاز بالجائزة (مائة ريال قطري) القارىء أحمد عثمان محمد عبد الهادي ــ السودان ــ واد مدني

خواطر الفكر

عندما تنمو الأحرف تنطلق الكلمات وتورق الحكمة بأنوار الحياة ، وينشر العقل بذور الأمل ، ويغرب الحقد من اعماق البشر .

وعندما تنتشر النجوم في الأفق يسبح العقل وينطلق في عالم السحر والخيال محاولا خلق المحال .

وعندما تستقر الشمس في الأفق يعود العقل من حيث انطلق حاملا معه بعض الآراء في انتظار قدوم المساء .

وعندما تسرى ظلال الكائنات يسترجع العقل الذكريات ويشرع المرء في جمع الأفكار ليدون للتاريخ أعذب الأشعار .

نجيب ابراهيم اسماعيل

عدن ــ اليمن





المسابقة الشعرية

فى قصيدة شهيرة لأمير الشعراء أحمد شوقى والتى سلمها بخط يده لسيدة الغناء العربى الراحلة أم كلثوم ، قال لها : إني أصفك فى هذه القصيدة .. وقمنا بحذف كلمة من هذه القصيدة ، ووضعنا بدلا منها كلمة « مقصودة » .. والمطلوب أن تعرف الكلمة الغائبة . فى قصيدة أمير الشعراء .. وها هى الأبيات الشعرية :

« مقصودة » الأيك من بالشجو طارحها
من وراء الدجى بالشوق ناجاها
بانت على الروض تسقيني بصافية
لا للسلافة لا للورد رياها

الكلمة المقصودة مكونة من خمسة حروف :

١ ، ٤ ، ٣ ، ٢ نوع من الطيور

عبارة شهيرة .. من هو قائلها ؟

« لقد دأبت على أن تستغليني بصفة مستمرة فى سعيك الدائم لضمان السلامة لنفسك .. وأنت لا تترددين فى أن تورطيني أو تعرضيني للشك فى جريمة قتل مزدوجة ، من أجل المحافظة على سلامتك » .

جاءت هذه العبارة على لسان احدى شخصيات المسرحية العالمية « زوجة كريج » للكاتب العالمى جورج كيلى ، الذى أراد أن يكشف لنا فى مسرحيته عن نمط من الزوجات يتمثل فى المرأة الأمريكية .. وأحداث المسرحية أشبه بالأحداث التى عالجها مسلسل « دالاس » .

فهل تعرف على لسان من جاءت هذه العبارة السابقة ؟

اذا كنت لا تعرف تستطيع أن تعود لنص المسرحية الأصلى .. لتتعرف على اسم الشخصية التى قالت العبارة فهو مكون من أربعة حروف :

٢ ، ٣ يستخدم فيه الماء ..



جواز سفر

- تاريخ الميلاد : ٢٦ نوفمبر ١٩١٢ .
- مكان الميلاد : بلدة سلاتين .. برومانيا ..
- الوظائف التى عمل بها : عمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسة الليسيه ببوخارست .. وناقداً أدبياً فى دور النشر بباريس ..
- الوظيفة الأساسية : كاتب مسرحى عالمى .. صاحب اتجاه جديد باسم مسرح اللامعقول والعبث ..
- الألقاب التى حصل عليها : هادم المسرح التقليدى وبانى المسرح الحديث .
- أشهر أعماله : مسرحيات : الكراسى ـ المغنية الصلعاء ـ الخرتيت ـ الدرس ـ شهداء الواجب ـ الملك يحتضر ـ السائر فى الهواء الساكن الجديد ـ معرض السيارات ـ فتاة للزواج .
- أشهر أقواله : « مسرحى محاولة لاعادة اكتشاف الحقيقة الأصيلة للدراما فى أحسن حالاتها » .
- الشخصيات التى تأثر بها : مترلنك .. وفرانسيس جام .

اسم صاحب هذا الجواز مكون من مقطعين و ١١ حرفاً .

٨ ، ٤ ، ١٠ ، ٩ ، ٢ ، ٥ رئيس امريكى سابق .

مسابقة مدن العالم

حاول أن تعرف هذه المدينة العربية .. من خلال المعلومات التى سنذكرها لك عنها !

• تقع المدينة فى دولة عربية شقيقة .

• فى عهدها الأول كانت تسمى « ترشيش » .. لكن التاريخ لم يحتفظ لها طويلا بهذا الاسم .

• اختارها الفاتح حسان بن النعمان وخلفاؤه من بعده ، مقراً لقوات الاسلام بشمال البلاد التونسية ، وقاعدة تنطلق منها مسيرة الجهاد المظفر لنصرة دين الله .

• اهتم ملوك الحفصيين بتنمية المدينة واحاطتها بسور كبير به بوابات مازال بعضها باقياً حتى الآن ، مثل باب البحر والباب الجديد وباب البنات ..

• من أشهر معالم هذه المدينة جامع الزيتونة الشهير .. ومسجد الأشبيلى فى حي سوق البلاط

• بالمدينة ميناء تجارى شهير ، وتحيط بها عدة ضواحى منها : رادس والزهراء . وحمام الأنف وقرطاج ..

اسم المدينة مكون من مقطع واحد وأربعة حروف .

« ٤ ، ١ » رمز الشر في : أسطورة أيزيس وأوزوريس الفرعونية .

حل مسابقة العدد ١٠٥

من : ساطع الحصرى
أين : مدينة صنعاء
ما : كتاب القومية العربية

١ ـ قناة يوستاكيوس تصل بين البلعوم وتجويف الأذن الوسطى .

٢ ـ موقع سوق عكاظ فى مكان بين الطائف ونخلة .

٣ ـ كتاب القانون فى الطب تأليف ابن سينا .

٤ ـ الكسندر جرهام بل مخترع الهاتف .

ـ الكسندر فيلمنج مخترع البنسلين .

ـ الخوارزمى . مؤسس علم الجبر .

٥ ـ ألقيت القنبلة الذرية الثانية على جزيرة نجازاكى يوم ٩ أغسطس ١٩٤٥ .

أسماء الفائزين

فاز بالجائزة الأولى وقدرها ٣٠٠ ريال قطرى

القارىء : محمد خلدون بكرى ـ سوريا

فازت بالجائزة الثانية وقدرها ٢٠٠ ريال قطرى

القارئة : وهيبة مصطفى عبيد ـ مصر

فازت بالجائزة الثالثة وقدرها ١٠٠ ريال قطرى

القارئة : سحر بساطة ـ قطر

الفائزون باشتراك لمدة ستة شهور

١ ـ محمود محمد محمد مبارك ـ الامارات العربية المتحدة
٢ ـ أحمد محمد زهران ـ سلطنة عمان
٣ ـ فتحرى عبد السلام عثمان ـ الأردن
٤ ـ راغب مصطفى السمرى ـ مصر
٥ ـ محمد ياسر غسان ـ سوريا
٦ ـ عبد الزهرة عبد الجبار ـ العراق
٧ ـ وسام محمد كاظم ـ البحرين
٨ ـ عوض سرور طه ـ السودان
٩ ـ علية عبد الحميد عثمان ـ الكويت
١٠ ـ أحمد محمد المسناوى ـ المغرب

حل استراحة الدوحة العدد ١٠٥

١ ـ أصل وصورة : الشارب ـ خطوط الجبهة ـ الذقن ـ الأذن ـ الحاجب ـ السوالف ـ الأنف
٢ ـ خيال من : ونستون تشرشل
٣ ـ المثل يقول : باب النجار مخلع ، الإسكافى حافى والحائك عريان
٤ ـ لوحة لم تتم : الفنان عادل امام
٥ ـ لعبة الظلال : رقم (٢)
٦ ـ يخلق من الشبه أربعين : رقم ٥
٧ ـ دورى الكاريكاتير : رقم ٩

الفائزون

١ ـ محمد سليمان ابراهيم ـ مصر
٢ ـ كمال رجب جوهر ـ السودان
٣ ـ بوسينه العيد ـ المغرب (اشتراك)
٤ ـ جابر الواسيتى الهيثم ـ السودان
٥ ـ على ابراهيم ضيف الله ـ مصر
٦ ـ محمد على أبو غنيم ـ الأردن
٧ ـ ساكسون زولدرين ـ إيران
٨ ـ سمية محمد أبو موزه ـ قطر
٩ ـ سميرة على عبد العاطى ـ مصر
١٠ ـ يوسف هبيلا ـ السودان
١١ ـ عماد الدين دهمه ـ سوريا
١٢ ـ حافظ ابراهيم عبد الغفار ـ البحرين
١٣ ـ هبه عثمان الحداد ـ السعودية
١٤ ـ سلطان شبيب المريخى ـ قطر

كوبون مسابقات مجلة الدوحة

الاســم : ______________

العنــوان : ______________

____

اسم المسابقة : ______________

رقم العـدد : ______________

« تحـذيـر »

التدخـين يضر بصحـتك
وننصحـك بالامتـناع عنـه





مجموعة
مسابقات
بالرسوم
بريشة :

روؤوف







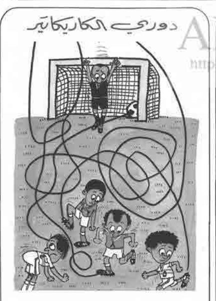
بين أصل وصورة هذا الرسم الكاريكاتيري للفنانة العربية فيروز هناك سبع اختلافات طفيفة . حاول أن تتعرف عليها لتحصل على جائزة .

المثل يقول



هذا الرسم الكاريكاتيري يعبر عن مثل شعبي شائع ، إذا عرفته قد تحصل على جائزة .

دوري الكاريكاتير



اقتحم أحد اللاعبين أرض الملعب في مهارة بالغة ، وسجل هدفا قويا في مرمى الخصم ، حدد من هو صاحب هذا الهدف ورقم فانلته ، لتحصل على جائزة .

لوحة لم تتم



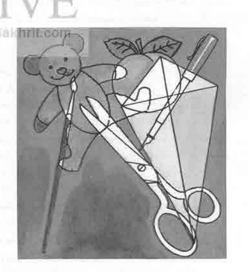
هذه اللوحة التى لم تتم ، لصحفي عربي كبير ، رحل تاركا خلفه تاريخه الطويل في بلاط صاحبة الجلالة ، أكمل اللوحة ، وتعرف على صاحبها ، وأذكر لنا أهم مؤلفاته لتحصل على جائزة .

لعبة الظلال



سجل أحد اللاعبين هدفا قويا فى مرمى الخصم بعد أن اقتحم أرض الملعب كالصاروخ .. حدد من هو صاحب الهدف ورقم فانلته لتحصل على جائزة

لأقوياء الملاحظة فقط!



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، حاول التعرف عليها ، وارسل لنا الحل لتحصل على جائزة .

يخلق من الشبه أربعين









الصور الست المنشورة هنا لست شخصيات يشبهن تماما المطربة البدوية سميرة توفيق .. ومن بين هذه الصور واحدة فقط تشبهها تمام الشبه ، وفي البقية اختلافات بسيطة .. تعرف على الصورة لتحصل على جائزة .

الورقة الأخيرة

بقلم:
عبد الله الجفري



اللحظة اليتيمة

ربما أن الذى مضى فى السنين الراحلة .. لحظة على طول الزمن !

وقد تبقى اللحظة ممتدة .. حية فى الوجدان والتذكر على طول السنين وتوغلها فى الانسان !

لكن المؤلم فى تأمل صورة واحدة من هاتين الصورتين المتناقضتين .. أن يشعر الانسان بنفسه وحده .. ليس هناك من يشاركه معايشة أبعاد الصورة ، أو من يحسها فيه !

إن مايجرى فى عالم الناس .. شئ اسمه : بضاعة التبرير ! !

فاذا أقدمت على إعلان فكرة جديدة .. فمن الصعب أن تضمن لها تقبل الناس اذا لم تضع لها وفيها ألوانا من التبريرات !

واذا ارتكبت خطأ — لاتظنه فادحا — فمن الضرورى أن تجد له الكثير من التبريرات ، فكل مالا تعتبره فادحا يعتبره الآخرون عكس ذلك !

واذا حاولت الاختباء فى نفسك لتتبادل البوح معها ، فلا بد أن تبرر ذلك الاختباء ، ثم تبرر أسباب البوح .. لأن الناس سيفتشون عنك .. حتى يلقون القبض عليك ، ويخرجوك من داخل نفسك ، ويحكمون عليك بالضياع فى زحام الناس !

وحاولت ان أواصل ركضى فى ذلك الزحام .. لئلا يضطرنى الآخرون الى البحث عن مبررات جديدة ، أولئلا أضطر مع نفسى أن أكذب عليها ، وأغافلها وأهرب منها !

حاولت ذلك .. واكتشفت عجزى ..

واكتشفت فى عجزى أن « المبررات » لا تصنع ذكاء الناس ، أو أنها لا تنقذ الانسان من غباء الآخرين ، ولكن ذكاء الناس يبتكر المبررات ويبلورها ، فيجعلها سلوكا ، ويجعلها عاطفة أحيانا .. أو كأننا فى كثير مما نمارسه ونتعامل به .. نبرر أشياء رديئة بمنطق جذاب ، أو كأننا نبرر فشل أن يكون المرء انسانا .. بتصرف يعكس براعة ذلك الانسان لاقدرته ، ويعكس ذكاءه لاقناعته ، ويعكس قفزه لا خطوته ! !

وحتى لا أبدو « أبيقوريا » فى فهم الناس .. فإن الصورة التى يكتبها أى كاتب لا يشترط أنها تعكس ملامحه ، أو أنها تمتح ذاته ، فالكاتب ورقة كربون ، ورجع صدى ، وما أراه وأحاول أن أورده — هنا — عن بضاعة التبرير فى هذا العصر .. صورة مكتملة لمجتمعات حديثة حضارية ارتقائية ، وليست صورة محصورة فى شخص ، أو فى حالة ، أو فى معاناة !

فالمجتمعات الحديثة متصلة فى أشياء كثيرة .. ابتداء من الحاجة الى الوسيلة أو الى السلعة أو الى الغذاء ، وانتهاء بالحاجة الى الغريزة ، أو الجنس ، أو الضياع !

والمواصلات العصرية فى عالم اليوم تعكس ذلك المعنى الذى رميت اليه فى كلمة : بضاعة التبرير . وأكثر أدوات المواصلات سرعة ووصولا .. نجده فى وسائل الاعلام المنتشرة بوسيلة الأقمار الصناعية ، وهذه الوسائل جعلت المجتمعات اكثر اتصالا أو معرفة بعضها بالبعض الآخر .. فى الوقت الذى حققت فيه — بجانب هذا الاتصال او الالتحام — تمزقا ، وتباعدا وتسلخا فى العلاقة أو الرابطة بين الانسان والانسان ، أو بين الفرد والفرد .

فأنت تعرف الكثير عن الذى يفعله مجتمع ما فى اوروبا او أمريكا أو جنوب شرقى آسيا .. حتى لكأنك فى بلد عربى تعرف ما الذى سيجرى فى شارع أوربى ، أو مكتب أمريكى ، أو « حمام » صينى أو يابانى ! !

وأى مجتمع من تلك المجتمعات فى استطاعته ان يعرف عن البلاد العربية — مثلا ! — مايهمه فيها .. وممكن أن يعرف الحالة الاقتصادية وأن يعرف الميزان التجارى .. وذلك هو كل مايهم المجتمعات الأخرى فينا ، أوعنا .. فالمجتمعات متصلة بحجم مصالحها ، أو بنوع تلك المصالح ، ومتصلة بوسائل الاعلام حسب نسبة خدماتها ونجاحها فى التغطية .

وكما قلنا .. فإن الاعلام العالمى تبتدئ اهتماماته من السلعة ، أو المادة ، او المصلحة المشتركة ، وتنتهى اهتماماته الى الغريزة أو الجنس ، أو على أقل تقدير : الى حمام السونا الكورى ، والكورى .. نسبة الى « التقبل » الوسط ! !

أما الانسان العصرى كعلامة أو رابطة .. فهو يعانى من التباعد ، والتمزق النفسى ، وسوء الفهم لما يفعله ولما يراه فعلا فى الآخرين ومنهم . وهذه الرابطة بين انسان وآخر ، وتلك العلاقة المهتمة بالمصلحة المشتركة : عاملان أوجدا الحاجة الى بضاعة التبرير اليوم ! !

حتى المشاهير .. أو الذين يشتغلون فى وسائل تمنح المتعة أو البهجة للانسان المكدود ، والذين يحاولون مخاطبة عقل الانسان عبر دغدغة عواطفه .. فإنهم يسقطون فى تناقض الصورتين اللتين رسمتهما فى بداية هذا الحوار ! !

إن مشاهير المال يبحثون عن اللحظة اليتيمة فى طول الزمن !

أما مشاهير الفكر والفن ، المشتغلون ببضاعة المعانى .. فهم يبحثون عن طول الزمن فى اللحظة اليتيمة ! !

وكلاهما يبحث عن التبرير ، أو فى بضاعة التبرير ليكتشف ما يبحث عنه حتى الموت .. وقد يأتى الموت فى النهاية .. كنتيجة حافلة بالتبريرات ! !